وطني ليس للبيع

رواية

الأمير مصطفى

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع



وطني ليس للبيع

الأمير مصطفى

وطني ليس للبيع / رواية

الأمير مصطفى

الطبعة الأولى , ٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail :dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

الفنانة/ انتصار صبري

تدقيق لغوي :

الأستاذ/ محمد علي بصيلة

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢١٥٨

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٥٥٢- ٤

إهداء

إلى : زوجة طُلقت بلا أيِّ ذنب اقترفته ، غير أنها ليست "استايل" أي أنها لا ترتدي في الشارع الملابس الغربية المثيرة ، ولا تتكلم بتأوّه ، أو برقّة مُصطنعة ، ولا تظهر في الحفلات ، أو في التجمعات التي يكثر فيها الفساد ، وتعتزّ بدينها وترفض مسايرة التقاليد الأجنبية ، فطُلّقت ؛ لأنها لم تعد تصلح للمجتمعات الراقية.

وإلى: زوج خلعته زوجته بلا أيِّ ذنب اقترفه ، غير أنه ليس "روش" أي أنّه لا يرتدي الجيتر الضيق ، ولا يُظهر ملابسه الداخلية ويغلق فتحة قميصه، ويمشي في وقار ، ويَغَارُ على عرضه ويُريد زوجته مُطيعة ، تمكث في بيتها تنتظر قدومه لتُخَفّفَ عنه مشقة العمل ، فأصبح في نظرها رجعيا وتقليديا ، فَخلعته بعد أن نهبته ، وبعد أن فضحته أمام الجميع .

وأخيرا إلى : أُمَّة غاب وعيُها ، ولم تعد تُفرِّق بين الحقِّ والباطل ، فأصبحت مَطيَّة سهلة لأعدائها .

" لا يضيع من كان مع هذا ، أو مع ذاك . لكن يضيع من يقف حائرًا بينهما ، لا مع هذا ولا مع ذاك ."

الرِّوائيّ الكبير:

بهاء طاهر.

طقوس كلّ يوم

(١)

من الأحد إلى الخميس أيّام العمل الخاصة بمحمود في الشركة العالمية للأجهزة الطبيَّة ، التي التحق بها منذ تخرجه من الجامعة ، والذي دائما ما يردد أنه يتمنى أن يتركها لكنَّه لا يفعل، ويقول لمن يتعجَّب من طول بقائه:

- لقد تعوّدتُ هنا على الناس وأحبُّهم ويحبُّوني، وأنا من الصعب أن أتعوّد على الآخرين بسهولةَ ، وأنا هنا مدير ولي كلمة مسموعة ، وأستطيع أن أجعل القادم بعدي يُحبني ويثق في ويخشاني في نفس الوقت، أما إذا ذهبت لشركة أخرى ، فقد أكون مرؤوسا ،وجديدا في مكان جديد ، وقد لا أضمن حُسن المعاملة من الذين سأذهب إليهم ، وقد يُضايقونني ، وأنا لا أحبُّ المشاكل.

المهم هذه الأيَّام غالبا ما تكون نسخا كربونية من بعضها ، ويفعل فيها نفس الأشياء على وتيرة واحدة ، وكأنَّه يفعلها آليا دون تدخل منه ، ويرى أثناء ذهابه وعودته نفس الأشياء تقريبا.

استيقظ كعادته دائما في تمام الخامسة صباحا ، وغادر فراشه وهو يشعر بنفس الشعور الذي يشعره كلّما استيقظ من النوم ، ــوهو الشعور بالضيق والخوفــ ، ودخل المطبخ بعد أن

سوَّى فِراشه في هدوء لكيلا يُوقظ النَّائمين ، ثُمَّ أدار مؤشر الإذاعة على إذاعة القرءان الكريم ، وذهب إلى الحوض ، وفتح صنبور المياة وملأ كوبا من الماء وشربه على الريق ، لكي تنشط معدته وتطرد الأملاح كما يُردِّد دائما، ثم ملأ البرّاد ووضعه على الشعلة بعد أن أشعلها ، وبعد أن سبّ شركة الثقاب التي تغُش دائما علب الكبريت .

دخل غرفته وفتح دولاب ملابسه ، وأخذ عُلبة معدنية موجودة في آخر رف ، وفتحها وأخرج منها صندوقا من الكرتون به مكعبات سكر ، وفتح الصندوق وأخذ منه ستّة مكعبات ، وأغلقه ووضعه في العُلبة وأغلقها جيدا ،ووضعها في مكانِها وذهب إلى المطبخ .

أخذ كوبه وغسله جيدا ، ووضع فيه على الترتيب ملعقة إلا ربع من الشاي وثلاثة مكعبات سكر، وعودا من النعناع الأخضر_ والحريص على شرائه كل يوم جمعة_ وله في ذلك الترتيب حكمة، فهو يقول لمن يتعجب منه:

- وضع السكر بعد الشاي ، لكيلا يحترق الشاي عند صب الماء المغلي عليه وتصبح رائحته بها شِياط، والنعناع الأخضر لكي يجعل طعم كوب الشاي الأحمر جميلا ، وليذكرني بمنظر الأرض الخضراء ، وأما مكعبات السكر التي أتعب جدا وأنا أبحث عنها ، فتجعلني أشعر بشيء من الأرستقراطية التي ضاعت ، وحل محلها الدَّمامة والقذارة.

- لكن يا أبو داوود النعناع مضرٌ للرِّجولة .

- أرجو أن تصحِّحَ معلوماتك ، فالنعناع مهدِّئ للأعصاب وليس مضيع للرجولة !.

بعد أن صبّ الماء أخذ كوب الشاي ودخل غرفة أخيه ، وفتح باب الشرفة في هدوء،ووقف فيها وأخذ يرتشف الشاي،وهو ينظر إلى الشمس وهي تشرق.

بعد أن انتهي من شربه للشاي دخل وذهب لغرفته،وفتح دولاب الملابس واختار بِنطالا من القماش وقميصا وجاكتا ، ثم فرد طاولة المكواة وكوى ملابسه وهو منصت لإذاعة القرءان الكريم.

بعد أن كوى ملابسه لَمّ كل شيء ووضعه في مكانه ، ودخل المطبخ وغسل الكوب ووضع الشاي ومكعبات السكر والنعناع فيه من جديد ، ثمّ ملأ البرّاد بالمياة ، ووضعه على النار وأخذ جريدة الأمس ودخل الحمَام .

بعد أن انتهى من قضاء حاجته توضّأ ، ثمّ دخل المطبخ وفتح الثلاجة وأخرج منها بيضتين وقطعة جبن قريش ، وحبّة طماطم وخيارة .

قلى البيض ، ثمّ هرس قطعة الجبن بالشوكة ؛ بعد أن خرّط عليها حبة الطماطم والخيارة،وبعد أن صبّ عليها كمية زيت، ثم نثر حبّات الكمون على الطبق .

سخن رغيفين وصبّ الشاي ، ووضع طبق الجبن وطبق البيض ، وكوب الشاي والرغيفين على صينية ، ودخل غرفته وقعد على الأرض وتناول طعامه في هدوء.

بعد أن انتهى من تناول وجبة الإفطار غسل الأواني،ثم غسل يديه وتمضمض ، ثمّ غير ملابسه ، ووضع مزيلا للعرق وتعطر ، ثمّ نظر في مكتبته واختار كتابا جديدا ، ووضعه في حقيبته – الموجود فيها كتاب لم ينتهِ من قراءته بعد_،لكنه يخشى أن ينتهي منه وهو ذاهب إلى عمله ، فلا يجدُ ما يقرؤه عند العودة، ثمّ وضع الحقيبة بجوار الباب وفرش المُصلّى وصلى الصبح وأخذ يدعو الله :

– يا رب استْرني ولا تفضحني ، ولا تهنِّي ووسِّع رزقي ، واغفر لي ولِأهلي،وزوِّجني بزوجة جميلة وصالحة،فأنا لم أُغضبك وأطمع في كرمك يا رب،زوّجني بعروسة جميلة وصالحة ، تُعوِّضني عن تجاربي الفاشلة وتكون "استايل" .

بعد أن صلى طبّق المصلّى ، ووضعها على أحد الكراسي ، ولبس حذاءه وجسَّ جُيوبه ، ليتأكد من وجود هاتفه المحمول ومفاتيحه ومحفظته معه ، وأخذ حقيبته وعلّقها على كتِفه الأيمن، وأطفأ نور الصَّالة وخرج بعد أن سمع تواشيح نَهاية برنامج في "ظلال الهدي النبوي" ، والحريص على سماعه كل يوم ، وأغلق الباب وضغط عليه ليتأكد من أنّه مغلق ؛ لأنّه مُوَسْوس كما يقول بسبب مهنته التي علّمته الحرص والشّك.

(٢)

نزل السُّلّم بِبُطء ، ثمّ خرج من باب العمارة ، وسار عكس اتجاه السيارات ومشى ببطء أيضًا،وهو مُطَأطئ رأسه ومحدّب، وكأنّه رجلٌ عجوز وغير مرتبط بمواعيد،أو فيلسوف يتمشّى على شاطئ البحر .

أخرج من جيبه سِواكا غليظا -نادرا ما يستاك به عند الصلاة - ووضعه بين إصبعيه كأنه سيجار ، وأخذ يسْتاك به أثناء سيره ، وسار مسافة لا تقل عن سبعمائة متر قطعها في التفكير والتأمل.

بعد أن قطع هذه المسافة عبر الطريق ، وأشار لحافلة عائدة من القاهرة ، وركب فيها وذهب معها إلى الموقف المُكتظ بالمنتظرين ، والذين اندفعوا إليها بمجرد أن رأَوها.

قعد بجوار النافذة وأخذ يتأمَّل المندفعين ، ثمّ سبّ في سرّه قاسم أمين ، حينما رأى طالبات وموظفات ترتدين ملابس ضيقة جدا ، وتضعن المساحيق على وجوههنَّ بطريقة مثيرة ، وطبعا رفض القيام لأيٍّ واحدة منهنَّ ، فهو نادرا ما يقوم لأحد.

بعد أن تأمَّل الصَّاعدين وسبِّهم، أخرج من حقيبته الكتاب، وأخذ يقلّب صفحاته حتى وصل إلى الصفحة التي انتهى من قراءها ، وأخذ يقرأ وانشغل بالقراءة عمّا يدور من حوله .

قطع تركيزه خناقة اعتاد عليه كلّ يوم بين محصِّل الأجرة وأحد الركّاب بسبب باقي الأجرة ، فقد أصرّ هذا الراكب على دفع الأجرة الحقيقية ، فرفض المحصّل فاستنجد الراكب بالركّاب ، فخذلوه ووقفوا في صفِّ المحصّل ، ووبّخ أحدهم هذا الراكب ووصفه بالبخل .

رفض الراكب أن يدفع الأجرة المطلوبة وأصرّ على موقفه ، وطلب من السائق أن يترل في أقرب مكان ، فأوقف السائق الحافلة بدون أن يعلّق ونزل الراكب بعد أن ألقى بربع جنيه في وجه المحصل ، ونزل بالقرب من قرية ميت حلفا ، وأخذ يسُب ويلعن في الحكومة ، وفي البلد وفي الشعب، وبادله الجميع أيضا السّباب واللعنات ، أما صاحبنا فأخذ ينظر للجميع في دهشة وكأنه سائح وليس من أهل البلد، ثم أكمل قراءته ولم يبالِ بأحد.

نزل في محطة الجامع قبل ميدان المؤسّسة ، ودلف يمينا وسار نفس المسافة التي قطعها في قليوب ، ليركب الحافلة قبل أن تدخل الموقف ، نظر على يساره فلفت انتباهه سوءُ حالِ المسجد، وتذكّر جمال هيئته حينما كان مملوكا للأهالي .

سبَّ الحكومة وأكمل السير وأشار إلى حافلة قادمة من بعيد، فوقفت له حينما رأى سائقها فتيات تُرِدن الركوب.صعد بعدهُنَّ ، ثُمَّ قعد وفعل نفس الأشياء التي فعلها في الحافلة

الأولى، وحدثت نفس الخناقة بسبب باقي الأجرة ، وحدثت نفس النتيجة ودفع المعترضون الأجرة ، وهم صاغرون ، ليلحقوا بأشغالهم.

توقفت الحافلة بالقرب من سلّم كوبري أبو العلا، ونزل منها وصعد السُلَّم بِبُطء ، وأثناء صعوده رأى على يمينه عجوزا قاعد على كرسي بحر ويصطاد ، وتقعد جنبه زوجته تساعده وتكلّمه، ألقى عليهم السَّلام وتمنَّى في سرِّه أن يكون مثلهم هو وزوجته في المستقبل ، صعد أربع درجات فرأى على يساره عجوزا آخر ، يُخفي وجهه بكفّه الأيمن ، ويمدّ كفّه الأيسر للصاعدين لكي يعطوه ، رفض أن يعطيه_ مثل كل يوم _، وواصل صعوده إلى سطح الكوبري ، ثمّ سار بسرعة ليلحق الحافلة الواقفة بعيدا في الممنوع .

ركب ثمّ نظر في غيظ إلى أمين الشرطة الواقف على الرّصيف في زهو وكأنّه رئيس جمهورية ، وسبّه في سرّه بعد أن رأى في يده علبة سجائر أجنبية أخذها طبعا من أحد السائقين، وكان يضع على عينيه نظارة شمس _ أصلية وليست تقليد_ ، أُرسلت له هدية من أحد السائقين بناء على أوامره ، وقد عرف بذلك من قِبل أحد السائقين.

نزل بسرعة في محطّة جامع مصطفى محمود ، ومشى مسرعا حتى وصل إلى مقرِّ الشركة ، ودخل وسأل عمّ حسين ضابط

الأمن -بعد أن حيّاه- سؤال كل يــوم ، وكــان متوقعــا لإجابة كلّ يوم ؛ لكن عمٍّ حسين فاجأه بإجابة غير متوقعــه ، وقال وهو يبتسم في مكر:

- إنّ الجميع قد حضروا في تمام التاســعة ، ومــن قبلــهم صاحب الشركة ،ومديرة الشركة.

فقال في سرّه:

- يا لَلمصيبة ؛ لقد وقعت كارثة بكلّ تأكيد .

انتظر نزول المصعد ، ثم قال بعد أن فتح باب المِصعد

-عمٍّ حسين ، إذا تأخّرت عن موعــد نــزولي ، فاتّــصل بالبلد.. سلام .

أغلق باب المصعد ، وضغط على زر رقم تــسعة ، وأخــذ يدعو الله كثيرا أثناء صعوده في المِصعد.

سمك ملوّن

(١)

دخل وهو خائف ، فوجد علياء موظفة الاستقبال تشير إليه بإصبعها ، لِتُنَبِهَهُ بألاّ يتكلّم، ابتسم لها و دلف يمينا ، ومرّ على غرفة المبيعاتِ التي تقع قبل غرفته، وسلّم على مهندسي المبيعات بسرعة ، ودخل غرفته وجرّ درفة الباب الألوميتال ، ووضع حقيبته جنْب مكتبه ، وألقى تحيَّة الصباح على مرؤوسته:

- صباح الخير يا نرمين.

- صباح الخير يا أستاذ محمود.

- عم حسين قال لي إن الجميع حضروا مُبكّرين!،هل وقعت كارثة جعلتهم يحضرون مُبكرين؟

- نعم، ومديرة الشركة سألت عليك مرتين .

- وماذا قلتِ لها ؟

-قلتُ لها : إنك لم تحضر بعد.

- صريحةٌ جدا .

- تلميذتك .

- هل من الممكن أن تعطيِني ملخصا سريعا لما حدث ؟

-والله لا أعرف ماذا حدث ، لكنِّي أشعر بأن مصيبة قد وقعت

-استر يا رب .

- ادخل إليهم ، لكيلا يشعروا بأنكَ قد تأخَّرت .

- أنا أبو داوود ، ولا أخشى أحدا ، كم دفعوا لكِ لكي تبيعيني ؟

- قليل .

-وهل قبضتِ الثمن ؟

-نعم .

-أين بلبل الشرَّابية ؟

-عند عميل ، ولن يعود إلى الشركة .

- أحسن، أنا سأدخل إلى المديرة فادعي لي .

- حاضر .

-لو تأخرت ، اتّصلي بالبلد وبلّغيهم بأني مُحاصر، ليرسلوا لي الإمدادات !

-حاضر ، أودُّ أن أسألك سؤالا ؟

-وهل هذا وقت أسئلة!،ليس الآن بعد أن أنتهي من المعركة وأنتصر ، سلام.

-دائمًا ما تحبطني يا أستاذ محمود .

-قولي ما عندك بسرعة.

- من هذا "أبو نعيم"؟، وما هي بطولاته ؟،ولماذا سُمّيت قريتكم باسمه ؟

- وهل هذا وقته!؟، لكي أحكي لكِ عن"أبو نعيم"وأمجاد "أبو نعيم" إنه أوّل من لبس الحذاء في القرية ، سلام.

(٢)

طرق باب المديرة ، وقبض على أُكرة الباب وفتحه بعنف ، ودخل وقال بصوت جهُوري،وهو ينظر في عينيها بحدّة ، وكأنّ بينهما ثأر، وهو يقصد ذلك :

- صباح الخير يا مدام جيهان .

- صباح النور لماذا تأخرت؟

أجاب بثقة :

- لكي أحافظ على كبريائي.

ابتسمت من إجابته الغير متوقعة ، وقالت :

- نعم ! تحافظ على كبريائك بالتأخير.

- نعم ، كبريائي أهمُّ شيء عندي ، وأنا لن أضحّي به ، من أجل المجيء في موعدي،لن أجري وراء السيارات لأركب، ولن أقف وسط الزحام وأهان!

-انزل مبكرًا ،لتتجنب الزحام .

-سأحاول.

نظرت إليه في غيظ ، وقالت :

-مواعيد العمل من التاسعة إلى الخامسة ، وليس من العاشرة إلى الخامسة . احترام مواعيد العمل من احترام الشركة.

- أنا لا ألتزم بميعاد الانصراف ، وأسهر كثيرا ولا أتقاضى أجرا نظير ذلك ، لأني أعتبر الشركة بيتي.

- أرجوك لا تتأخّر مرة أخرى .

- سأحاول .

زفرت ، وقالت مستسلمة:

- اقعد أريدك في أمر هام .

- خيرًا يا مدام جيهان .

- ليس خيرا .

قعد وأخذ ينظر إليها وهي تبحث في هاتفها المحمول ، ثم أعطته له ،وقالت:

- اقرأ هذه الرسالة.

أخذ منها الهاتف وقرأ الرسالة في سرّه،فاحمرّ وجهه خجلا، فقد كانت رسالة سبّ وقذف،وتحتوي على ألفاظ تخدش الحياء العام،ويعاقب عليها القانون والشرع،سأل عن صاحب الرسالة؛ فقالت بغضب :

- هاني السيد.

- هاني السيد من؟

- مهندس المبيعات،هل يُرضيك هذا؟،هل وصلت به الوقاحة لهذه الدرجة؟ ، كيف يرسل مثل هذه الرسالة إلى زميلة له في الشركة؟

- من هي؟

- لمياء.

- موظَّفة خدمة العملاء ؟

- نعم،البنت مُنهارة،ومُصمِّمة على تحرير محضر في الشرطة.

أحسّ بطعنة في قلبه ، وقال غاضبًا :

- من حقّها،هذه الرسالة تطعن في شرفها، كيف يجرؤ على إرسال مثل هذه الرسالة !؟ أين هي الآن؟

- في غرفة خدمة العملاء جالسة مع زميلاتها،ومنتظرة نتيجة التحقيق مع هاني.

- وأين هو الآن ؟

- حضر في الثامنة ليسترضيها،وليتأسف لها ، لكنَّها رفضت وصمَّمت أن تبلّغ صاحب الشركة ، فلم يجد غير الهرب ، فتعلَّل بأنَّه مرتبط بمواعيد وبلّغ علياء ،حينما جاءت ونزل ولا يرد على أحد من هاتفه.

- وما هو المطلوب مني ؟

- أنت تعمل معنا منذ سبع سنوات،والكل يحبُّك ويحترمك، ورئيس مجلس الإدارة يثق بك ويحبُّك ، وقد كلّفني بالتحقيق في هذه الواقعة ، وأمرني بأن أشركك معي،وأستشيرك ، ثم أعرض عليه نتيجة التحقيق.

- وهل عرف بالموضوع ؟

- طبعًا ، لقد أرسلت له الرسالة بمجرّد أن وصلتني ، وهل أستطيع أن أخفي عنه شيئا مثل هذا ؟

قال في سرِّه:

- طبعًا ، لكي تشعليها ، فأنتِ تفرحين في المصائب.

ثم قال:

- وما هو المطلوب منّي؟

- أريد أن أعرف كل شيء عن علاقتهم ببعض،بكلّ صراحة ووضوح ، لكيلا أظلم أحدا منهم ، أعرف أنّ الموظفين كلّهم يثقون بك ، ولا يخفون عنك شيئا.

- حاضر ، باختصار لمياء كانت تحب شابا،تعرفت عليه في الجامعة، وطبعًا لا يملك شيئا غير الكلام،ولو ملك لن يتزوجها.

- لماذا ؟

- لأنه لن يتزوج فتاة مشت معه

- ما هذا التخلف؟

- هذه هي الحقيقة التي تعرفها كلُّ بنت وكلُّ ولد.

- إذا لماذا يتظاهرون بالحب ويتواعدون على الزواج ؟

- لِيُبَرِّرُوا علاقتهم ببعض ، المهم هي حكت لي عن هذه العلاقة ، فنهرتُها وأمرتُها بإنهاء هذه العلاقة، لكنها لم تستجب لي،وأخذت تتكلم عنه مع زميلاتها،وكأنها تتكلم عن زوجها ، فحذّرتُها وقلتُ لها أنّ هذا عيبا ، فتضايقت وقالت:"أنا لا أقول كلاما عيبا أخجل منه ، البنات كلهن يتحدثن عن حبهنَّ بلا خجل نحن في مِصر ولسنا_ في الفلاحين_ عندكم" بعد أن قالت هذا الكلام ، لم أتكلم معها في هذا الموضوع مرة أخرى، لأنه ليس لي سلطانٌ عليها ، ولم أهتم بعد ذلك بهذا الموضوع ، إلا حينما وجدت هاني يحوم حولها ، ويتظاهر أمامها بأنّه رجل متفتح ومتقدم مثلُها ، وكان يردد جملا كنتُ أسمعها في الجامعة كثيرا ، من الشباب الذين يعيشون يومهم مثل "إنّ البنت من حقها أن تحب الإنسان الذي ستتزوجه قبل أن يتقدم لخطبتها ، وعليها أن تتعرف عليه وتدرس طباعه قبل أن يتقدم إليها، وأنّ ماضيها ملكٌ لها ، ولا يحقُ لأحد أن يحاسبها عليه" ففهمتُ أنه يريد أن تترك من تحبُّه وتحبُّه هو ، ثم يرميها بعد ذلك ، لأنّي أعرف رأيه الحقيقي في البنت التي تحبُّ شابا دون أن تكون مخطوبة له ، فقد قال لي حينما سألته ذات مرّة:

- لماذا تسبُّ الفتاة التي تتَّصل بك وتحبُّك ؟

- لأنها عديمة التربية وأهلها غير محترمين.

- لماذا؟

- لأنها رضيت أن تكلّمني وأحبّتني قبل أن آتي لخطبتها.

- ولماذا تكلمها، مادام رأيك فيها هكذا ؟

- لأنها غير محترمة ، وأنا أحق بها من غيري.

- وما ذنب من يخطبها بعد ذلك ؟

- ذنبه أنَّه قِرطاس ، و لم يحسن الاختيار.

- لذلك طلبت من نرمين أن تُحذِّرها منه،فتنبّهت له وبدأت تعامله بحذر،لكن للأسف بعد أن حكت له عن كل شيء عنها وعن حبيبها،وشعر بذلك فغيَّر من أسلوبه وبدأ يُلمّح لها بحبه ، فصدّته وقالت : إنَّها مرتبطة بحبيبها وستتزوّجه ، فاغتاظ منها لأنّها تدّعي الشَّرف أمامه _كما يقول_ ، وعرفت من أحد الزملاء أنه مُغتاظ منها ومصمّم على مطاردتها ، فحذّرته من التعرض لها ، و لم أتكلم في هذا الموضوع مرّة أخرى ، وانشغلتُ بإعداد الميزانية فنحن في شهر أكتوبر ، هذا كلُّ ما أعرفه .

- يا له من قذر!

- للأسف يا مدام ، يوجد الكثير مثله ، ويفعلون ما يفعله ومع متزوجات .

- ما هذه القذارة التي نعيش فيها؟

- الكلُّ يقلّد ما يراه في التلفاز ، وخصوصًا ما يحدث في الأفلام والمسلسلات العربية والأجنبية ، بالإضافة لغياب الدِّين ، وانشغال الأهل ؛ لذلك ضاعت كلُّ القيم .

- معك حق، لقد أصبحنا نقلّد الغرب في كل شيء،حتّى في الأشياء التي لا تناسبنا ، والتي تتعارض مع تقاليدنا وديننا.

نظر إليها من فوق إلى تحت وقال ساخرا:

- صح

- المهم هي بالأمس استأذنت،وانصرفت قبل ميعاد الانصراف بساعة،لأنّها مرتبطة بميعاد مع صديقتها ، وحينما حان وقت الانصراف لم يجدها هاني ، فسأل عنها وعرف من علياء أنها استأذنت وانصرفت ، فطلبها من هاتفه المحمول فلم ترد عليه لأنّها لم تسمع رنّة الهاتف، فظن أنها ذهبت لتقابل حبيبها ، فجُنَّ جنونه واغتاظ منها ، فأرسل لها هذه الرسالة . هذا كلُّ ما حدث.

- وهذا ما كنت أتوقعه منه ولها، للأسف هي التي أخطأت.

- معك حق،لكنّها مؤدبة ، وبريئة من كل التهم التي اتهمها بها هاني، إنها تصلي الفرض في وقته ، وتصوم يوم الاثنين ويوم الخميس طوال العام ، وتصلّي التراويح طوال شهر رمضان في المسجد وملابسها غير مثيرة!

- لكنها للأسف تحب شخصا لا يُمتّ لها بصلة ، وتخرج معه ويمسك يدها _على حدِّ قولها_ ، وتشتري له هدايا في كل مناسبة وكأنّه زوجها ، وتتباهى بكلِّ هذه الأفعال أمام الجميع، وهذا ما جعل هاني يطمع فيها.

- معك حق أنا أرى هذا التناقض كثيرا ، أنا سأدخل إلى أشرف بك،وسأخبره بما قلته،وأنت اقعد في مكتبك ولا تتكلم مع أحد في هذا الموضوع ، أرجوك لا أريد فضائح ، ولا سمعة سيئة للشركة.

-حاضر لن أتكلم مع أحد،لكني أخشى أن يكونوا قد عرفوا منها أو منه.

-ربنا يستر ، هاني لم يتكلّم مع أحد، وهي لن تقول لأحد، لكيلا تفضح نفسها ، هي حكت لإسراء فقط ، ولي.

-ربنا يستر ، عن إذنك .

قام وفتح الباب ، وخرج وهو يقول في سِرِّه :

-أعرف أنكِ ستقولين لكل من في الشركة أنا أعرفك ، تعشقين المصائب ، لتظهري أمام الجميع بدور المنقذة الوحيدة.

(٣)

حكى لنرمين ما حدث فذُهِلت من تصرف هاني، الذي كان يتظاهر أمامها وأمام الجميع،بالاحترام والرجولة والتحضُّر، وأخذت تستعجب وتضرب كفا بكف.

قال محمود محذرا :

-حذارِ أن تحكي لأحد،أنا حكيتُ لكِ لتتّعظي منها، ولكيلا تقعي في نفس الحفرة .

-حاضر.

قطع كلامهما رنين الهاتف،رفعت نرمين السماعة ثم وضعتها ، وقالت :

-أستاذ محمود اذهب إلى المهندس أشرف ، فهو يريدك.

نظر إليها نظرة ذات مغزى ، وخرج وهو يدعو الله. طرق الباب بهدوء ، ودخل . ألقى السَّلام على الجميع ، وقال:

- سيادتك طلبتني ، هل تأمرني بشيء؟

قال وهو يشير إلى لمياء الجالسة أمامه منكسة الرأس :

-لمياء قدّمت استقالتها لظروف خاصة بها،ونحن قبلناها ونتمنى لها التوفيق ، اصرف لها راتب شهرين،واجعلها تُوقّع على إخلاء طرف لنا ولها.

- ولكن

لم تدعه المديرة يكمل كلامه ، وقالت في حزم :

-اذهب معها ؛ لأنها مرتبطة بميعاد .

قال وهو ينظر إليها في غيظ :

-حاضر .

خرجا من عنده ، ودخلا مكتبه وقعدا ، وقال لها:

-أنا آسف كنت أتمنّى أن أساعدك،وكنت أتمنّى ألاّ أرى هذه النِّهاية الحزينة .

-أنا بريئة من كل هذه التُّهم،أنا لم أفعل شيئا مشينا ، وأنت أكثر واحد تعرف ذلك .

-والله أعرف ذلك ، وقد دافعت عنكِ أمام المديرة ، وقلتُ الحقيقة وقلتُ إنّكِ بريئة .

-إذا لماذا ذبحوني وعاقبوني ، وتركوا الذي سبّني؟

-لقد فعل صاحب الشركة ذلك حماية لك .

-حماية لي! كيف؟

-لو جعلكِ تستمرّين في العمل،فإن ذلك قد يعرضكِ لمضايقات بعض الزملاء والزميلات،وقد يجعل بعض ضعاف النفوس يطمعون في مصاحبتكْ .

-لكن الكل يعرف أخلاقي.

-للأسف بعضهم قد يصدق كلام هاني ، وقد يضيف عليه كلاما كذبا .

- أنا لا أصدق ما أسمعه منك .

-للأسف هذه هي الحقيقة،وقد حذّرتكِ أكثر من مرة ، ومن هاني هذا بالذّات.

- أعرف ذلك لكنّي ، لم أكن أعرف أنه بهذه القذارة .

-للأسف كثيرون مثله ، يخفون حقيقتهم وراء أقنعة يضعونها على وجوههم، وأرجو أن تكوني قد أخذتِ عِبرة من هذا الدرس القاسي ، ولا تثقي بعد ذلك بأحد غير أهلك .

-لقد أخذت درسا لن أنساه ، لكنّي الآن في مصيبة أكبر.

-ما هي ؟

-أنت تعرف ظروفي المادِّية ،وتعرف أنّ أبي متوفّي،وأنا أنفق على نفسي،وأجهّز نفسي ومرتبطة بجمعية،وأقساط أدفعُها كلّ شهر ، ولا أعرف كيف أتصرَّف؟

-إن شاء الله ستجدين عملا بسرعة،خلال الشهرين القادمين، فنحن في أول الشهر والمهندس أشرف دفع لك راتب شهرين،لكي تستطيعي أن تبحثي عن عمل خلالهم .

-كيف يا أستاذ محمود ؟ السوق نائم وليس معي واسطة .

اغتمّ وشعر بضيق شديد،وقال وهو ينقر على مكتبه بقلمه:

- أستغفر الله العظيم، إن شاء الله خيرا ، أنا سأسأل كلّ من أعرفه ، وإن شاء الله خيرا ، وإن لم تجدي عملا ، أنا معي مال ولن أحتاجه إلا في الصَّيف القادم ، اطلبي ما تحتاجينه وحينما تجدين عملا ردّيه إلي .

- أشكرك على أخلاقك .

-ما أقوله ليس كلامًا ، كلنا معرضون للأزمات ، هل من الممكن أن أتَّصل بكِ ، لأطمئنّ عليكِ ؟

-بكلّ تأكيد ، ليت كلُّ النَّاس مثلك .

-شكرا لك،ولا تحملي همّا،وكلُّ ما أرجوه منكِ أن تتعلمي من هذا الدرس ، وتقطعي علاقتك بذلك الشخص الذي أكرهه ، دون أن أعرفه والذي تحبِّينهَ وهو لا يقدِّر حبك هذا.

-سأحاول.....قالتها في رقة وانكسار.

-قولي نعم ، وإلا ضربتُكِ زوج أقلام على خدّك، ثم إنكِ مخطئة خطا جسيما

-لماذا؟

-لأنكِ لم تعرفي حقيقة السافل هاني؟

-كيف ؟

-ألم أعلّمْك نظرية القفا،ألم أقل لكِ انظري في قفا الشخص، لتعرفي حقيقته .

ضحكت ، وقالت :

- لم أستطع أن أفسّر قفاه ، أنا لست مثلك يا أبا داوود .

- اضحكي لا أريدك أن تخرجي مهزومة،وارفعي رأسك وسلّمي على كلِّ الموظّفين ، وكأنَّ شيئًا لم يحدث،وأما بالنسبة للوغد بن الوغد ، فأعدُكِ بأنه لن يستمرَّ هنا طويلا ، وثِقي بأنَّ الله سينتقم منه شرَّ انتقام .

-حاضر قالتها ...وهي تبتسم.

انتهى من كلِّ ما أمره به صاحب الشركة،وأعطاها شهاداها ومستحقاها الماديّة ، ثمَّ خرج معها بعد أن سلّمت على نرمين التي قبّلتها وحضنتها وهي تبكي.

سار بجوارها في الشركة ، وجعلها تسلّم على كلِّ الموظفين واحدا واحدا ، وكان يقول لكل موظف

- ابنتي باعتني من أجل المال، يا خسارة على الأيام الجميلة التي لن تعود.

خرج معها وأصرَّ على الانتظار حتى صعد المِصعد ، وفتح لها الباب وأدخلها ، وقبل أن يغلق الباب قال لها :

- احرصي على نفسِك ولا تنسي كلامي ، أنا معي نقود ولا أحتاجها ، أنا أنتظر لكن أنت لا ، سلام.

دخل إلى غرفته وجرّ درفة الباب وقعد. نظر إلى نرمين ثم نظر في الأرض وبكى . قامت نرمين واقتربت منه ، وسألته

-ماذا حدث يا أستاذ محمود ؟

-لا شيء .

-أنا أرى الدُّموع في عينيك .

-قلت لكِ لا شيء .

-ألا تريد أن تخبرني يا أستاذ محمود؟،وأنا التي أقول لكَ كلَّ شيء .

أخرج منديله من جيبه ، وجفّف دموعه ، وقال :

- أنا أحتقر نفسي؟

لماذا ؟

-لأنّي لم أستطع حمايتها ، أنا جبان ، لقد قلتُ لمدام جيهان عن حبيبها ، كان من المفروض عليَّ ألا أخبرها بما أعرفه ، أنا السببُ في طردها من الشركة،أنا غبي.أنا كنت أظنُّ أنّ المشكلة ستُحلُّ بشكل ودِّي .

-مدام جيهان تعرف عنها كلٌ شيء ، هي حكت لها كلّ شيء لكي تنصحها ، وأنت لم تفترِ عليها .أنت قلت الحقيقة ، وكشفت هاني أمامها ، ولو قلت خلاف ذلك لم تكن مدام جيهان لتصدقك ، لا تُحمّل نفسك أكثر من طاقتها ، إنها هي المسؤولة عن أفعالها ، ثمّ كيف كنتَ ستُبَرِّر سبب إرسال هذه الرسالة؟ ، أنت قلت الحقيقة التي يعرفها الجميع .

-أنا حزين لفراقها وسأكون تعيسا ، لأنّي لن أراها مرَّةً أخرى.

-أستاذ محمود ؟

-نعم .

-هل كنتَ تحبُّها ؟

-نعم .

- ولماذا أخفيت حُبَّك ، و لم تخبرنِ لأساعدك؟

- لم أستطع؟

-لماذا؟

-لأنّي أعرف نفسي جيدا ، فأنا لن أتزوَّجها أبدًا .

-لماذا؟

-كيف أتزوج من فتاة مشت مع غيري ، وأنا لم أمشِ مع أحد قط!

-حتى أنت تقول نفس الكلام ، الذي يقوله معظم الشَّباب.

-نعم ؛ ولكني لا أفعل مثلهم .

-مادمت تعرف ذلك ، فلماذا أحبَبْتُهَا؟

- أنا لم أُحبّها بالمعنى الذي تعرفينه ، كلُّ ما في الأمر ، أنّني طوال عمري أحلم بأن أتزوج فتاة بمثل رِقتها وجمالها ، بشرط ألّا تكون قد عرفتْ أحدا قبلي ، فحزنت لأنّي وجدتها ، لكني لم أستطع مدّ يدي إليها لتترك حبيبها وتُحبّني ، واكتفيت بمتعة النظر إليها والحديث معها .

-ولماذا كلُّ هذا العذاب ؟ لماذا لم تُلَمِّحْ لها بِحُبِّكْ ؟

-كيف أُلّمح لها بحبّي ؟ ، وأنا من المستحيل أن أتزوّجها .

-لماذا ؟

-للأسباب التي قلتها لكِ .

-هي لم ترتكب جريمة مخلّة للشَّرف،لماذا لم تغفرْ لها مادمت تحبها؟

-لم أستطع هي مثل السمك الملون،شكلُه جميلٌ ويسّر النَّاظرين،وتتمنَّين أن تنظري إليه دائمًا، لكنّكِ لن تأكليه حتى ولو كنت جائعة،ولا يوجد غيره في البيت ، هل تعرفين لماذا ؟

-لأنه سام .

-هي كذلك جميلة ، لكنّها سامة ، ولو تزوجتها سأموت من سمِّها .

-كيف؟

-لأني سأشكُّ فيها ، إذا حدث منها أيُّ شيء ، وسيقتلني الشك ، أنا أعرف نفسي جيدًا . نرمين

-نعم يا أستاذ محمود .

-حذارِ أن تصدَّقي أحدًا يقول لكِ أنّه يحبّك .

-حاضر ؛ لكن هل من الممكن أن أسأل عن السبب ؟

-لأنه إن كان كاذبًا ، فلن يكتفي بعدم الزواج منكِ ، ولكنَّه سيجعلكِ تتعذّبين بحبّه، ثمّ بعد ذلك يتحجَّر قلبُك ، وتصبح مشاعرك قاسية نحو خطيبك الذي سيحبُّك ، وتفقدين لذّة الحب ، وإن كان صادقًا فلن يتزوجك أيضًا .

-لماذا؟

-لأنّه لن يكون معه مالٌ ليتزوجك به، لأنه سيكون قريبًا من سنِّك ، ولم يكوِّن نفسه بعد ، وسيتركك حزينة وكارهة للحب .

-إذًا ماذا أفعل؟

-اجعلي مشاعرك مثل الكنز الثمين، ولا تعطيها إلّا لمن يستحق ، انتظري حتى يتقدم لخطبتك شابٌ محترم، ودقّقي في اختيارك ، ثمّ بعد ذلك تزوَّجيه واستمتعي معه بلذّة الحب الحلال ، انتظري مثلي أنا صابر حتى أجد من تستحق حبي ، ولن أيأس حتى ولو خطبت مائة مرة ، المهم عندي أن أجد من أحبُّها ، ولن أفرِّط في مشاعري وأجعلها رخيصة ،_ أي نعم _ أنا فشلت من قبل ، لكنّي لن أيأس ، وإذا وجدت من أبحث عنها ، سأحبّها ولن أجعل فشلي يؤثر على علاقتي بها.

-ولكنّي أراك معذّبًا وحزينًا .

-لا تقلقي لقد درّبت نفسي على الحبِّ الصامت ، المهم لا تقولي لأحد في الشركة ، وأنا أعرف كيف سأخرج من هذه الحالة.

-حاضر أنا تلميذتك المخلصة ، _ إنّنا الحسابات نشتري ولا نبيع _كما علمتني .

-وحذارِ أن تتكلمي مع أحد بخصوص لمياء .

-حاضر .

-هل من الممكن أن أطلب منكِ شيئًا؟

-طبعًا يا أستاذ محمود .

- أنا عطشان وأريد كوبًا من الماء ، ولا أريد محمد عامل البوفيه أن يراني هكذا ، هل من المُمكن أن تذهبي إلى المطبخ ، وتحضري زجاجة مياه وكوب؟

-حاضر .

خرجت ،ثمّ عادت فأخذ منها الزجاجة وصبَّ الماء في الكوب وشرب ، ثمّ قال _بعد أن دقّق في إحدى الصور المعلقة على الحائط وكأنَّه يراها لأول مرة ، وكان مرسومٌ فيها ثلاثة نساء يلبسن ملاءات لف تكشفنَ أكثر ممّا تسترن ، وينظرنَّ في وقاحة ، وفي خلفية الصورة مسجد كبير-:

-سحقًا للعلمانيين الذين جعلوا معظم البنات كالسمك المُلوَّن ، يصلّين بالنهار ويفجُرن باللّيل ، أين أنتِ يا من أبحثُ عنكِ في كلّ مكان؟

لكل دار مدار

في تمام الخامسة غادر الشركة،ورفض أن ينتظر أحد ، وهذه عادتُه حينما يكون غضبانًا ، ذهب إلى محطة انتظار الحافلات ، ثم ركب حافلة ذاهبة إلى ميدان التحرير ، وقعد جنْب الشُّباك وأخذ يفكر فيما حدث للمياء ، وأخذ يسأل نفسه :

-هل هي مخطئة ؟ هل هاني عنده حق حينما وصفها بعدم الاحترام وسوء السلوك ؟هل هي مؤدّبة ؟ لو طلب أحدٌ يدها وسألني عنها ماذا أقول له ؟ ما هو المعيار الذي أقيّم به الناس ؟

وصلت الحافلة إلى ميدان التحرير ، ونزل ووقف ينظر يمينًا ويسارا ، لكي يجد حافلة متجهة إلى ميدان المؤسّسة فلم يجد ، شعر بالضِّيق وقال غاضبًا :

-طبعا لن أجد مكانًا وسط هذا الزِّحام،إنّ موعد خروجي هو نفس موعد عودة البواخر النيلية من القناطر،والممتلئة بالهاربين والهاربات من الجامعات أو من العمل،والذين يفجُرون هناك منذ الصباح،ثم يعودون في هذا الموعد،ليعودوا إلى منازلهم في نفس موعد الرجوع من العمل أو الجامعة ،وليكملوا الكذب على أهاليهم ، _آهٍ من هؤلاء الأوغاد_ ، سحقًا للحكومة التي حوّلت الجامعة من منارة للعلم إلى ملهى ليليّ .

لمح حافلة كبيرة تعبر الطريق،مدهونة باللون الأخضر واللون الأبيض،ـوهما اللونان المميزان لحافلات القليوبيةـلم يسرع نحوها فقد اندفع إليها الرّكاب بمجرد أن لمحوها،شعر بالضّيق فقرر تغيير مساره،عبر الطريق وسار بجوار المُتحف يتأمّل المارين.

لفت انتباهه شابٌ يسير بجوار فتاة مُحجّبة ، وهو يضع ذراعه على كتِفها ويسيران؛ وكأنهم في أوروبا وبدون أن يبالوا بأحد سواء من أفراد الشرطة أو من المارين ، نظر إليهم في دهشة وأكمل سيره ، فرأى شابًا آخر يمسك بيد فتاة ، ويسير ــوهو ينظر في عينيها ــ دون أن ينظر أمامه وكأنَّه يمشي آليًّا ، ضحك بصوت عال وأكمل سيره ، فرأى آخر يمسك بزجاجة مياهٍ صغيرة ، ويصبّ منها الماء في فم حبيبته من بعيد ، وهم يضحكون ولا يبالوا بالمارين ، وكثيرون على شاكلتهم ، نظر إليهم بازدراء وتذكر خطيبته الثانية وقال محدّثا نفسه :

-كلُّ هؤلاء سمك ملون! ، كل هؤلاء مثل لمياء ونورا !، أين أهاليهم ؟! ألا يخافوا أن يراهم أحد؟ ، يا رب ارحمني.

وصل بالقرب من محطة المترو ، وعبر الشارع ، واتجه يسارًا نحو شارع طلعت حرب ، ومشى على مهل ، وأخذ يحدّق في الفاترينات -وهذه عادته حينما يكون حزينا -وتوقّف أمام

أحد محلات بيع الملابس الحريمي،وأخذ يحدّق في الفاترينة ، وأعجبه أحد الفساتين المثيرة وقال وهو يبتسم :

-إن شاء الله حينما أتزوّج ، سأشتري مثله لزوجتي .

أكمل سيره حتى وصل لشارع ٢٦ يوليو ، وعبر الطريق ودخل مكتبة هيئة الكتاب، سلّم على أمين المكتبة -الذي يعرفه من كثرة تردّده على المكتبة- وسأله عن الكتب الجديدة، و لم يجد ما يريده فسلّم عليه وخرج .

بعد أن خرج من المكتبة ، اتّجه يسارًا إلى ميدان التوفيقية ، ودخل مكتبة الهيئة الموجودة في صدر الميدان،وخرج بعد أن اشترى كتابًا عن الحياة الوُجدانية للحيوان ، ووضعه في الحقيبة، ثمّ دخل أحد محلات الفول والطعمية ، واشترى (سندوتش فول وسندوتش طعمية وعلبة طرشي)،وأخذ يبحث عن مكان ليقعد فيه فلم يجد ، فكل الدّكك مشغولة بالعشاق أو بكبار السن ، أخذ يمشي حتى لمح دكّة،قاعدا عليها طالبٌ وطالبة وكانا يحدّقان في أعين بعضهما ويتهامسان،قعد جنْبهما دون أن يستأذن ، بدت عليهما علامات الضّيق فلم يهتم، وضع حقيبته جنْبه وبدأ يأكل ، نظرا إليه في غيظ وقاما ومشيا ، فلم يهتم أيضًا.

انتهى من تناول طعامه ، ثمّ أخرج من حقيبته الكتاب الذي اشتراه ، وأخذ يقلّب صفحاته ثمّ وضعه في الحقيبة ، وأخذ يتأمّل المارين والقاعدين.

جاء رجلٌ وقور ، وقطع تأمّله وسأله

-هل من الممكن أن أقعد جنْبك؟ هل يوجد معك أحد ؟

-لا تفضّل .

-شكرًا .

بدون مقدمات سأله بعد أن توسّم فيه الخير، ــوهذه إحدى عاداته أيضًا_يتكلم مع أشخاصٍ كثيرين بدون أن يعرفهم ويستشيرهم في خصوصيّاته،ثمّ يستمع إلى نصائحهم ، ويتركهم دون أن يعرف حتى أسماءهم.

– من فضلك أريد أن أستشيرك في أمر هام ، وأريد رأيك ، إذا كان هذا لا يزعجك.

– تفضّل .

حكى له عن ضيقه من البنات ، ومن الأفكار الجديدة التي يسمعها منهنَّ،وحكَى له عن المشكلة التي حدثت للمياء ، وسأله عن رأيه فيها،وطلب منه النصح والمشورة؛ بعد أن انتهى من قص حكايته . قال الرجل الوقور :

-قبل أن أجيبك،أحب أن أعرِّفك بنفسي،أنا موجه تاريخ .

-أهلا بحضرتك ، وأنا موظَّف في شركة .

-أهلًا بك، كلّ ما تقوله أنا مصدّقه ، وسمعت بأذني كلامًا شبيهًا بما قلتُه،ورأيت بعيني كلّ ما تحكيه، بدون أن أطيل عليك، سأقول لك كلمتين : لكل دار مدار .

-لا أفهم .

- سأشرح لك،الدار الواسعة مدارها واسع ، والدار الضيِّقة مدارها ضيِّق، أقصد لكل شخص مدارٌ خاصٌ به،وتفكيرٌ خاصٌ به،ويختلف عن الشخص الآخر،وحسب ما يكون مداره سيكون حكمه على الأشياء ، فلو كان فاسدًا فسيتقبّل الفساد بهدوء،وسيبرّر له بألف حُجَّة،ولو كان صالحًا فلن يقبل بالفساد أبدًا .

-وكيف أعرف إذا كانت التي سأتقدم لخطبتها مؤدَّبة ، أو غير مؤدَّبة ؟

-دقّق قبل أن تختار واتركها على الله ، وحذارِ أن تفتِّش في الرغيف .

-لا أفهم .

-إذا أعطيتك رغيف ، وطبق به فول ماذا ستفعل بهم؟

- سأغمّس قطع الخبز بالفول .

- بدون أن تفتح الرغيف! ، وبدون أن تفتش فيه! ، لتتأكّد من أنه نظيف وليس به أي شيء قذر!.

-نعم .

-وإذا فتحته ووجدت فيه شيئا قذرًا ، مسمار أو حشرة صغيرة ، ماذا ستفعل؟

-سأشعر بالقرف ، وسأرميه .

-المرأة مثل الرغيف،لو فتَّشت عن أخلاقها فلن تتزوجها.

-كيف تقول هذا الكلام ؟ كيف أتزوجها دون أن أسأل عنها ، وعن أخلاقها وبدون أن أختبرها !؟

- لأنَّك لو سألت عنها ، فلن تصل إلى نتيجة ، ولن تعرف حقيقتها .

-كيف ذلك؟

- لو سألت الجيران عنها ماذا سيقولون؟

-سيقولون الحقيقة !

-لا لن يقولوا الحقيقة .

-لماذا؟

-لأنَّ بعضهم سيقول : إن عنده بنات ، ويخاف أن يظلم بنات الناس،ولن يقول لك الحقيقة وسيكذب عليك ، والبعض الآخر لن يكذب عليك ، ولكنَّه سيضلّك .

-كيف؟

-ألم أقل لك إنَّ لكل دار مدار؟،وإنَّ لكل شخص حكمًا مختلفًا على نفس الأمر ، لذلك قد يقول أحدهم إذا سألته عن

أخلاق البنت التي تريد أن تخطبها ، بأنَّها مؤدبة ومثل أخته ، وقد تكون على علاقة بأحد الجيران،ولكنَّ الحب في نظره ليس عيبًا ، ولا حرامًا ، أفهمت ما أقصده؟ ، لقد أصبح لكلِّ واحد منَّا قانونًا مختلفًا يحكم به على الأشياء ، لأننا جعلنا العرف هو المعيار الذي نقيِّم به الأشياء،وليس شرع الله ، والعُرف متغير حسْب المكان والأشخاص والزمان،لكن الشرع ثابتٌ في كلِّ مكان ، وفي كلِّ زمان، وعلى كلِّ الأشخاص ، هل فهمت ما أقصده ؟

-نعم .

-وحذارِ أن تسألها عن ماضيها أبدًا .

-لماذا؟

-لأنَّك لو سألتها،وأجابت بأنها لم تعرف أحدًا قبلك، وكانت تعرف غيرك،ستصبح في نظرها مغفلًا وقرطاسًا، وستسقط من نظرها ، وإذا كانت وقحة أو من المتديِّنين الجدد، وقالت لك إنَّها كانت تعرف غيرك،وكانت تحبُّ غيرك، وأعجبك شكلها وخطبتها ، ستصبح في نظرها ديوثًا أو بلا كرامة ، وستركبك وستعيش معذَّبًا طوال العمر.

-إذًا ماذا أفعل؟

- ابحث عن ذات الدين .

-ألم أقل لك إنّ البنت تصلّي وتصوم ، وتمشي أيضًا مع شاب ، وتحبه وتخرج معه .

-هذه ليست متدينة هذه منافقة،وربنا دائمًا يفضح المنافق، ويستر المؤمن،واعلم أنّ الجزاء من جنس العمل،فإذا كنت متدينًا عن حق فلن يُضِلّك الله،وستجد المتدينة عن حق،ابحث عن بيت محترم وانظر للأب وللأم ولشقيقاتها،واحكم عليهم بمعيار الدين فقط ، وحذارِ أن تخاف مادمت مع الله ، إن الله لا يترك عباده المؤمنين يهوون في الحفرة دون تنبيه ، فينبِّهم بطرق مختلفة،كلٌّ حسْب عمله،وعلى المؤمن أن يكون فطنًا ، وَحَذِرًا، ويحلل كل ما يراه،ولا يمشي في الدنيا كالبهيمة ، أو كالأعمى ويهوى في الحفرة ، ثم يسُبُّ ويلعن بعد ذلك ، يا بنيَّ حذارِ أن تخاف مادمت تؤمن بالله .

-ونعم بالله .

- أنا والحمد لله ، لا أخاف أبدًا هل تعرف لماذا ؟

-لا

-سأشرح لك ، حينما تكون خائفًا ماذا تفعل؟

-أذهب إلى أبي أو أمي، وأقعد بينهم ، وأحكي لهم عن همّي.

-لماذا؟

-لأهم لن يضرُّوني أبدًا ، ويخافوا على مصلحتي .

-مع فارق التشبيه وسبحان الله المتره عن أي تشبيه،فإن الله بالنسبة لي مثل الأب والأم بالنسبة للابن، لكنَّ الفرق بينهم أن الأب،أو الأم؛قد يموتون قبل الابن وغير دائمين لكن الله موجودٌ بالأمس واليوم وغدًا وإلي مالا نهاية ، ولن يخذلني أبدًا مادمتُ أطيعه ، ثِقْ بالله ولا تحزن.أنا دائمًا أنظر للسماء، وأقول لست خائفًا مادمتُ موقنًا بأنك موجودٌ معي اليوم ، وإلي أبد الدهر .

-هل فهمت قصدي؟ ارمي حمولك على الله ، ولا تهتم.

-صح .

ويوجد شيءٌ آخرٌ أريد أن أقوله لك ، وهذه عن تجربتي في الحياة ، عِش مع أولادك ، ولا تعش لأولادك .

-وما الفرق؟

-الفرق كبيرٌ جدًا،لو عشت معهم ستربِّيهم وستستمتع معهم،لكن لو عشت لهم ستربيهم، وستحرم نفسك من أجلهم ولن تستمتع معهم ولا بهم ، وفي نهاية الأمر لن يُقَدِّروا ذلك لأنَّ من يأخذ ليس كمن يعطي .

قطع كلامهم صوتُ رنينُ هاتفِهِ المحمول ، نظر في الشاشة واستأذن منه وقال:

-كنت أتمنَّى أن أتكلم معك أكثر من ذلك،لكن ابنتي تنتظرني هل تريد شيئًا؟

-لا شكرًا .

-السلام عليكم .

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

قام هو الآخر ، وعبر الشارع وسمع صوت أذان المغرب، فردَّده في سرِّه ، وقال في تكاسل :

- سأصل قبل العشاء ، وسأصلِّيه في البيت .أنا مرهق .

ركب أتوبيس رقم ٩١٧ المتجه إلى قليوب،وقعد وأخذ يفكِّر في كلام الرجل ويردِّد كلماته .

قطع صمته رنين هاتفه المحمول.نظر في شاشة الهاتف، فوجد اسم ابن عمته،فتشاءم وقال قبل أن يضغط على زر الفتح:

--خيرًا يا نذير الشؤم ، من الذي مات؟ الو ، الحمد لله .

-عفيفي زوجته ماتت .

-لا حول ولا قوة إلَّا بالله ، متى ؟

-منذ نصف ساعة،وستُدفن غدًا بعد صلاة الظهر.بلِّغ حسين ؛ لأنه لا يرد على الهاتف.

-حاضر ، مع السلامة

وداعًا زوجتي المؤمنة

(١)

كانت صدمة،حينما أخبرهم الطبيب منذ يومين بأنَّها لن تعيش أكثر من بضعة أيام ، ونصحهم بأن يأخذوها إلى البيت؛ لتموت فيه بدون مهانة ومنذ ذلك الحين،وأهلها و أهل زوجها لا يتركوها.الكلُّ يريد أن يبقى معها أكبر قدر ممكن،وحينما شعرت بأنَّ الألم قد اشتد عليها ،وأن الأجل قد اقترب ، طلبت من الجميع أن يخرجوا من غرفتها ، ماعدا زوجها الشيخ عفيفي وشقيقها الأكبر وأمها.

بعد أن خرجوا طلبت من زوجها الاقتراب منها ، اقترب الزوج ، فأمسكت بيده ، وقالت وهي تعطيه ورقة صغيرة :

-ضع هذه الورقة في جيبك. هذا رقْم أخت مسلمة اسمُها زينب محمود .

-ماذا تريدين منها؟

-أرجوك لا تقاطعني .

-حاضر. قالها بعد أن وضعها في جيبه .

-اتصِل بها بعد وفاتي ، لكي تبحث لك عن عروس ، ولا تخف ستختار لك عروسًا جميلة ومؤمنة ،كما كنت تتمنى .

-لا تقولي هذا الكلام.إن شاء الله ستكونين في أحسن حال.

ابتسمت ، وقالت :

-أرجوك لا تقاطعني . لا يوجد وقت لنتناقش مثل زمان.

-حاضر .

-ونفّذ ما قلتُه لك بالحرف،وليس لك شأن بأحد،أنا خائفةٌ عليك ، ولا أريدك أن تعيش وحيدًا وحزينًا ، أنا سألقي ربِّي ، وسأذهب لشقيقاتي بإذن الله و أريد أن أطمئنّ عليك ، عِدني.

-أعدُكِ...قالها ، وهو يمسح دموعه .

-أخي .

-نعم .

-بِع ذهبي ، وأعطه لعفيفي ليسدِّد ديونه ، وأيُّ شيء يخصني أنا قد تنازلت عنه لعفيفي .

-حاضر .

-واسألوا عنه أنت وأمِّي،ولا تنشغلوا عنه،ولا تتضايقوا منه إذا تزوج وزوروه.

-حاضر .

-وأنت يا عفيفي اسأل عنهم ، ولا تنساهم واقرأ الفاتحة لي دائمًا ، وادعو لي .

-حاضر.

-لي طلبٌ أخير.

-أنا تحت أمرك.

-ادفني في مدافن الجمعية الشرعية ؛ لأنها تَدْفن على الطَّريقة الشرعية ، أرجوك، أعرف أنه صعبٌ عليك ، لكنِّي لا أريد أن ألقى ربِّي وأنا مخالفةٌ لشرعه .

-حاضر.

-عفيفي .

-نعم.

-هل أنت راضٍ عنِّي؟

-واللهِ أنا راضٍ عنك ، لكن هل أنت راضيةٌ عنِّي؟

-نعم ، أرجوك اغفر لي أيَّ شيء أغضبتُك فيه .

-أرجوكِ أنتِ اغفري لي،وسامحيني على أيِّ شيء فعلتُه بقصد ، أو بدون قصد.

-سامحتك ، وأنتظرك في الجنَّة . عفيفي

-نعم .

-اقعد جنبي ، أنا خائفة .

قعد ووضع ذِراعه على كتفها ، وأسند رأسها على صدره ، وقال :

-خائفة مِن مَن؟

-خائفة من الله ، أنا لم أفعلْ خيرًا كثيرًا .

-ولكنَّك لم تفعلي أيَّ شر،لا تخافي وسلِّمي أمركِ لله، واستبشري خيرًا .

-كنت أتمنَّي أن أنجب ولدًا،وأربِّيه مثل أبي الشهيد،لكن إرادة الله فوق كل شيء ، عِدْنِي إذا تزوجت ، وأنجبتَ ولدًا ستجعله مجاهدًا ، عِدْنِي بذلك أرجوك عِدْنِي بأنَّ حقِّي ، وحقُّ شقيقاتي المسلمات في كلِّ مكان لن يضيع .

-أُقسم بالله سأحقِّق لك أمنيتك .

-ادعو لي ، ولا تنساني .

بدأ صوتُها يضعُف ، فعرف أن ملَك الموت قد جاء ، فقال لها هو ، وشقيقها :

-ردِّدِي الشهادة .

نظرت إليه نظرة لن ينساها أبدًا، نظرة بها رجاء واستعطاف وتأكيد،ثمَّ ردَّدَت الشهادة بصعوبة وماتت،وارتاحت وأراحت أهلها من مرضها عدا زوجُها الذي سيعاني كثيرًا كثيرًا من غيرها .

(٢)

أطلق أهالي ،قرية كفر أبو نعيم على المسجد الكبير اسم المسجد (ذو القبلتين)،نظرًا لوجود قبلتين فيه ،قبلة قديمة حدَّدَ اتجاهها الشيخ علي الشعراني (شيخ الطريقة الصوفية) ، منذ ما يقرب من مائة عام،وكان الناس يصلُّون في اتجاه هذه القبلة مطمئنِّين خاشعين،حتى فاجأهم الشيخ جلال الحكيم بمفاجأة من العيار الثقيل أثناء بنائه مسجد السُّنِّية كما يطلقون عليه، فحين حضر المهندس ؛ ليحدد اتجاه القبلة وجدها الشيخ جلال تختلف عن اتجاه قبلة الجامع الكبير،فلمَّا سأله قال : إن هذا هو الاتجاه الصحيح ، لكنَّ الشيخ جلال الحكيم لمْ يطمئن لذلك، فاستدعى خبيرًا جغرافيًا من القاهرة ، فأقرَّ على كلام المهندس، فظن أن اتجاه المسجد يختلف عن اتجاه الجامع الكبير، فطلب من الخبير أن يذهب لصلاة العصر في المسجد الكبير، ويعاين القبلة دون أن يشعر به أحد،فذهب وعاين القبلة،فوجد اتجاهها خاطئا ، وأنها يجب أن تميل ناحية اليمين بزاوية تقرُب من خمسة وأربعين درجة (٤٥ درجة) .فقام على الفور بمناقشة الأمر مع شيخ الجامع الذي عارضه بشِدَّة ، وقال :

-كيف تكون خاطئة ، ومولانا هو الذي حدَّد اتجاهها وباركها بيده ؛ وقد رأى في المنام النبي ــ صلي الله عليه وسلم ــ ،وهو يشير إلى هذا الاتجاه ، يا شيخ جلال نحن نصلّي في

هذا الاتجاه منذ أن تعلمنا الصلاة من آبائنا ، فهل كان آباؤنا مخطئين ، لا تدقّقْ في هذه الأشياء البسيطة .

غضب من كلامه ، وذهب لعمدة القرية الذي عرض الأمر على نسيبه الحاج فتحي (أمين الحزب الحاكم بالقرية).، والذي يشركه معه في اتخاذ كل القرارات الخاصة بالقرية منذ أن تمّ عقد الصلح بين كبير عائلة العمدة ، وكبير عائلة الحاج فتحي منذ خمسين عامًا في حضور كبراء مدينة قليوب والقرى المحيطة بالقرية.

وكان من بنوده :

١-عائلة العمدة تستمر في احتكار مناصب العمودية، ومشيخة البلد ،وعائلة الحاج فتحي تحتكر المحليات والبرلمان

٢-لا يتمّ البت في أيٍّ أمر يخصُّ القرية ، إلا بموافقة كبيرَي العائلتين .

وكان من نتائج الصراع والصلح بينهما :

١- ضياع خمسة فدادين من أجود الأراضي ، والتي دخلت بعد ذلك في حيز المباني ، تم بيعهم بثمن بخس ، لبناء بيت يليق بعائلة الحاج فتحي ومضيفة للعائلة ومقر للعمودية ومكان لتخزين السلاح "السلاحليك" وغرفة للهاتف،وقت أن كان للهاتف قيمة كبيرة ، ونقلُه من دوار لدوار يتطلب عمل زفة مثل زفة العروسة .

٢-زواج أربع شقيقات للحاج فتحي من العمدة الحالي وأشقّائه الثلاثة .

المهم بعد أن عرض العمدة الأمر على الحاج فتحي ، قالوا له معًا :

-إن هذا الأمر خطير ، وسيُحْدثُ قلقًا في القرية ، وقد تتدخل مباحث أمن الدولة فيه ، والأفضل أن نترك القبلة كما هي .

رفض الشيخ جلال كلامهم ، وأثار هذا الموضوع بشدة بين الناس الذين انقسموا نصفين:

١. **نصفٌ يتزعمه الحاج فتحي** (أمين الحزب الحاكم بالقرية)،وكبير عائلة الصعيدي التي يكرهها معظم أهالي القرية، لسيطرتها على كلّ المناصب فيها حتَّى بعد أن قلّت ثروتها ، لكن جاهها مازال باقيًا ويقف في صفه عمدة القرية وشيخ الجامع الكبير ، وبعض عائلات القرية وهم من أنصار القبلة القديمة ، وكانوا يردِّدون أمام الجميع هذه الحجج :

-إن مولانا هو الذي حدد اتجاهها ، وباركها بيده ، وقد رأى في المنام الرسول (صلي الله عليه وسلم) ، وهو يشير إلى اتجاه هذه القبلة،وأن الجماعة السنية يكرهون مولانا، ويريدون أن نترك طريقتنا ونتبعهم .

أمَّا السبب الحقيقي في رفضهم تغيير القبلة هو:

● رفضهم أن يُهزموا أمام جماعة السنية التي يتزعمها الشيخ جلال الحكيم وأنصاره،والتي قويت شوكتُها في البلد منذ منتصف التسعينات إثر عوْدة كثير منهم من الخليج وتأثرهم بالمذهب الوهابي،- كما يردِّد الحاج فتحي دائما -، ومحاربتهم للطريقة الصوفية التي يؤمن بها معظم أبناء القرية

٢_ **أما النِّصف الآخر**:فكان حريصٌ على تغيير القبلة بشدة ، وكان يتزعمهم الشيخ جلال وجماعته الذين أخذوا يرددون في القرية أنَّ الصلاة غير مقبولة عند الله ؛ لأن القبلة اتجاهها خطأ ، فشعر الناس بالخوف ، وكتبوا أكثر من شكوى لوزارة الأوقاف مُوقَّعة بأسمائهم ووظائفهم ، ومحل إقامتهم واستجابت أخيرًا وزارة الأوقاف ، وأرسلت لجنة من الخبراء إلى القرية و لم تنسَ أيضًا أن ترسل الشكوى إلى مباحث أمن الدولة التي تحرت عن الأسماء الموجودة في الشكوى،وسألت العمدة والحاج فتحي عنهم ، فشكروا فيهم جميعًا عدا الشيخ جلال وجماعته ، فصدقتهم ، لكنها وضعت جميع الأسماء في القائمة السوداء ؛ لأنهم أصبحوا خطرين وأصحاب فكر متطرف .

انتهت اللجنة من معاينة القبلة ، وحدَّدت الاتجاه الصحيح تجاه اليمين قليلا،وتم بناء قبلة جديدة مع الاحتفاظ بالقبلة القديمة التي أصبحت محط سؤال كل شخص يصلي لأول مرة في هذا المسجد،ومحط غيظ شيخ الطريقة -حينما يأتى إلى

القرية ليلقى درسا في التصوف ويراها - والذى غضب بشدَّة ، وعنَّف العمدة،والحاج فتحي لعجزهم عن الدفاع عن قبلة قطبهم الكبير ؛ وذلك حينما ذهبوا إليه في إحدى المرات بعد تغيير القبلة ليستمعوا لدروسه،وليجددوا معه العهد على الطاعة والإيمان ، ثم يأكلوا عنده الأرز والفته واللحم ، ويشربوا بعد ذلك القرفة بالزنجبيل، ثم يعودوا لبيوتهم ناسين كلَّ شيء قد سمعوه .

منذ تلك الواقعة ، قويت شوكة جماعة السنية في القرية ، وأصبح الشباب يعارض أهله ويرفض الانضمام إلى الطريقة الصوفية، ويصفها بالخزعبلات وكان من ضمنهم الشيخ عفيفي (ابن أخت الحاج فتحي)،وابن شقيق العمدة اللّذان جنَّ جنونُهم منه ، وحاولوا أن يثنوه عن الانضمام لجماعة السنية ، لكنَّه رفض وتحوَّل على يد الشيخ جلال من شاب غير ملتزم إلى شاب ملتزم ، يحفظ القرءان ، ولا يترك فرضًا من فروض الدِّين ، وأصبح اسمه الشيخ عفيفي ، ثم تزوج فتاة منتَقبة عن طريق الشيخ جلال بعد معارضة شديدة من أهله لكرههم للمنتقبات، وللسلفيين لتحريمهم أشياءً كثيرة خطأ، هم يفعلوها ويعتقدون أنها صحيحة ، وقد ورَثوها عن أجدادهم .

بعد أن مرَّت ستةُ أشهر على زواجه شعرت زوجتُه بأعراض الحمل ، وأخبرته بذلك ففرح كثيرًا ؛ لأنه ظلَّ يدعو الله حتى

استجاب له ، ومنذ أن عرف بخبر حمل زوجته ، وهو يعيش وكأنَّه في حُلْمٍ جميل لم يفق منه إلاَّ على كابوسٍ رهيب، حينما شعُرت زوجتُه بألمٍ شديد في بطنها،وذهب معها للطبيب الذي صدمه بقوله

- وجتك مصابة بورم خبيث في الكبد ، ولابد من إزالته ، ثم نبدأ بعد ذلك العلاج الكيميائي .

لم يصدِّق كلام الطبيب ، وذهب لطبيب آخر الذي صدمه هو الآخر ، فلم يجد مفرًا من العملية وأُجريت العملية ،وبدأت العلاج الكيميائي بقسوته ،ونزل الجنين من كثرة الأدوية وقوَّمّا، وحمد الله على ذلك لكيلا يأتي مشوهًا،ثمَّ مرَّت الأيام بسرعة جدًا،ولم يمر عام كامل على مرضها، إلا وكانت مُمَدَّدة داخل صندوق خشبي موجود الآن في المسجد ذي القبلتين .

صلَّى النَّاس صلاة العصر ، ثم صلُّوا صلاة الجنازة ، ثم ذهبوا إلى مقابر السنية الموجودة بجوار مقابر القرية،والتي اشترى أرضها الشيخ جلال الحكيم وجماعته وجعلوها مقابرهم، ودفنوها على الطريقة الشرعية _كما طلبت_ وسط غضب أهل الشيخ عفيفي الذي نهرهم ، وأقسم أمامهم إن لم ينفّذوا وصيتها،سيدفنها بمفرده وسيقطع علاقته بهم فاستجابوا له على مضض وبعد أن انتهت مراسم الدفن ، وهمَّ الناس بالانصراف. قال الحاج فتحي بصوت مرتفع بعد أن رفع يديه على طريقة

الزعماء "شكر الله سعيكم العزاء اليوم بمضيفة العائلة"ثم اصطف هو وأهل الشيخ عفيفي وأهلها ؛ ليسلموا على الناس المنصرفين ثم غادروا المقابر ليستعدوا للعزاء وتركوا الشيخ عفيفي- الذي لم ينتبه لجملة العزاء اليوم بمضيفة العائلة- مع أصدقائه وبعض من أقاربها يقرأون القرآن ويدعون لها بالرحمة _كما طلبت هي ذلك_.

(٣)

حينما عاد من المقابر مع أصدقائه،وبعض أقاربها وجد سيارة نقل كبيرة تقف أمام دوار العائلة -القريب من بيته - مُحمَّلة بكراسي ، وطاولات ومفارش وأدوات أخرى تُستخدم في العزاء ، دخل إلى الدوار وقال لأخيه الكبير في غضب:

-من الذي أمر بإحضار هذه الأشياء،ألم أقل إن العزاء فقط في المقابر؟

أجاب الحاج فتحي- الذي خرج من المضيفة مسرعًا بمجرد سماعه صوته،ووقف على عتبة بابها-،وقال بلهجة قاطعة،وبصوت عال :

-أنا الذي أمرت ، واستأذنت عمَّك العمدة لنقيم العزاء هنا، ووافق .

التفت اليه ، وقال:

-لماذا؟ أنا لا أريد .

-لأننا لسنا فقراء لكيلا نقيم عزاء ، أنا لا أريد أن أُفضح في البلد وفي القرى المحيطة ، ماذا أقول لهم حينما يسألوني عن حالة الوفاة التي كانت عندي؟ أقول إن العزاء كان في المقابر ، لأني افتقرت و لم أستطع أن أقيم سرادق عزاء .

-قل لهم إن هذا هو الشرع .

-وماذا نفعله مخالفًا للشرع؟ أليس العزاء ثلاثة أيام كما يقول الشرع؟

-بلى

-هل نفعل فيه أشياء تغضب الله ؟ هل ننم على أحد ؟

-لا

-إذن ما هو الحرام في أننا نقيم عزاء ؟ نحن لا نتفاخر أو ننافق ، كل ما نفعله أننا نرص كراسٍ لكي يقعد عليها الناس بدلًا من القعود على الأرض ، ونجعلهم يستمعون إلى القرآن ، ويأخذون ثواب بدلا من التحدث مع بعض ، وعدم مراعاة مشاعر أهل الميت هل هذا حرام ؟

-لكنِّي لا أريد ؟

-في مثل هذه الأمور ليس لك رأي .

-التي ماتت زوجتي .

-علاقتك بالميتة انتهت بمجرد دفنها ، أمَّا ما بعد الدفن فهو يخصُّنا نحن ، لقد تركتك تفعل ما تريد ، لا أريد فضائح مرة أخرى،كفاية أنك دفنتها بعيدًا عن مدافننا ، وجعلتنا أمام الناس مخالفين للشرع وندفن موتانا خطأ ، أنا سكت إكراما لأمك ، ولن أطاوعك في كل شيء ، إذا كنت لا تريد أن تقف في العزاء لا تأتِ ، ولن يلومك أحد .

-لكن

لم يدعه الحاج فتحي يكمل ، وقال في لهجة قاسية :

-امش من أمامي ولا تنسَ أنّي خالك وكبيرك ، ولابدَّ أن تسمع كلامي .

غضب الشيخ عفيفي،لكنَّه لم يرد وخرج من الدوار، ودخل إلى بيته الذي وجده مزدحمًا بالنساء المعزيات اللاتي بمجرد أن رأوه بكينَ وصرخنَ مجاملة له،ولأمه،فخرج مسرعًا وعاد لدوار العائلة ، وقعد في أحد الأركان وأخذ يقرأ في مصحف صغير أخرجه من جيبه،بينما باقي أفراد العائلة انشغلوا بنصب سرادق العزاء ، وكان يتزعَّمهم الحاج فتحي الذي يحرص على الظهور في تلك المناسبة حرصًا شديدًا،بالإضافة لمناسبتين أخرتين هما : الفرح والانتخابات،هذه المناسبات تعتبر شيئًا مقدسًا عنده،ويبذل أقصى جهده لكي يظهر بمظهر الآمر الناهي، والمسيطر على كلّ الأمور،فبعد عودته من المقابر مباشرة كتب الخطابات التي ستُرسل لكبراء مدينة قليوب والقرى المحيطة من أعضاء مجالس الشعب والشورى والمجالس المحلية والعمد وكبراء العائلات،ثم استأجر سيارتين نصف نقل وثبَّت فيهم مكبرين صوت،وأمر اثنين من أفراد العائلة أن يركب كل منهم في سيارة ويذهبوا إلى قليوب والقرى المحيطة ويسيروا في الشوارع الرئيسية،ليذيعوا خبر الوفاة، ثمَّ أشرف على نصب سرادق العزاء ، ثم اتصل بنفسه بقرَّاء القرآن المشهورين، واتفق معهم على إحياء الليلة .

بعد صلاة العصر مباشرة بدأت مراسم العزاء ، بدأ المقريء في تلاوة ربع جزء من القرآن،وبدأت وفود المعزِّين تأتي، ووقف شباب العائلة في صف طويل،ليُسَلِّموا عليهم،وتناثر مجموعة أخري منهم،لكي يُنَظِّموا دخول سيارات كبراء المعزين، ويركنوها في الأماكن الواسعة،أما كبار العائلة فوقفوا في أماكن متفرقة،ليستقبلوا كبراء المعزين،وليقعدوهم في الأماكن المخصصة لهم والبعض الآخر أمسك علب سجائر في يده، وأخرج منها سجائر، ومشى بين الصفوف،ليوزِّعها على المعزِّين ، وليشكر الناس على سعيها .

استمر العزاء وقراءة القرآن حتى موعد صلاة المغرب وبعدها صَدّق المقرىء،ومشي المعزون و لم يحضروا إلا بعد صلاة المغرب بنصف ساعة ، خلال هذه المدة حدث شيء غريب لا يحدث إلا في قرى قليلة،فبمجرد الانتهاء من أذان المغرب، خرجت نساء عائلة العمدة ونساء عائلة الحاج فتحي - عدا نساء بيت عفيفي لأنهنَّ من أهل المتوفى ولا يصح أن يفعلن أيَّ شيء- في صف طويل،وحملن فوق رءوسهنَّ صينيات موضوع على كلّ صينية :طبقين أرز وطبق به لحم أو فراخ،وطبقين طبيخ وطبقين سلطة ، وأرغفة خبز ملفوفة بفوطة وإناء ماء وأكواب ومعالق، وذهبنَ إلى مكان العزاء ، فأخذ كلّ واحد من المعزين الصينية الخاصة ببيته وقعد حولها هو وأفراد أسرته ، وأقعد معه واحد أو اثنين من المعزين سواء كانوا من العائلة، أو غرباء عنها وتناولوا جميعا الطعام .

قعد الشيخ عفيفي مع صديقه حسين حول صينية ابن عمِّه سيد،وتناولوا الطعام،وبعد أن انتهوا من تناوله ، توضئوا وصلُّوا المغرب جماعة مع بقية العائلة ، ثمَّ شربوا الشاي واستأنفوا العزاء *الذي استمرَّ حتى العاشرة مساء ، ثم انتهي وذهب كلٌّ واحد إلى حاله ، وتبقى مع الشيخ عفيفي صديقه محمود الذي جاء بعد صلاة المغرب وصديقه حسين ، وسهروا معه حتى منصف الليل ، ثم تركوه وانصرفوا .

(٤)

حدث مع عفيفي مثلما يحدث مع أهل المتوفى فقد التفُّوا حوله بضعة أيام ثمَّ انفضوا من حوله وانشغلوا بحياهم وتركوه وحده يعاني من ألم الوحدة .

لم يعد يطيق أي مكان في شقته ، فقرر عدم العيش فيها ، والعيش مع أمِّه في شقتها في نفس البيت ، ثمَّ باع كلَّ محتويات الشقة وذهب زوجته_ كما طلبت_،ليسدِّد الدُّيون التي كثرت عليه بسبب تكاليف العلاج الباهظة،وبعد أن سدَّد جميع ديونه تبقى معه أربعة آلاف جنيه.اشتري بجزء منهم مبرد مياه، ووضعه أمام بيته وكتب في المكان المخصص للكتابة عبارة نسألكم الفاتحة والدعاء لروح المتوفى،وتبرع بالباقي لمستشفي سرطان الاطفال ، بعد أن استشار الشيخ جلال الذي شجعه وقال :

إن هذا التبرع بمثابة صدقة جارية لها، توضع في ميزان حسناها إلى الأبد .

أصبحت حياته مقتصرة على الذهاب إلى العمل،ثم العودة والجلوس في البيت،ثم الصلاة في المسجد والاستماع لدروس الشيخ جلال،ومن حين لآخر يزور أهل زوجته،ليطمئن عليهم كما أوصته ، ويذهب للمقابر ليدعو لها.

ضاقت أمُّه من سوء حالته ، وأرادت أن تُخرجه من هذه الحالة ، فنصحته بالزواج فاغتمَّ ، وقال :

-لن أتزوج بعدها .

-الذي خلقها لم يخلق غيرها ؟

-أعرف ذلك لكنِّي لا أتخيَّل نفسي مع غيرها .

-ألم تطلب منك أن تتزوج لكيلا تعيش حزينًا ، ووحيدًا ، كما هو حالك الآن ، لقد مرَّ أكثر من شهر ، وأنت على هذا الحال .

- لن أتزوج . أنا سأسافر إلى أي بلد عربي .

- يا ولدي لماذا ؟ إنك قد بعت الشبكة والأثاث والأجهزة الكهربائية وسدَّدت ديونك فلم الغربة ؟

- لا أريد أن أعيش هنا .

- يا ولدي لو كلُّ واحد تعرض لمحنة ، وفكر بطريقتك هذه كانت الدنيا خربت لم لا تصبر،وتبتسم للحياة وتبدأ من جديد وتبحث عن زوجة كما طلبت منك المرحومة،وتتزوجها،أنت مازلت صغيرا،ولا تحمل همًا،كلنا سنساعدك في الزواج،ولو اضطررنا لبيع الأرض .

-إن الوجوه والأجساد تتشابه ، لكن الروح لا تتشابه .

- ألم يتزوج النبي (صلي الله عليه وسلم) بعد السيدة خديجة؟

-نعم،لكني لا أريد أن أتزوج.أنا أريد أن أسافر لأريح أعصابي ، ولتهدأ نفسي .

-أعرف أن الذي تعرضت له كثير،ولا يتحمله أشدُّ الرجال، لكنك مؤمن بقضاء الله .

-قلت لن أتزوج ، أنا سأذهب للشيخ جلال،ليبحث لي عن حل .

-الحل في يديك،لكنك لا تريد أن تأخذ به دائمًا ما تبحث عن الصعب ، وعمًّا يغضبنا .

- يا أمي سامحيني،أنا مشتت،وذهني مشغول بأشياء كثيرة ، فمن فضلك لا تضغطي عليَّ .

-حاضر يا ولدي ، أنا لا أريد إلا مصلحتك ربنا يوفقك .

-أطال الله في عمرك .

قالها ، ثم قبَّل رأسها،وتركها وذهب للشيخ جلال ، ليطلب منه النصيحة فهو بالنسبة له أب ، ومعلم ، وإمام .

(٥)

من يرى الشيخ جلال لأول مرة يهابه ، ويخاف منه لكن بمرور الوقت يتغير هذا الشعور من الهيبة والخوف إلى الهيبة والحب ، ثم بعد ذلك إلى الشعور بالهيبة والحب والخوف عليه، فقد كان يمتاز بصفات جسمانية وأخلاقية جعلته ذي هيبة واحترام من الناس جميعًا ، حتى من الذين يكرهون السنيين .

فهو طويل ذو أكتاف عريضة،ووجه يميل للاستدارة مرصَّع بعينين واسعتين صافيتن النظرة يعلوهم حاجبين غليظين، وأنف مثلث ، وفم صغير لا ينطق إلا بالتسبيح ، ويزين وجهه لحية بيضاء طويلة تضفي عليه هيبة ووقار وتري نورًا يشع من وجهه، ويميل لونه إلى اللون الخمري،ودائمًا ما يتعطر وتشم منه رائحة جميلة من على بعد،وتري السِّواك في جيبه،ودائمًا يرتدي جلبابًا لونه إما بني ، أو أبيض وبلا ياقة مثل:الجلباب العماني ، أو السوداني،أو الجلباب البلدي المصري،ويلبس فوق الجلباب عباءة سوداء في الشتاء ، ويتعمَّم بعمامة بيضاء ذات سقف أحمر مثل مشايخ الأزهر .

أما بالنسبة لأخلاقه ، وعلمه ، وأسلوب حلّه للمشاكل، فالكل يشهد له بالصَّلاح وسِعة العلم،وسعة الحيلة،وعدم خوفه من لوم الناس إذا كان سيخالفهم نصرًا للحق .

وصل لمقر الجمعية الشرعية ، وقعد في حجرة الانتظار ينتظر دوره ، فقد كان الشيخ مشغولًا بطلاب الحاجات.

جاء دوره ، ودخل ، سلّم على الشَّيخ ، وقال :

-أريدك يا مولانا في أمر هام .

-قل يا عفيفي .

-أريد أن أسافر إلى العراق .

تعجب الشيخ ، وقال:

-تسافر في هذه الأوقات ، ولماذا ؟

-أريد أن أجاهد هناك .

تغيَّر وجه الشيخ ، وقال بعد أن تلفت يمينًا ، ويسارً :

-هذه الأمور لا تُناقش هنا ولا أمام الناس ، لا تتكلمْ في هذا الموضوع مع أي أحد .

-حاضر .

-انتظرني بالخارج ، حتى أنتهي من مقابلاتي ، وسنذهب لبيتي ونتكلم هناك .

-حاضر .

خرج ، وقعد حتى انتهى الشيخ وذهب معه إلى بيته ،وقعدا في حجرة الضيوف .

قال الشيخ بعد أن رحَّب به:

-أعدْ عليَّ ما قلته في الجمعية ؟

-أريد أن أسافر إلى العراق ، لأجاهد هناك ، أو أريد أن أسافر إلى أفغانستان .

-يا ولدي إن القرارات المصيرية ، لا تتخذ في لحظات انفعال .

-لست منفعلا ، أنا كنت أفكر في هذا الأمر ، وأُعِدُّ له أثناء مرض زوجتي ،وكنت أجري كلَّ يوم بعد صلاة الفجر نصف ساعة ، لكي أنقص وزني ،ولأحافظ على لياقتي ،وقد وعدت زوجتي بأن أحقق لها رغبتها ، فقد كانت تتمنَّي أن ننجب ولدًا مثل أبيها ، ويكون مجاهدًا مثله ، وأنا سأحقق لها رغبتها بإذن الله أنا لم يعد لي رغبة في البقاء في هذا البلد ، أريد أن أهرب من هذا النَّفق المظلم الذي أعيش فيه ، نفقٌ مظلم كله يأس وذل وانكسار وهزائم ، لقد تساوت عندي الحياة والموت ؛ لذلك اخترت الموت في سبيل الله.

-الجهاد ليس سهلًا ، وطريقه صعب ، ولا يقدر عليه أيُّ فرد .

-وأنا اخترت الصعب يا مولانا . هل تشك لحظة في أني غير جادٍّ ، أو أنني سأغير رأيي ؟

-ادرس هذا الأمر جيدًا، وأنا منتظرك الثلاثاء القادم بعد صلاة العشاء هنا في بيتي، ولن أنام بإذن الله، وسأنتظرك وحذارِ أن تخبر أحدًا ، لكيلا تعرض نفسك للخطر.

- حاضر .

سحقًا لنصائح أبي داوود

قعد العاشقان بجوار بعضهما البعض على أحد الدكك المنتشرة في حديقة الأوبرا يتبادلان كلمات الحب .

-أنا أحبكِ .

-وأنا كذلك .

-ونفسي يجمعنا بيت واحد .

-وأنا كذلك .

-إن شاء الله حينما أشتري الشقة،سأذهب إلى أبيك، وأخطبك ونظهر حبّنا في النور،ونعلن خطبتنا للجميع ، وخاصة أبو داوود كم أتمني أن أري لون وجهه حينما يعرف أني قد خطبتك .

-لماذا أبو داوود بالذات ؟

-لأني لا أحبه .

-لا تحبه لماذا؟

-لأنه يظن نفسه أعلم النّاس،وأشرف النّاس،وأن الناس كلهم مخطئون ، وهو الصح .

-وهذا صحيح، إنه لا يكذب .

-لكنه مبالغ في شعوره هذا ، وفاكر نفسه وصي على الآخرين ، ويتعامل مع النّاس ، وكأنه زعيم ، أو مفكر عظيم .

-حذارِ أن تخبره قبلي . دعني أخبره أولًا ، لكيلا يتضايق .

-لماذا تخافين على مشاعره هكذا؟

-لأنكَ لا تعرفه عن حق . إنه طيب وخدوم ، ويخاف على أيٍّ واحدة منا،كأنها أخته، هل تعرف أنه يبحث عن عمل للمياء،ويتصل بمعارفه ويتذلل لهم من أجلها،ويتصل بها ليطمئن عليها؟ ، والجمعية التي قبضها سيعطيها للمياء ،لتسدد أقساطها، إذا لم تجد عملًا . حذارِ أن تقول له أى شيء عن علاقتنا ؛ لأن شكلي أمامه سيكون سيئًا .

-دعك منه ، هل سنضيع الوقت في الحديث عنه ؟

-لديك حق،إنَّ لحظات الحب قصيرة ، وعلينا أن ننتهزها.

- نرمين ، ما رأيك ، في تناول العَشاء معًا؟ .

-سأتأخر ، وبابا سيشك في .

-لن نتأخر ، أعدُك بذلك ، لا ترفضي طلبي أرجوكِ ، كفاية أنني لا أقدر أنَ أكَلمكِ في الشركة .

-حاضر ، لكنها أول وآخر مرة .

-موافق ، هيا بنا .

غدًا سأنتقم

(١)

عاد بعد أسبوع ، وقعد في حجرة الضيوف ذات الطراز العربي مع الشيخ جلال الذي سأله بعد أن رحَّب به

-ماذا قررت ؟

-أنا مُصِر على طلبي ، وأريد الجهاد .

-الجهاد ليس سهلًا ، إنَّه مشقة ، وأخشى عليك من هذه المشقة ، وأخاف ألَّا تتحملها .

-أأنت الذي تقول هذا يا مولانا؟! .

-يا ولدي،إنَّ أحبَّ شيء لديَّ في الدنيا هو الجهاد في سبيل الله ، وأنت تعلم أن ابني قد استُشْهِدَ في البوسنة مع حماك ونحسبهم جميعا شهداء ، أنا لا أريد أن أغشك،أنا أريد أن أتيَقَّن أن قرارك هذا ليس رد فعل لضيقك وحزنك .

-ليس رد فعل ، لكنَّه رغبة أكيدة بداخلي .

-إذن اتركني لمدة أسبوعين أكون قد رتبت لك طريقة للذهاب إلى هناك ، سأتصل بأخٍ لي في القاهرة ، وهو بإذن الله سيتصرف،وخلال هذه المدة رتِّب أمورك ، وفكر مرة أخري، وإن أردت الرجوع عن السفر والجهاد لا تخشَ منِّي ، وفكر ألف مرة ، وضع كل الأشياء أمامك حينما تتخذ قرارك ، مثل

أمُّك هل ستتقبَّل سفرك ؟ ردُّ فعلها إذا استُشْهِدتْ ، ردُّ فعل شقيقتك ، كل هذه الأمور لا بُدَّ أن تضعها في الحسبان،هل يوجد من يرعي أُمك في غيابك؟ لا تضحك على نفسك،لا بد أن تضع في الحسبان أنك ستعيش هناك في مشقة،وقد تصاب وتعيش طوال عمرك معاق ، وقد تعيش طوال عمرك هناك ، حتى وإن لم تصبْ بسوء ،لأنه من الصعب أن تعود إلى هنا مرة أخرى ، لأن أمن الدولة لن يتركك وسيعتبرك من الإرهابيين ، ومن أتباع بن لادن ولن يرحموك ، كل هذه الأمور ضعها في الحسبان ، وأنت تتخذ قرارك أنا بإذن الله يوم الاثنين القادم ، سأذهب إلى القاهرة،وسأبحث مع إخواني الأمر ، كما قلت لك.

-حاضر يا مولانا .

-أمامك ليوم الأحد ، إن غيَّرت رأيك اتَّصل بي ، وإن لم تتَّصل بي سأعرف أنك ثابتٌ على رأيك ، وسأذهب إلى مصر وبعد أسبوعين من الآن،سأنتظرك بإذن الله بعد صلاة العشاء،ونتناقش في الأمر،لكن حذارِ أن تخبر أحدًا،لكيلا يقبضوا عليك ، ويعتقلوك ويضيع كلُّ شيء ،مباحث أمنِ الدولة هذه الأيام لها عيونٌ في كل مكان ، وتتجسس على كلِّ الناس ، وخاصة على الإسلاميين .

(٢)

غادر الشيخ القرية يوم الاثنين، وذهب لزيارة صديقه الشيخ حازم المنشاوي المقيم في ميدان العباسية ، ليخبره بأمر عفيفي .

قال الشيخ ، بعد أن سلّم على صديقه القديم ، وتبادل معه ذكريات المعتقل ، وشرب معه العصير :

-بدون مقدمات، لي تلميذ أعتبره مثل ابنى، ويريد أن يجاهد في العراق .

-أنا تحت أمرك يا شيخ جلال،لكن هل سيتحمَّل مشقة الجهاد؟

-بإذن الله سيتحمل ، لقد كان يتمنى أن ينجب ولدًا ، ويربِّيه على عقيدة الجهاد ، لكن إرادة الله فوق كل شيء .

-ماذا حدث؟

-ماتت زوجته هي وجنينها بالسرطان .

-لا حول ولا قوة إلا بالله .

-وقد أوصتْه أن يدافع عن شقيقاتها المسلمات في كلّ مكان.

-هل قراره هذا نتيجة رد فعل لموتها .

-اطمئن ، لقد اختبرُته ، ووجدته مصممًا على الجهاد .

- أنت تعلم أن هذا قرارٌ خطير ، وعواقبه ستؤثر عليه طيلة حياته .

-قلت له هذا الكلام .

-على بركة الله ، ماذا يعمل؟

-مدرس لغة عربية .

-سأتصرف بإذن الله،لا تقلق،سأبحث مع أشقّائي عن طريقة لإدخاله العراق،دون أن نلفت الأنظار،أنا سأرسله لصديقنا الشيخ حاتم الضارى في الفلوجة،أريد بعض الوقت لأدبر الأمر، أنت تعرف أمن الدولة والمخابرات منتشرة في كل مكان هنا ، وفى الخارج .

-أعرف ذلك ، لكن أرجو لا تنسَ .

-كيف أنسى؟ ، إننا نبحث عن مجاهدين ، ولا نجدهم إلا بصعوبة شديدة .

-كنت أتمنّى أن أذهب بدلا منه .

-وأنا مثلك ، لكنَّ الصِحَّة كما ترى ، الحمد لله على كل حال.

-أنا سأنصرف لأنَّ عندى موعدٌ آخر .

-لن تذهب إلّا بعد أن تتناول الغداء معى،أنا لا أراك إلا نادرًا.

-كنت أتمنَّى ، لكن الوقت ضيق ، وأنا مرتبط بموعد آخر

-الغذاء جاهز ولن تتأخَّر

-مرة أخرى أرجوك

- لن أضغط عليك ، فأنا أعرفك عنيد ، ولن أعطلك ، مع ألف سلامة .

سلَّم عليه ، ورفض أن يترل معه إلى الشارع ، وتركه ونزل إلى الشارع وأشار لسيارة أجرة، وذهب إلى حي الأزهر، ليسحب نقودًا من بنك فيصل الإسلامي

بعد أن سحب ما يريد ، ذهب إلى جامع الأزهر ، وصلَّى العصر ، وقعد مع شيخ الجامع في مكتبه ، ثم تركه و انصرف .

أشار لسيارات الأجرة ، فوقفت إحداها

-ميدان المؤسسة .

-كم ستدفع ؟ ، قالها في ضيق .

- كم تريد ؟

-خمسة وعشرون جنيهًا .

-موافق .

-اركب .

تحركت السيارة وسط الزِّحام الكثير، ثمَّ وصلت إلى ميدان العتبة ، ثمَّ إلى ميدان الأوبرا،ثمَّ إلى شارع شبرا ، والشيخ جلال لا يتكلم وظل صامتًا طوال الطريق،بينما السائق طوال الطريق يسبُّ ويلعن في الطريق،والزحام،والبلد،حتى وصلوا إلى ميدان المظلات ، فلمح الشيخ على يمينه سيارة أجرة زجاجها الأمامي مهشم ، ويقودها سائقٌ كبير في السن ، فقال الشيخ :

-لا حول ولا قول إلا بالله .

-ضاع تعب اليوم،كان الله في عونه لن يرحمه صاحب السيارة،سيجعله يصلح الزجاج وسيأخذ منه الحصيلة المتفق عليها ، إننا في زمن ليس فيه رحمة ، الكل يدوس على بعض .

-كم يتكلف تغيير الزجاج .

-الأصلي تقريبًا بالتركيب ثلاثمائة وخمسون جنيهًا .

-وكم يعطي السائق لصاحب السيارة ؟

- ثمانون جنيها في الوردية ، ويأخذ الباقي .

أخرج الشيخ من جيبه محفظة النقود ،ثم سحب ورقة بمائة دولار ، وقال للسائق :

-هل تستطيع أن تقف دقيقة ، وتعطي للسائق هذه النقود .

نظر إليه السائق في دهشة ، وقال :

-لكن ، ممنوع الوقوف .

-إذن خذ حسابك ، وأنزلني بالقرب منه .

-لا يا فضيلة الشيخ ، لست سيئًا لهذه الدرجة ،سأسبقه ،ثم سأركن ، وسأجري ، وسأعطيه النقود ، لكن ماذا سأقول له؟

-قل له اشكرِ الله ورسوله فقط .

ركن السائق ونزل من السيارة ، وجرى نحو السيارة ، وأعطي النقود للسائق ، وأشار إلى سيارته وللشيخ الجالس فيها، وقال له ما أمره به الشيخ ، ثم جري إلى سيارته وركب ، وأكمل السير، وقال وهو سعيد:

-لقد فرح جدًا ، وكاد يبكي ، وأخذ يدعو لك ويشكر الله ورسوله .

-الحمد لله .

-هل من الممكن أن أقول لك شيئًا ، لكن أرجوك سامحني؟

-قل ما تشاء .

-أنا كنت لا أريد أن تركب معي .

-ولِم؟

-لأنك سُنِّي ، وأنا أكره السُّنِّيين ؟

-لِم؟

-لأنهم طوال النهار ، يقولون: قال الله وقال الرسول ،ولا يعملون بها، وقلوبهم قاسية،ولا يحبُّون أيَّ شخص بدون لِحية، وطوال النهار يُكَفِّرُون الناس ، وإذا فعلنا أي خطأ لا يغفرون لنا ، ويقسون علينا ، أمَّا إذا كان المخطئ سُنيًا فيلتمسون له ألف عذر ، أنا تعاملت معهم في المدرسة التي أعمل بها في الصباح .

- ليس كلهم هكذا .

- لا ، كلُّهم كذلك ، أنا سأحكي لكَ عن موقف حدث لي،كنت في أحد الأيام بالقرب من ميدان رمسيس بدون سيارتي،وسمعت أذان المغرب،فدخلت أصلي في إحدى الزوايا، وكان الإمام سُنِّيًا ومعظم المصليين سُنِّيين ، وبعد أن صلّيت قعدت في مكاني،ولم أخرج، فإذا برجل طويل اللحية يأتي ومعه أطباق أرز باللبن،وقام بتوزيعها على الحاضرين ، وعندما اقترب منِّي مددت يدي نحوه ، فنظر إلىَّ في غضب ، وقال "أنت لا ، أنت حليق اللحية"، فخرجت من المسجد وأنا كارهٌ لكل السُّنِّيين .

-هذا سلوكٌ فرديّ ، ولا تجعله مقياسًا لحكمك على كل أهل السُّنة ، وقد يكون قد قرأ شيئًا خطأ في الدين وبنى حكمه عليه.

-هذا ما حدث أمامي .

-يا ولدي نحن نحتاج لأن نؤلّف قلوب بعض ، ونعيد الثقة في ديننا ، ويحب بعضنا البعض ، هل تعرف لماذا أعطيت السائق هذه النقود ؟

- لا أنا تعجبت لتصرُّفك هذا ، كان من الممكن أن تعطيه أي مبلغ ، لكن ليس كل هذا المال .

-لكي أعيد له الثقة في دينه لأنّي متأكد أنه إن كان ضعيفَ الإيمان ، فإنه سيسبُّ وسيلعن الدُّنيا والدِّين ، فأردت أن أعيد له الثقة في دينه ، وأوصل له رسالة تفيد بأن دينه هو الذي أمرني بأن أساعده ؛ لذلك قلت لك اجعله يشكر الله ورسوله فقط،وإن كان مؤمنًا بقضاء الله ومحتسبًا ضيقته عند الله، فإني أردت أن أكون سببًا لشعوره أنّ الله يقف بجواره ، وأرسل من يساعده ، فأجدِّد ثقته في الله ، نحن نحتاج لمن ينشر الخير بيننا لا أن يسُب طوال النهار ، ويبكي على الأخلاق التي ضاعت ، ولا يفعل خيرًا لنفسه ، أو لأي أحد آخر ، مشكلتنا أننا نتهم غيرنا بالتقصير،وننسي أنفسنا لو أنت في مكانه وحدث معك نفس الموقف ماذا ستفعل ؟

-وغيرك سيتعلم ، وسيشعر أن الدنيا مازال فيها خير وأن ديننا يجعلنا نرحم بعضنا البعض ، وقد يكون هذا الفعل البسيط سببًا يجعل الناس تحب دينها ، وتعود إليه ؛ لأن الناس كما تبالغ في الشر تبالغ في الخير.

-صح .

-ليت كلُّ الناس مثلك يا مولانا.

-كثيرٌ مثلي ، لكن ابحث عنهم .

-أين أجدهم ؟

-اذهب وصلِّ الفجر في المسجد ، وواظب عليه ، وستجد بإذن الله ما يجعلك تعيد نظرتك لهذا الكون .

-ادعو لي يا مولانا .

-إن الله لا يحتاج وساطة من أحد ، ومع ذلك سأدعو لك.

أخذ الشيخ يدعو للسائق بالهداية ، والمغفرة ، والرزق الحلال ، والصحة والإيمان ، حتى وصل لميدان المؤسسة ، فترل وأشار لسيارة أخرى ، وركب وقعد جنْب السائق ، وقال :

-لقد تعلمت منك شيئًا هامًا ، لقد عرفت الآن لماذا يخاف النَّاس من أهل السُّنة والجماعة وينفرون منهم ويعادوهم؟ لا بُد أن أنبِّه على تلاميذي لكي ينتبهوا ، شكرًا لك يا رب لأنَّك جعلتني أركب مع هذا السائق .

وداعًا يا صديق العمر

أصبح موضوع لمياء وهاني حديث الشركة لمدة أسبوع ، ثم تناساه الجميع ، وعاد هاني للعمل بكل وقاحة ونظر إلى الجميع بأعين مفتوحة ، وانشغل في العمل فهو لايهمه إلا نفسه أولًا وأخيرًا.

أمَّا أبو داوود ، فقد تضايق جدًا لعودته ، ولم ينسَ ما فعله، وأضمر له الحقد والرغبة في الانتقام ، فموضوع الأعراض عنده أمر شائك ، ويخاف جدًا عليه ؛ لذلك يرفض إقامة أيَّ علاقة تحت أي مسمى ، فهو تربَّي على قيمة الشرف من أبيه الذي كان يحذره دائما .

– إياكَ وبنات الناس ، أنت عندك شقيقات بنات ، حذارِ أن تكسر قلب فتاة ، أو تتسلى معها ، حافظ على بنات الناس، ليحافظ الله على عرضك .

لذلك تَجَنَّبَه على قدر الإمكان،ولم يعد يضحك ، أو يأكل معه وكان يرفض الصلاة معه، فإذا صلَّي جماعة مع زملائه واصطفوا،وجاء هاني للصلاة يخرج أبو داوود من الصف ولا يصلي ، وقد نهاه الجميع عن ذلك ، ومنهم صديقه عز –أقرب الناس إلى قلبه في الشركة–وقال له :

–الصلاة شيء والعلاقات الشخصية شيء آخر.

-لا لن أصلي معه ، لابد أن يشعر أنه منبوذ ومكروه ، حتى يفيق .

-لكن يا أبو داوود هذا حرام .

-لن أصلّيَ معه أبدًا ، ولن أكلمه إلا إذا اعتذر للمياء أمام الجميع ، وأعاد لها كرامتها .

-لن يحدث ذلك إنك تعرفه جيدًا،وتعرف أن كرامته ونفسه عزيزةٌ جدًا .

-تقصد كِبره،واللهِ لن أكلمه إلا بعد أن أضع أنفه في التراب.

لم يفلح أحد في إقناعه بالرجوع عن مُعاداة هاني ،حتى مديرة الشركة التي استدعته ، وقالت:

-لا يصح ما تفعله مع هاني .

-ماذا أفعل ؟

-تتجنَّب الحديث ، أو الصلاة معه ، ولا ترد على سلامه ، وتُحرِّض زملاءك عليه وتحذرهم منه .

-هذا أقل شيء يستحقه .

-العلاقات الشخصية شيء ، والعمل شيء آخر .

-أنا لم أخلط بينهم ، أنا أكلمه في العمل فقط .

-ومنعُك له من دخول غرفة الحسابات ماذا تقول فيه ؟

-مكتبي وأنا حر في إدخال أي شخص أو منعه ، ثم إن الشخص الذي لا يهمه شرف الآخرين ،ويدوس عليه ، قد يلحق الأذى بأي شخص ، وأخشى أن يأخذ أيَّ ورقة من مكتبي ، وأُسْأل عنها ، هذه مسئوليتي .

-هل نسيت أنه قريب أحد أعضاء مجلس الإدارة؟

-ولو كان ابن صاحب الشركة ، لن يهمني .

-أنت حر ، لكن اعلم أنَّ نابه أزرق ، وكن حريصًا منه ولا تجعل العمل يتأثر بعلاقتك به .

-حاضر .

لم يغير موقفه من هاني ، واستمر في معاداته ، وكان يردِّد

-لن أرتاح حتى أطردك من الشركة بإذن الله .

مرَّت الأيام على أبي داوود ،كما هي بدون جديد،و لم يعد بتفكيره غير موضوع لمياء الذي كان يتصل بها بين الحين والآخر،ليطمئن عليها وصديقه عفيفي الذي يزوره في الأسبوع مرة على الأقل،وأنباء الحرب على العراق التي أصبحت الموضوع الرئيسي في كلِّ المحطات .

ذهب واشترى طبق استقبال من وسط البلد ، بعد أن سَئِم من التلفاز المصري ، وملَّ من كثرة أعطال الوصلة التي

أصبحت موجودة في معظم البيوت ، وبعد أن اشتراه ذهب إلى الفنّي،وأحضره ووقف معه حتى انتهى من ضبط الطبق ، ثم قعد أمام التلفاز يقلب قي القنوات ، ويرتبها كما يريد ، واستمرّ في ضبط القنوات حتى منتصف الليل بالرغم من أنّه غير معتاد على السهر .

سمع صوت جرس الباب ، فذهب ليفتح ، نظر يساره في ساعة الحائط قبل أن يفتح ، فوجد المؤشر يشير إلى بعد منتصف الليل ، شعر بالقلق ، نظر في العين السحرية فلم يجد أحد ، فقال قبل أن يفتح بصوت جهوري:

– من الذي على الباب؟

–أنا .

–من أنت؟

–أنا عفيفي صديقك .

–الشيخ عفيفي .

–نعم .

فتح الباب،فوجده واقفًا على آخر درجة في السُلّم _كعادته_،فترل مسرعًا نحوه ، وسلّم عليه ، وقبله ورحّب به، ودعاه للدخول ، فاعتذر.

-أنا اسف ؛ لأني جئت في وقت متأخر،والجو بارد ، وأعلم أنك تنام مبكرًا.

-ولا يهمك ، لم أكن نائمًا .

-ممكن نتكلم سويًا تحت .

-هل حدث شيء؟ ، شكلك لا يطمئني .

- لا تخف ، سأخبرك بكلِّ شيء .

-سأبدِّل ملابسي .

-أرجوك بسرعة ؛ لأني مستعجل ، ولا يوجد لديَّ وقت .

- خمس دقائق ، وسأنزل لك .

-أنا سأنتظرك في الميدان.

بدّل ملابسه بسرعة ، وأخبر والدته ، بأنه سيخرج وأغلق الباب،وضغط على مِقبض الباب ؛ ليتأكد من غلقه ، ونزل مسرعًا،حيًّا عمِّ محمد (خفير شركة الأجهزة الكهربائية) القاعد على يسار بوابة العمارة يدخن النرجيلة وأمامه إبريق شاي موضوع على موقد صفيح به خشب يحترق ثم مشى مسرعًا ، وهو ينفخ في يده من شدة البرد ، وصل إلى الميدان الخالي تماما من المارة،وقعد جنْب صديقه على إحدى المصاطب الحجرية .

- خيرًا يا شيخ عفيفي .

- خيرًا،يا محمود أنا جئت ؛ لأسلّم عليك ، قبل أن أسافر بعد غد .

- كنت أتمنَّي ألّا تسافر إلى الأردن ، وتبقى معنا .

- أنا لن أسافر إلى الأردن ؛ لأعمل فيها .

-إذن لماذا ستسافر ؟

-لكي أذهب عن طريقها إلى العراق .

-ماذا تقول ؟ أجُننت ! هل يذهب أحد إلى العراق في هذا الوقت ؟ الحرب على الأبواب .

- أعرف ذلك ، وهذا هو السبب الذي جعلني أسافر .

- لماذا ؟

- لأجاهد .

- لتجاهد!.

-نعم لأجاهد .

- وما شأنك أنت بالعراق؟

- لأنَّها دولة مسلمة ، وشعبُها مسلم ، أنسيت ذلك ؟

- أعرف ذلك ، لكن العراق له جيش هو أولى به ، وليس لنا شأن .

- أتقول نفس الكلام الذي تردِّده الحكومة.

– أنا أخشى عليك ، فالحرب ليست لُعبة وصدَّام سيُهْزَمْ ، ومن الممكن أن يُسَلِّم البلاد بكلِّ سهولة لهم ، ثمَّ إنه لا يستحق أن تحارب معه .

– أنا لا أحارب من أجله ، أو من أجل شعب العراق ، أنا أحارب من أجل الإسلام .

– معك حق ، إذا جاؤوا إلى هنا ، وحاربونا فالجهاد حق علينا .

–لا أرض المسلمين أرض واحدة ، وإذا نزل العدو في أرض يعيش فيها مسلمون ، فإن الجهاد فرضُ عين على كلِّ مسلم في أنحاء العالم.

– ليس وقته كلام الكتب هذا ، أنا خائف عليك .

– لن يُجدي كلامك الآن ، سأسافر بعد غد إلى الأردن ، ومنها إلى العراق .

– أنا خائف عليك ، من الممكن أن تموت هناك أو تُعتقل ، ثم إنك لن تعود مرة أخرى إلى هنا ، المخابرات ستعرف أنك كنت تجاهد،وستضعك على قوائم الإرهابيين المطلوبين ، وستحكم على نفسك بالنفي مدي الحياة ، أرجوك راجع نفسك .

– أنا لم آتِ إليك لأسمع هذا الكلام ، موضوع السفر أمرٌ منتهٍ ، أنا أريد منك خدمة .

- هل تريد نقود ؟

- لا،أريدك أن تسأل عن أمي ، وتطمئنها على أحوالي كلّ فترة ، أنت تعرف أنها تُحِبُّني أكثر من أشقائي .

- مادمت تعرف ذلك ، لماذا تريد أن تحرق قلبها بسببك؟

- أنا أُجاهد لأحافظ على دينها ، ودين كل المسلمات ، ثمّ إن الجهاد من أجل نصرة دين الله أحبُّ إليّ من نفسي ، أنا أريدك أن تسأل عنها كلّ فترة ، لتطمئن عليها وإياك أن تخبرها بأني أجاهد ، لقد قلت لها إني مسافر للأردن ، لأني وجدت عقد عمل هناك،أنا لم أخبرْ أحدًا غيرك حتى أشقائي لم أخبرهم بذلك ، لأنهم سيمنعونني .

- وكيف سأُطَمْئنُهَا عليك ؟

-ستصلك خطاباتي مع أشقاء لي في الإسلام ، لا تحسب أني سأكون بعيدًا عن هنا إننا نجاهد في الخارج ، ولنا أشقاء يرعون مصالحنا في الداخل .

-وكيف سيعرفونني ؟

- أعطيتهم رقْم هاتفك في المترل وفي العمل، كل فترة سيتصل بك أخ ، وسيُسَلِّمُك نقودًا ، أو خطابا ، إياكَ أن تظن أنّي أعرضك للخطر ، إننا نأخذ حَذرنا جدًا، والأخ الذي سيتصل بك استحالة أن يشك فيه أحد .

– آه ، إن شاء الله ، خير

قالها في سخرية ممزوجة بالخوف .

– هل خفت ؟

– لا أنا تعجبت فقط،كيف اتخذت هذا القرار بهذه السرعة،كل هذا بسبب موت زوجتك !

–لا ، إن زوجتي أحد الاسباب ، لكن السبب الرئيسي هو: إيماني بديني وغيرتي عليه ، الحمد لله الذي بعث لقريتنا الشيخ جلال الحكيم .

–الله يسامحه، هو السبب في تغييرك من اليمين إلى الشمال .

–جزاه الله خيرًا ، لأنَّه الذي أنار لي الطريق وجعلني أشعر بنعمة الاسلام ولذّة الإيمان ، يا ليتك تذهب إليه وتتلمذ على يديه أنا كلمته عنك كثيرًا ، وهو يعرف أبيك ، ويعرفك .

–لا يا عم ، أنا لا أريد أن أعرفه ، أنا سعيدٌ هكذا.

–يُخيَّل إليك ذلك ، ستمر الأيام وستتذكر كلامي .

– أنا غيرك ، أنا أتعاطف معهم ، أتبرع لهم ، أدعو لهم وعلى أعدائهم ، لكن أكثر من ذلك لا، أنا أريد أن أعيش في حالي مع امرأة جميلة ومؤدبة .

–ما أفعله أنا وأشقائي من أجل أن نحافظ على المرأة الجميلة، والعفيفة والمؤمنة التي تبحث عنها،من غير جهادنا ، لن

تجدها هنا ، ولا في أي مكان آخر ، ولن تجد حتى الطعام ، أو الشراب .

-وفقك الله أنا خائف عليك ؛ لأنك تعلم أنِّي أحبك .

- أعرف ذلك ، وأنا أيضا أحبك ، ولي طلب أخير عندك .

-اطلب .

أخرج من جيبه مظروفًا مغلقًا ، وأعطاه له .

-ما هذا؟

-مظروف بداخله وصيَّتي .

- وصيتك!.

- نعم إذا استُشْهِدْتُ ، وأدعو الله بذلك ، سيخبرك أحد الإخوة ، أرجو أن تُنَفِّذ كلَّ شيء مكتوب في الوصية بمشورة الشيخ جلال .

- لا تقل هذا ، إن شاء الله ستعود سالمًا غانمًا .

- أعرف أنني أثقلت عليك .

-هذا أقل شيء أقدمه لك ، هل تأمر بشيء آخر .

- لا ، لكن أريد أن أقول لك شيئًا آخر قبل أن أتركك ، ومن الممكن ألَّا أراك مرة أخري .

-إن شاء الله نتقابل مرة أخرى .

– أخاف أن تكون من أهل الأعراف .

– أهل الأعراف !

– نعم أهل الأعراف ، اقرأ سورة الأعراف وأنت تفهم ما أقصده ، لا وقت عندي للشرح أنت تعرف أن الوقت قصير ، وكنت أتمنى أن أقعد معك مثل زمان،لكن أمامي أشياءٌ كثيرة، أريد أن أنجزها ، آسف مرة أخرى ، لأني زرتك في هذا الوقت المتأخر ، وأثقلت عليك بمطالبي.

–لا تقل هذا الكلام .

قاما ، وتعانقا بشدة ، ثم قال محمود ، والدموع في عينيه :

–إن شاء الله أراك هنا مرة أخرى ، وأنت منصور .

–وإن شاء الله أراك هناك ، وأنت تجاهد معي .

ضحك محمود ، وهو يمسح دموعه ،ثم قال :

–مازلتَ مصممًا على رأيك ؟

–نعم ، لا تنسَ أن تسلم على حسين ، لقد ذهبت إليه ولكنِّي لم أجده ، إنه سهرانٌ طبعًا مع أصدقائه الأجانب سلام، سأركب السيارة القادمة من هناك .

تركه وعبر الطريق ، وأشار إلى سيارة أجرة ، ثم ركب؛ أما هو فظل واقفًا في مكانه يراقب السيارة حتى اختفت من أمامه ،

فرجع إلى بيته وأثناء عودته أخذ يفكر في كلام صديقه حتى وصل ، فوجد عمِّ محمد مازال يدخِّن النرجيلة ، حَيَّاه ، ثُمَّ قال في سِرِّه ــوهو داخل إلى العمارة -:

-قاعد انت ولا على بالك أي شيء ، لو جاء بوش إلى هنا ستعمر له الشيشة وتجعله يشد نفسين ، وتقول له يا ألف مرحب يا زعيم !

شكرًا .... شيخي الجليل

بعد أن صلّى العصر في المسجد ، ذهب إلى المقابر ، ووقف أمام البوابة ، ونظر من خلال السور الحديدي،وقرأ الفاتحة على أرواح الموتى،ثمّ أخرج من جيبه مصحفًا صغيرا ، وفتحه وأخذ يقرأ سورة يوسف ، وبعد أن انتهى منها صدّق،وأخذ يدعو لها بالرحمة والمغفرة ، ثمّ بعد ذلك تحدّث إليها وكأنّها موجودةٌ أمامه ، وقال :

– لقد داومتُ على زيارة أهلك كما طلبتِ،شكرًا على الأيام الجميلة الطّاهرة التي عشتُها معك ، شكرًا على تَحَمُّلك شِدَّتِي ، وصبرَكِ على ضيق يدي ، اغفري لي أيَّ ذنب اقترفتُه في حقّك ، وإن كنتِ شهيدة فاشفعي لي عند الله ، وإن متُّ شهيدًا بإذن الله،سأشفع لكِ عند الله،سأحقق لك أمنيتك،وسأنتقم من كل الكفرة ، لقد افترقنا في هذه الدنيا ، وبإذن الله سنلتقي سويًا في الجنَّة .

بعد أن عاد من المقابر ، ذهب إلى بيت الشيخ جلال كما أمره ودخل ، وقعد أمام الشيخ ، وقال :

–إن شاء الله ، سأسافر غدًا في الصباح الباكر .

–بالتوفيق إن شاء الله .

أخرج الشيخ جلال من جيبه نقودًا، وقدَّمها لعفيفي،وقال :

--خذ يا عفيفي .

-ما هذا؟

-أربعة آلاف دولار .

-ولِم؟

-إنهم هديةٌ منِّي لك .

- لَمِ يا مولانا ؟

-لكيلا تكون هناك تحت رحمة أحد ، أنا لا أريد أن تكون ضعيفًا هناك ، إننا لا نعرف ماتخبئه الأيام لك ، يا ولدي أنا مثل والدك ، وأريد أن أطمئن عليك لكي أكون مرتاح البال .

-لكن يا مولانا ، أنا معي مال .

-خذ هذا المال، وأعطِه للشيخ حاتم الضاري أمانة ، وعندما تريد نقودًا اطلبها منه هو مثلي هناك ، ونحسبه على خير ، هذا المال ابدأ به مشروعًا هناك ، إذا طال بقاؤك هناك ، و لم تستطع العودة ، ابدأ أيَّ مشروع هناك ، خذ نصيحة الشيخ حاتم في كلِّ شيء ، ولا تعصاه ، هذا المال ملكك ، وأنت حرٌّ فيه .

-هذا كثيرٌ يا مولانا .

-هذا أقل شيء ، كنت أتمنَّى أن أجاهد معك ، لكنِّي كما ترى ، أكاد أمشي بالعافية .

-يكفيك المجاهدون الذين تربِّيهم .

-إذا طال بقاؤك في العراق ، وشعرت أن بقاءك سيطول ، تزوج وأنجب .

-أتزوج!.

-نعم ؛ لكي تقابل الله وأنت متزوج وغير منقوص الإيمان، ولكيلا ينقطع نسل الصَّالحين ، وإذا استُشْهِدت أرسل زوجتك وابنك إلى هنا ليعيشوا بيننا ، ونربِّي ذريتك على العلم ، و على الجهاد .

-حاضر يا مولانا .

-أكرِّر عليك للمرة الاخيرة ، اخلص نيتك لله ، فأنت ذاهبٌ لتجاهد نصرة لدين الله فقط ، هل تفهمني ؟ أكرِّر نصرةَ دين الله فقط.

-فهمت يا مولانا .

-واسمع كلام الشيخ حاتم ، ولا تعصِ له أمرًا .

-حاضر .

وحذارِ أن تبوح بسرِّك لأحد في الأردن ، أو في العراق إلَّا للمجاهدين .

-حاضر.

- وحذارِ أن تخرج من الفلوجة ، إلا مع المجاهدين ، وحذارِ أن تثق في أَحد يقول لك إنه من أهل البيت، أو من محبِّيه ، حذارِ يا عفيفي .

-حاضر .

-في أي وقت تودُّ العودة فيه ، اطلب من الشيخ حاتم ، وهو سيتصرف ولا تخجل منه في أي شيء ، أنا كلمته في الهاتف وشرحت له كلّ شيء ، وهو يعرف كلّ شيء عنك .

أخذ مصحفًا كان موضوعًا على مِنضدة صغيرة ، وأعطاه له، وقال :

-ضع هذه النقود في هذا المصحف بين الحافظة الجلدية، وغلاف المصحف ، لكيلا يأخذوهم منك .

-حاضر .

- لقد أرسلتُك للفلوجة؛لأن أهلها من السنة ومعقل للمقاومة،وأهلُها أهل صبر على الشدائد والمِحَن،أنت ستركب العبارة إلى الاردن،وسيكون هناك أحد الأخوة سينتظرك هناك، هو سيعرفك لأنه معه صورتك،أرسلها له أحد الأخوة عن طريق الإنترنت،ولا تنسَ أن تحلق لحيتك دائمًا لكيلا تثير الشكوك حولك ، وإذا سألك أحد عن سبب قدومك للأردن، قل لقمة العيش وأنك وجدتَ عملًا في إحدى المدارس الخاصة، وعندما تصل للعراق امكث في الفلوجة ،ولا تغادرها إلا مع المجاهدين،وبعد أن تستأذن الشيخ حاتم هو مثلي هناك، وحذارِ

للمرة الأخيرة أن تصدق أحدًا هناك إلا جماعة الشيخ الضاري، وإذا سألك الأهالي هناك عن سبب قدومك ، قل لهم إنك تعمل مراسلًا لجريدة أردنية .هناك في الأردن سيتم تدبير كل شيء ، وثق في الله وأخلص في نيتك ، وحذار أن تغضب إذا سمعت أحدًا يسبُّ مصر أو حكومتها ، حذار أن ترد ، تأكَّد من عقد العمل والجواز ، وتمم عليهم ، ولا تنسانِ بالدعاء .

وضع الأموال ، ثم سلَّم على الشيخ ، وقبَّل يده ، وعانقه ووصَّاه على أمِّه ، وعلى أشقائه ، وعلى صديقه محمود ، ثم تركه ، وانصرف والدموع في عينيه .

وقف الشيخ ، وأخذ ينظر إليه من النافذة ، حتى اختفي من أمامه فعاد ، وقعد على الأريكة ، وأخذ يدعو له .

غروبٌ وشروق

بعد أن ودَّع أهله ، وسلّم على عمِّه العمدة ، وأبناء عمومته، ذهب إلى بيت خاله، فوجده قاعدا في فناء الدوار يشرب الشاي كعادته،وبجواره ابنه سعد ، دخل وسلّم عليهم، فقال له الحاج فتحي :

- هل حان موعد السفر يا بطل ؟

-نعم .

-بالتوفيق يا بني ، احرص على نفسك ، ولا تخف ، وكن رجلًا .

-لن أوصيك بالسؤال عن أمي وعن أخوتي؛لأني أعرف أنّك كبيرنا ، وهم في حماية الله ، وتحت رعايتك .

-هم في قلبي ، ولا تخاف عليهم مادمتُ حيًا ، أهمُّ شيء عندي هو سلامتك أريد أن أعرف أخبارك باستمرار .

-حاضر .

-وحذارِ أن تعطي سِرَّك لأحد،وحذارِ أن تسُبَّ حكومتهم، أو بلدهم ، هناك ليسوا مثلنا ، ولا تتكلم في السياسة ، ولا ترد على أحد إذا سب مِصر ، أو حكومتنا .

-حاضر، أريد منك شيئًا يا خال .

-اطلب ما تشاء يا حبيبي .

-أرجو أن تسامحني على أي شيء فعلته ، وأغضبك .

-يا بنيَّ أنت ابني ، والأب لا يحمل ضغينة لولده أبدًا،كلكم أولادي ، والأب دائمًا،يسامح،أهمُّ شيء عندي هو سلامتك.

-حاضر .

قالها وارتمى في حضنه ، وقبَّل يده ، فتأثَّر الحاج فتحي من موقفه هذا ، وانهمرت الدموع من عينيه ، وقال:

- لِمَ لا تريد أن يسافر معك أحدٌ للسويس .

- لكيلا أتعب وأضعف .

-علي بركة الله ، هيَّا اذهب لكيلا تتأخر ، يا سعد كن مع ابن عمتك ، حتى يركب .

-حاضر .

تركوه وخرجوا ، فأخرج من جيبه منديلًا قماشًا ، وجفَّف دموعه ، وقال:

-الله يسامحك يا شيخ جلال ، أنت السبب في تغيير حاله من اليمين إلى الشمال.

وقف هو،وابن خاله على جانب الطريق ينتظران سيارة أجرة ، فلفت انتباههم شخصان على الجانب الآخر من الطريق

يلوحان بأيديهم ، ثمّ عبرا الطريق ، واقتربا منهما ، وقالا في صوت واحد :

-الحمد لله على وجودك، لقد خفنا أن تسافر ، ولا نلحق بك .

-كنت متوقع قدومكما .

-كيف لا نأتي إنّ هذا أقلُّ شيء نقدمه لك ، والله أنا لم أعرف إلّا في الصباح؛حينما طرق محمود الباب بعنف وأفزعني، أنا ظننته بوليس قادمًا،ليعتقلني لعلاقتي بالأجانب،وأيقظني وجرَّني إلى الحمَّام ، ووضع رأسي تحت صنبور المياه ، حتى أفيق أنت تعرف أن نومي ثقيل،وأستيقظ بصعوبة ، ثم أخبرني وجئنا مسرعين ، لنلحق بك .

-أشكركم على نبلكم ، لكن لماذا أتعبتم أنفسكم؟

-لا تقل هذا الكلام ، نحن سنكون معك حتى تركب سيارة السويس .

-والعمل.

-أنا لا أتغيب،كما تعلم، وعندي رصيد أجازات ، وحسين وكيل نيابة ، ولن يسأله أحد .

-لكن .

لم يدعه حسين يكمل ، وقال :

-هذا أقلُّ شيء نقدمه لك،أنا أشعر أنّي أودِّع أخي محمد، أرجوك اعدل عن قرارك .

- لم يعد وقته هذا الكلام،ربنا يجمعنا مرة أخرى على خير.

ركبوا سيارة أجرة إلى المظلات،وأثناء سير السيارة فوق كوبري المظلّات،أشار عفيفي ناحية الشمال إلى مسجد كبير لم يكتمل بناؤه ومصممًا على الطِّراز العثماني،مثل مسجد محمَّد علي ، وقال لهم :

-هذا المسجد الذي ترونه، لم ينتهِ بناؤه منذ أكثر من عشرين عامًا ، واسمه مسجد الرحمن .

-نعم ، لقد لاحظت ذلك ، لكنِّي لم أعرف السبب ، قالها محمود وهو يتعجب .

-لقد ذهبت إلى القائمين عليه،وعرفت أنه يتْبع جمعية خيرية إسلامية،وأنهم يبنون مجمعًا ضخمًا،لذلك يحتاجون لأموال كثيرة، لكن التبرعات قليلة ، كنت أتمنَّى أن أراه مكتمل البناء، وكنت أتمنَّى أن أصلي فيه .

-إن شاء الله ستعود ، وسنصلي جماعة فيه .

-لا تنسَوا أمِّي .

-حاضر ، هي في أعيننا ، والله لن نتركها ، أنا أز محمود .

- يا حسين أنت ومحمود إذا توفر لديكم مال تبرعوا به لهذا المسجد ، لقد حدثتُ الشيخ جلال عنه ، ووعدني أن يجمع له تبرعات .

نزلوا في موقف المظلات ، ثم ركبوا سيارة تاكسي إلى موقف الترجمان ، وانتظروا حتى جاءت السيارة ، وسلّم عليهم كثيرًا ، وكأنه لن يراهم مرة أخرى ، ثم صعد وقعد في مكانه ، ثم تحركت السيارة ، وودّعهم والدموع في عينيه ،وفي أعينهم .

الأصدقاءالثلاثة

من يرى عفيفي ومحمود وحسين يتعجَّب،حينما يعرف أنهم أصدقاء ، فهم على نقيض تام في الشكل والتفكير .

عفيفي: طويل القامة نحيل الجسم، يميل لونه للون القمحي ، ووجهه يميل للاستطالة،عيناه سوداء وأنفه روماني دقيق وفمه صغير ، وأسنانه بيضاء لامعة،وشعره ناعم يُمَشِّطه للخلف، ويرتدي معظم الوقت جلبابًا ماعدا في أوقات العمل يرتدي قميصًا ، وبنطالًا قصيرًا، وكان ملتحٍ قبل أن يأمره شيخه بحلق ذقنه،ويضع السِّواك والمصحف في جيوبه،ويتعطر برائحة المسك، ودائمًا يشرب القرفة باللبن ، أو الحلبة باللبن ، ونادرًا ما يشرب الشاي،أو القهوة،ومحافظًا على شعائر الدين كلِّها،وشديد العناد إذا آمن بشيء ، فمن الصعب أن تجعله يغير رأيه فيه ، ومن يراه يعرف على الفور أنه من المتدينين ، وكثير التفقه في الدين .

أمَّا حسين : فهو على نقيضٍ تام منه ، فهو متوسط القامة ذو جسد رياضي ، فقد كان يلعب كرة اليد في أحد الاندية الكبري ، حينما كان طالبًا في المرحلة الثانوية والجامعية ، شعره أجعد ، ولون بشرته يميل للصفرة ، ووجهه أقرب للمثلث ، وعيناه بنية اللون ، وأنفه مفلطح ، وفمه واسع يكشف إذا

ضحك عن صفين من اللؤلؤ ، وشديد الأناقة يشتري ملابسه من المحلات الشهيرة،ويتعطر بعطور غربية،ويكره ويحتقر العطور الشرقية ، ومن المستحيل أن يشرب الحلبة أو القرفة ، لكنه يقدمهم لعفيفي أو لمحمود ، عندما يزوروه ،. بينما هو يشرب قهوة باللبن أو كابتشينو أو مياه غازية ، شديد الحب لكل ما هو غربي وأجنبي،ويجاهر بذلك ويتقن الحديث باللغة الانجليزية، ويحب التحدِّي وشديد الجموح وليس الطموح ، كما يقول له دائما محمود ، ومن يراه يقول على الفور إنَّه شابٌ من شباب مصر الجديدة ، ويعمل في وظيفة مهمة ، وغير ملتزم ، لكنه في حقيقة الأمر ملتزم بالصلاة في أوقاهّا، ولا يترك فرضًا ، ويصوم ويزكّي ، ويغار على حرمات الدين ، لكنَّه ليس بدرجة التزام عفيفي ، ضحلٌ في الثقافة الدينية ، والثقافة العامة .

أمَّا محمود : فهو متوسط القامة _ أيضًا_ ، لكنَّه عريض الكتفين وشعره ناعم أسود غزير يمشطه على جنب ولونه يميل للأبيض ، ووجه مستدير وعيناه عسلية اللون ، وفمه واسع يكشف عن أسنان مهتم بنظافتها ، وأنفه كبير ، من يراه يظن أنه كبير في السن وله أولاد ، أحيانًا يرتدي جلبابًا ، وأحيانا يرتدي قميصًا وبنطالًا ، وأحيانًا يتعطر بعطور شرقية، وأحيانًا غربية ، المهم أن تكون رائحتها جميلة ، ويشرب الشاي ، أو القهوة ، أو القرفة ، أو الحلبة، أو الكابتشينو.

عدم ثباته على شيء جعله فى منطقة وسطى بينهم،أحيانًا تجده مثل عفيفي في إيمانه وشرقيته،وأحيانًا تجده مثل حسين في عدم التزامه وغربيته ، يهتم بمنظره، لكنه ليس أنيقًا،واسع الثقافة يكره التحدي والعند،ومسالمًا،وفي بعض الأحيان يثور ويعادي، لكن بأدب ، وبلا لؤم ، أو خبث ، إذا أعجبه أمر فإنَّه يتحمّس له،ويُسَخِّر كلَّ قواه من أجل تحقيقه،ويمشي في خطوات إتمامه، لكنه لا يستمر ويتعلل بالأسباب ، من يراه يقول عنه إنه ملتزم، وطيب ومتدين ، وتشعر حينما تنظر إليه، بمسحة حزن تكسو وجهه ، وتشعر بنبرة يأس واستسلام وهزيمة في كلامه.

بالرغم من أنهم ،كما سبق مختلفون في الهيئة والتفكير،إلا أنَّ كل واحد منهم يحبُّ الآخر أكثر من نفسه،وتجمعهم أشياء مشتركة أيضًا ، فالثلاثة من قرية واحدة،لكنَّ عفيفي يعيش في القرية،أمَا محمود،وحسين فيعيشان في المدينة،وكلهم من عائلة واحدة ، لكن أم حسين من مصر ؛ لذلك تجده شديد الارتباط بالقاهرة،بينما عفيفي أمه من القرية،فتجده أيضا شديد الارتباط بقريته ، ومحمود أمه من قليوب ، لكنه يحب قريته وأهل أبيه أكثر ، فتجده مرتبطًا بهم كثيرًا.

أمّا سبب ارتباطهم الشديد ببعض هو:محنة شقيق حسين ، فقد أصيب بالسرطان بعد التخرج مباشرة،وكان صديق عفيفي وزميله في الجامعة ، وكان عفيفي يحبُّه جدًا ؛ لطيبته وتدينه ،

فكان ملازمًا له طوال مرضه، لا يتركه إلا نادرًا ، وكان محمود صديق عفيفي منذ أيام الطفولة ، وكان يذهب معه لمحمد شقيق حسين ، ويقعدان معه ؛ ليخففوا عنه وأحيانًا يتركهم حسين ، ويذهب الي أمر هام، ولا يحمل همّا لذلك ومن هنا ، نشأت صداقتهم ببعض ، وقويت .

بعد وفاة محمَّد أصبحوا أصدقاء حسين المقربين يستشيرهم في كل شيء ، وكان يعتبر عفيفي مستشاره الديني،ومحمود مستشاره الثقافي والعلمي،والثلاثة يتميزون بصفة الطيبة،وإن تفاوتت درجتها بينهم ، وكانوا لا يفترقون إلّا قليلًا ، لكن طبيعة الدنيا جعلت كلّ واحد منهم في طريق ، وانشغل كل واحد منهم في حياته ، لكنهم يتقابلون على فترات ويسأل كل منهم عن الآخر في الشدائد ، طلبًا للعون بدون خجل ، أو كسوف .

قال محمود لحسين قبل أن يتركه ، وينزل أمام بيته :

-كنَّا أربعة ، والآن أصبحنا اثنين ، وأخشى أن نفترق ، ويصبح كل واحد منَّا في طريق .

- لا تقل هذا الكلام إن شاء الله ، لن نفترق أبدًا .

-غدًا ستُثبت لك الأيام كلامى ...سلام .

الوداع يا وطني الضائع

(١)

أنهى إجراءات الدخول للميناء،وختم الجواز ، وصعد لسطح الباخرة ، وأخذ ينظر إلى الميناء ، وكأنه يريد أن يملي عينيه منه، وقال في سرِّه :

-هل من الممكن أن أعود لِمصر مرة أخرى ، يا رب كُن معي.

سمع صوت صفير الباخرة،معلنًا بدء الرحلة،وتحركت الباخرة وبدأ يشعر بالخوف والرغبة في العودة ، لكنَّه أخذ يردِّد أدعية ، وأخرج مصحفه من جيبه ، وأخذ يقرأ القرءان بصوت عال ، حتى هدأت نفسه ، ثم صدق وأخذ ينظر إلى السماء الملبَّدة بالغيوم ، وإلي البحر الممتد أمامه إلى ما لا نهاية،وأخذ يتذكر كلام أمِّه،وتوسلاتها له ووصية زوجته زهراء ، ونصائح محمود وحسين،ثم تذكر خاله الحاج فتحي وعمه العمده ، وأخذ يستعيد شريط حياته،منذ أن تعرف على الشيخ جلال وحتى هذه اللحظة ، شعر برغبة فى البكاء ، لكنه تماسك ، وقال مخاطبًا نفسه وكأنَّه يحدث زوجته :

-ها أنا أحقق لكِ أمنيتك،وسأنتقم لكِ بإذن الله من الذين دمروا حياتنا،وأوطاننا بالسلاح،والقنابل وبالسموم التي زرعوها

في كل مكان،أعاهدك يا أطهر مخلوقة في هذه الدنيا،أن أجاهد من أجل الله ورسوله .

قطع صمته وتأمُّله أحدُ المسافرين الذى تعرَّف عليه عفيفى في الميناء ، وكان معتادًا على السفر ، فهو يعمل فى أحد المزارع هناك منذ أكثر من عشر سنوات ، وسأل عفيفى :

-فيم تفكر ؟

-تذكرتُ أهلي .

-كلُّنا كنا مثلك ، لكننا تعوَّدنا على ذلك،لا تقلق ستتعود.

-أشعر أنِّي أريد العودة والرجوع ، وأريد أن أبكي .

-مُقَدِّرٌ شعورك ، لكن عليك أن تتماسك ، الغربة مرة ، هيا بنا لنترل إلى تحت ، ألا تشعر بالبرد؟

-أشعر ، لكنني انشغلت في التفكير ، هيا بنا .

(٢)

وصل إلى الأردن،ونزل من الباخرة،وأنهى إجراءات الخروج من الميناء ، وظلَّ واقفًا على رصيف الميناء،كما قال له الشيخ جلال ينتظر من يأتي ؛ ليأخذه ، اقترب منه شاب أردني ، بعد أن نظر في الصورة التي يمسكها في يده وقال :

-الشيخ عفيفي .

-نعم .

-شقيقك صالح الهاشمي ، مرحبا بك في بلدك الثاني .

-أهلًا بك .

-أين سنذهب .

-إلى عمان ، لا تخف ، أراك مضطربًا .

-إنها أول مرة أسافر ، وأترك بلدي .

-إن شاء الله ، لن تشعر بغربة هنا،ولا في العراق .كلُّنا أهلك.

-إن شاء الله خيرًا

ركبوا سيارة متجهة إلى عمان ، وقعد جنْب النافذة وأخذ ينظر إلى الجبال والمرتفعات والوديان،ومنظر الثلوج

الجميل الذي لم يره من قبل ، حتى وصلوا إلى الحي الذي يقع فيه مترل الشيخ خالد الهاشمي .

نزل ومشى بجوار صالح وأخذ يتأمَّل البيوت والناس ، لفت انتباهه صوت ترتيل قرآن كريم للشيخ عبد الباسط عبد الصمد، فبدى عليه التأثر والحنين لمصر ، فقال له صالح مازحًا:

- هل ذكَّرك بِمصر؟

-نعم .

-إن أهل الأردن كلهم ، حتى جلالة الملك يحبون المقرئين المصريين ، وخاصة المنشاوي ، وعبد الباسط .

-صح ، ونحن في مصر نحبُّهم جدًا ، لقد نزل القرآن في مكة ، وطُبع في تركيا وقُرِئَ في مصر .

-إن مصر قلب الإسلام ، لقد وصلنا ، دقيقة من فضلك ، وسأعود.

طرق الباب،ثمَّ فتحوا له ودخل صالح ، وهو يصيح بصوت عال

-السلام عليكم لقد وصلنا .

غاب دقيقة وخرج يبحث عن عفيفي ، فوجده بعيدًا عن باب البيت كعادته إذا زار أحدًا ، فذهب إليه وجذبه من يده وأدخله إلى حجرة الضيوف ذات الطراز العربي الأصيل ، وكان في استقباله الشيخ خالد الهاشمي الذي قال:

-مرحبًا بأهل مصر أهل الكرم والعلم والشجاعة والإيمان ، أهلا بولد الشيخ جلال البار .

-أهلا بفضيلتك .

-اقعد هنا جنْبي ، أنت هنا في بيتك ، وأنا مثل الشيخ جلال .

قعد جنبْه على إحدى الوسائد وأخذ يجيب عن كلّ شيء يسأله الشيخ خالد عنه ، ثم تناول الغداء و شرب الشاي ، ثم صلي ونام من شدة التعب .

يارب زوجة استايل

وقف محمود أمام مطعم كنتاكي في ميدان التحرير ينتظر صديقه هيثم المحاسب في مكتب المحاسبة،والذي يراجع على حسابات الشركة ، والذي توطدت علاقتهم ببعض وأصبحوا أصدقاء.

طال انتظاره وازداد غضبه،وأخذ يسير يمينًا وشمالًا،كأنه يبحث عن فتاته،ثم شعر بالملل فقعد على أحد المقاعد في مقهي التحرير،وطلب كوب حلبة باللبن وأخذ يتأمَّل المارة من شباب وفتيات اللاتي ترتدين ملابسَ ضيقة،ومثيرة،وأخذ يسبُّ ويلعن العلمانيين في سرِّه ، ويقول

-جعلتم البنات كالحلوى المكشوفة يتجمع عليها الذباب والقاذورات ، حتى إذا أكلناها مرضنا وتعبنا .

أخرج من حقيبته كشكولًا ،وأخذ يدوِّن فيه بعض ملاحظاته وأشعاره كعادته دائمًا ، ثم سمع رنين هاتفه ، فأخرجه من جيبه وضغط على زر الفتح .

-أين أنت ؟

-خمس دقائق ، وسأكون أمامك ، أين تقعد؟

-في مقهى التحرير .

بمجرَّد أن انتهى من شرب الحلبة باللبن ، وجد هيثم أمامه فقام وعانقه ودعاه للجلوس،فرفض وطلب منه أن يمشوا في وسط البلد ، دفع الحساب ، ووضع الكشكول في الحقيبة ، ثمّ ذهبوا إلى شارع طلعت حرب .

قال محمود :

-خيرًا ، لقد طلبتني في أمر هام .

-بدون مقدمات أنا في مشكلة كبيرة .

-خير ماذا حدث؟

-أنت تعلم أنِّي خاطب منذ خمسة شهور ، وسأتزوَّج بعد العيد .

-أعرف .

-لكنِّي لا أريد أن أستمر في هذه الخطبة،وأريد أن أفسخها.

- لماذا ؟

-لأني لا أحبها .

-ولماذا خطبتها؟

-أنت تعلم أني كنت أحب ابنة عمي،وتقدمت لها وخطبتها ،ثم فسخت الخطبة .

-أعرف ؛ لأنَّك لم تتحمل دلعها ،وتفاهة تفكيرها .

-وبعد فسخ الخطبة بحثت عن زوجة،وليست حبيبة، فوجدت خطيبتي هذه ، وتقدمت لها ، فقد وجدت فيها الطاعة والحنان والإيمان .

-إذن ما المشكلة ؟

-المشكلة أني كنت أشعر مع خطيبتي الأولي بالحبِّ ، والسعادة والرقة ، وكنت أراها "استايل"، أما خطيبتي الحالية فأشعر أنها ست بيت من أيام زمان ، وأنّها بلدي، وأنت تعرف أنني وأنت نبحث عن البنت "الاستايل" ، وأننا نتمنى أن نتزوج فتاة جميلة وحسنة المظهر ، مثل اللاتي نراهنَّ حولنا في كل مكان .

-صح ، لكن لماذا لم تفسخ الخطبة من البداية؟

-لأنني أشفقت عليها ، فهي يتيمة ومطيعة،وخفت أن أكسر قلبها ، لكني غير قادر على الاستمرار معها ، أنا أشعر أني تعيسٌ وأخجل أن أمشي معها في الشارع .

-لماذا؟

-لأن مظهرها بلدي ، وليست مثل البنات اللاتي نراهنَّ في العمل ، وفي الشارع .

-ولماذا لم تطلب منها أن تلبس مثلهم ،ويكون في نفس الوقت ملبسًا محترمًا .

قبل أن يجيب هيثم لفت انتباه أبي داوود أغنية وطني الأكبر تنبعث من مكبر صوت بصوت عال ، فتوقف عن السير ، ونظر يمينًا ويسارًا ؛ ليري مصدر الصوت ، فقال له هيثم :

-ماذا حدث ؟

-ألا تسمع هذا الصوت المرتفع؟

-بلى .

أخذ ينظر يمينًا ويسارًا،ليجد مصدر الصوت فلم يجده،نظر يساره إلى أعلى، فوجد شابًا يقف في شرفة أحد أحزاب اليسار يتأكد من سلامة مكبرات الصوت،فقال وهو يبتسم في سخرية:

-هذا هو الشيء الوحيد الذي يجيدوه ، الغناء والشعارات ، منذ مايقرب من نصف قرن ، وهم يغنون ويكذبون ويقبضون ثمن كذبهم ؛ لعنة الله عليهم أضاعوا الوطن العربي كله .

بصق على الأرض وأكملا السير، وقال لهيثم :

-أجبني ، لماذا لا تطلب منها أن تلبس مثلهم ،ويكون في نفس الوقت ملبس محترم؟

- طلبت منها ذلك،لكنها رفضت ، وقالت إن هذه الملابس لا تناسبها .

- يا هيثم حذارِ أن تتجني عليها،إنها يتيمة وسيعاقبك الله عليها .

-أعرف ذلك ، وهذا ما يجعلني مترددًا في فسخ الخطبة .

-المشكلة أن الوقت يمر ، والبنت هي التي ستعاني .

-أعرف ذلك ؛ لذلك أريد نصيحتك ، أنت تعرف أني أحترم رأيك .

-أنت تعرف أن لي شقيقات بنات ، وأخاف أن يظلمهنَّ أحد.

-أعرف ، لكني أريد رأيك .

-هل من الممكن أن تحاول مرة أخرى معها ؟

-لقد حاولت ، لكني لا أقدر أن أستمر معها .

-إذن افسخ الخطبة .

-أنت الذي تقول ذلك .

-نعم،افسخ الخطبة أعرف أنه قرار صعبٌ عليها، وستكرهك ،لكنَّ الله سيعوضها عنك خيرًا،وستحزن لكنها ستنسى وسيعوضها الله بمن يحبها،لكن أريد منك أن تنفذ ما أقوله لك .

-قل وسأنفذ ما ستقوله بإذن الله .

-لا تطلب منها أيَّ شيء قدمته لها،حتى الشبكة لا تطلبها.

-الهدايا موافق،لكن الشبكة من حقي،إنها من حر مالي الذي تعبت ؛ لأجمعه.

-أعرف ذلك ، لكن هذه أقل ترضية لها،واعتبر ذلك هو عقاب من الله ، ألم تتعب في جمع هذه الأموال؟

-بلى ، لقد تعبت جدًا .

-إذن اجعله عقابًا على سوء تصرفك معها ، أيهما أفضل تخسر مالك أم تخسر سعادتك ، وتصيبك لعنة وغضب من الله طوال حياتك .

-لكن .

-هذا هو رأيي ، البنت ليس لها ذنب ، أنت الذي اخترت وكسر القلوب ليس سهلًا .

-سأفكر في كلّ كلامك .

-وإذا اقتنعت لا تصدمها مباشرة ، اجعل انسحابك تدريجيًا حتى لا تصدم ، وادعو الله أن يسامحك ، وإذا ما سمعت أي سب منهم لا ترد ولا تغضب وحذارِ أن يرد أهلك عليهم .

-هذا كثير يا أبو داوود .

-لا هذا أقل شيء،إنها بنت ويتيمة،وأنت تعلم ألسنة الناس، ولن يتركوها في حالها،ضع كل هذه الأمور في اعتبارك وخاف الله .

-حاضر .

-هيَّا بنا نشرب عصيرًا ، لقد جفَّ حلقي من الكلام .

-موافق ، لكن على حسابي .

ضحك أبو داوود ، وقال :

-تريد أن تدفع ثمن المشورة ، والنصيحة .

-والله لا أقصد .

-أنا أداعبك ، هيَّا بنا .

ذهبا لمحل العصير الموجود بجوار مطعم فلفلة الشهير، وشربا عصير قصب وأخذا ينظرا إلى البنات اللاتي تسرن أمامهما في دلع ، وتمسكن بأيدي الشباب الضائع مثلهنَّ في حسرة ، وقالا في صوت واحد :

-ارزقنا يارب ببنت جميلة و"استايل" وتكون في نفس الوقت مؤدبة .

مرحبًا بك في وطنك المحاصر

بعد أن مر أسبوعان على دخوله الأردن،اطمأن خلالهما على أهله بالهاتف مرتين ، قرر الشيخ خالد إرساله إلى العراق قبل أن تقوم الحرب التي أصبح الحديث عنها هو الشغْل الشاغل للناس،فأعطاه عقد عمل بوظيفة مراسل صحفي لجريدة أردنية، وتم تلقينه بكل شيء عن وظيفة المراسل،لكيلا ينكشف أمره، واصطحبه فريق مكون من ثلاثة رجال من عشيرة الشيخ خالد متنكرين في وظيفة سائق،ومصور وصحفي،وانطلقوا إلى بغداد مدينة المجد والأحزان .

وصلوا إلى نقطة الحدود العراقية الأردنية في طرابيل،قال أبو عمّار السائق إلى عفيفي القاعد خلفه :

-اثبت ، وحذارِ أن يبدو عليك أي خوف إنهم يشكون في كل البشر وأعطِ عقد عملك لرائد .

انتظروا في طابور طويل من السيارات التي تريد الدخول ، ثم جاء عليهم الدور وأصبحوا أمام بوابة الدخول،قام ضابط الجوازات بمساعدة جنوده بتفتيش السيارة،وأنزلهم منها،ثم أخذ الجوازات،وقلب فيها وتوقف عند جواز عفيفي وقال له ساخرًا:

-حتى في وقت الحرب نراكم يا مصريين،لماذا جئت إلى العراق؟

قال في ثبات :

- أعمل مراسلًا لصحيفة العروبة الأردنية،وجئت لكي أغطي الأحداث في العراق .

-لكن جوازك مكتوبٌ فيه ، أنك معلم .

قال رائد قبل أن ينطق عفيفي:

-أنت تعلم أن وظيفة المراسل لا ترتبط بمؤهل التعليم ، أو بالوظيفة التي كان يعمل بها المراسل من قبل ، وهذا عقد العمل الخاص بالرفيق عفيفي شقيقنا في العروبة والاشتراكية،وفي حب القائد الأخ البطل الزعيم صدَّام حسين حبيب الأمة العربية،ومعشوقها وأملها .

- مرحبا بأشقائنا في العروبة .

أشار لهم بالمرور ، دخلوا السيارة مسرعين قبل أن يغير رأيه، وحيَّوه وعبروا البوابة،ثم أوقفوا السيارة بعد قليل، ونزلوا منها .

أخرج أبو عمار ورقة بمائة دولار أعطاهم في السر لموظف الجوازات ، وانتظر هو ورفاقه ثمَّ حصلوا على الجوازات مختومة بتأشيرة الدخول ، ودخلوا أرض العراق بعد أن دفع أبو عمار أيضًا ورقة بمائة دولار لموظفي الصحة ، ليعفوهم من الانتظار في طابور اختبار الإيدز .

قال عفيفي مستعجبًا ، بعد أن اطمأنَّ أنهم ابتعدوا عن بوابة الحدود :

- حتى هنا الرِّشوة موجودة .

قال رائد:

- نعم إن الفقر أذل كل الناس،بعد أن كانوا أعزاء هل تعرف كم راتب هؤلاء الموظفين؟

- لا .

-متوسط الرواتب تتراوح ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف دينار في الشهر وسعر الدولار يساوي تقريبا الفان دينار؛أي أن راتب أي موظف في الدولة يتراوح ما بين ثلاثة دولارات أو خمسة ، بعد أن كان الدينار قبل غزو الكويت يساوي أكثر من ثلاثة دولارات .

-وكيف يعيشون ، وينفقون على أسرهم ؟

قال حسين رفيقهم الثالث ، الذي لا يتكلّم إلا قليلا:

-يعيشون على السِّلع والدعم الذي تقدمه لهم الحكومة ، مثلما كان يحدث عندكم أيام ناصر،أيام الحروب مع إسرائيل. الحكومة تعطيهم بطاقات تموينية ويصرفون بواسطتها احتياجاتهم،وطبعا لا تكفيهم فيلجئون للرشوة ، أو بيع الضمير، أو الخيانة،أو السرقة،بينما أعضاء البعث الكرام ينعمون في القصور،ولا يشعرون بمعاناة الشعب المقهور والمطحون؛لذلك توقع كارثة إذا قامت الحرب .

- ربنا يستر .

قالها،وسكت ونظر من نافذة السيارة،وأخذ يتأمّل الطريق وهو غير مصدِّق نفسه بأنه يسير داخل أرض العراق،البلد الذي كان يقرأ عنه في كتب التاريخ والأدب .

مطلوب عريس

في نفس الوقت الذي غادر فيه عفيفي نقطة الحدود بين الأردن والعراق،كان الشيخ في مكتبه في مقر الجمعية،يستقبل أصحاب الحاجات.

دخل عليه رجل- تبدو هيئته على أنه من ذوي الأملاك، أو من أصحاب النفوذ -وقعد أمام الشيخ ، وقال بعد أن حيَّاه:

-يا مولانا أريدك في أمر هام ، وشخصي .

-تفضل .

-لقد عرفت من صديق لي أنَّ فضيلتك تقوم بتجهيز وتزويج الفتيات اليتيمات وتزويج الشباب الصالح بالفتيات الصالحات .

-هل تريد أن تشارك معنا ؟

-يشرفني ، لكن لي طلب عند فضيلتك .

-تفضل .

-إن لي ابنة تجاوزت السابعة والعشرين من عمرها،ولم يتقدم لها غير عريس واحد وكان غير كفء لها،وأخشى أن يكون ، قد عمل لها أحد عمل لوقف الحال .

-تقصد سحر .

-نعم .

-هذا جائز ، لكن هل ابنتك تشعر بصداع دائم ؟

-لا .

-هل تشعر بألم في ظهرها ؟

-لا .

-هل يبدو عليها أشياء غريبة،مثل ضيق أو صراخ بلا سبب أو غضب من أقل شيء .

-لا .

-هل ابنتك جميلة ، أم حظها قليل من الجمال .

-ليست فارهة الجمال ، ولكنها جميلة بشهادة الآخرين.

-هل معها شهادة جامعية ؟

-نعم ، معها ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية .

-هل تعمل؟

-نعم ، إنها تعمل مترجمة في دار نشر .

-هل أنت ميسور الحال؟

-نعم .

-ومِن أي عائلة أنت؟

-من عائلة القَمَّاش .

-أصحاب محلات الأقمشة في قليوب؟

-نعم .

-بدون فلسفة،كلّما زادت مميزات البنت،كلما قلّت فرصتها فى الزواج،فإذا كانت البنت تمتاز بالجمال،فإن فرصة زواجها تكون كبيرة جدًا،تقل قليلًا إذا أضفت إلى مميزاها الغني، تقل أكثر إذا كانت من عائلة شهيرة فى بلدها،وتقل أكثر وأكثر، إذا كانت البنت متعلمة تعليمًا عال،وتنعدم فرصتها فى الزواج ، إذا كانت تعمل في وظيفة مرموقة ، هل تعرف لماذا ؟

-لا .

-لأنّها لن تجد الشخص الكفء لها من جميع النواحي ؛ لأها أصبحت أعلى من جميع المحيطين بها،والعرسان سيخافون من رفضها لهم إذا تقدّموا لخطبتها؛لذلك نسبة زواجها تكاد تكون معدومة ، ولو وُجِد شاب كفء لها ممَّن حولها ، فإنه سيستعلي على من حوله ، وسيستكثر نفسه على واحدة من طبقته ، أو من قريته وسيسعى لأن يتزوج بواحدة أعلى منه ؛ لأنه يرى في نفسه فرصة نادرة تتمناها أيُّ واحدة ، وسيختار فتاة أعلى من طبقته ليُرضي غروره ، وليتباهى بذلك أمام الجميع ، هذا هو الواقع للأسف ، لقد تغيَّر مفهوم الزواج ، فبعد أن كان الزواج من أجل السترة والحفاظ على الدين ، أصبح من أجل التباهي ، والاستعلاء ، والمتعة فقط .

-وما هو الحل يا مولانا ؟

-ابحث عن زوج لابنتك .

-أنا الذي أبحث ؟

-نعم .

-وماذا سيقول النَّاس عنِّي ؟ ، وماذا سيقول هو وأهله ؟

-لا يهمُّك كلام الناس،ما أضاعنا إلا هذه الجملة التي لا تقدم،ولكنها تؤخر،أنا أقول لك ابحث عن عريس لابنتك تشعر أنه صالح وابن أناس طيبين وفي نفس الوقت تحسبه غنيًا من التعفف ، هذا ما أقصده ، وليس أي شخص وحذارِ أن تنظر فقط لوظيفته .

-يا مولانا إذا فعلت ذلك فسأكون قد أرْخصتها أمامه .

-من الذي عرض الزواج من النبي (صلّي الله عليه وسلم) السيدة خديجة أم النبي (صلّي الله عليه وسلم)؟

- عليه أفضل الصَّلاة والسلام ، السيدة خديجة .

-هل ابنتك أعلى مقامًا من السيدة خديجة؟

-بالطبع لا،لكن من سأعرض ابنتي عليه،لن يكون مثل النبي في أخلاقه ، فالناس قد اختلفت ، وهؤلاء قومٌ ، ونحن قوم ولسنا مثلهم .

-هذا كلام المتنطعين والمنافقين،لقد أرسل الله الأنبياء؛ لنتعلم ونحتذي بهم لا أن نقول هم قوم ، ونحن قوم ، وأننا لا نعيش

عصرهم،ويقتصر إيماننا على أن نجعلهم وسيلة للترحم على الأخلاق فقط،دعك من كلام النّاس وابحث في أقاربك،أو في جيرانك،أو في معارفك عن شاب يستحق أن تجعله مثل ولدك، يكون قد رُبِّي من حلال،وذو خلق،وإن كلّمك أحد،قل هذا من ديننا والخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عرض ابنته على الصحابة،فرفضوا فتزوجها النبيُّ _صلي الله عليه وسلم_، ولم يشعر بعار ولا خزي،ثم أيهما أحسن الصراحة،أم اللف والدوران،والتلميح للعريس وإقامة حفلات وولائم مكشوف سببها،وعرض البنت بشكل يحطُّ من كرامتها أمامه،وأمام أهله، وقد يكون لا يستحق ، ديننا مبنيٌّ على الصراحة وعدم اللف والدوران ، هذا هو الحل عندي ، إذا أردت أن تأخذ به خذ ، وإذا أردت أن تنتظر حتى يأتيها من يناسبها انتظر ، وإذا جاءني من يبحث عن عروس ، وأشعر أنه مناسب لابنتك ، سأرشِّحه لك .

-رأيك صوابٌ ، لكنها كبيرة على قلبي .

-الزواج ليس به كبر،للأسف نجد كثيرين يضحون بكل شيء من أجل أن يطعموا أو يعلموا أبناءهم،أو يجعلوهم يعيشون معيشة مرتفعة،وقد يكون ذلك على حساب كرامتهم، أوصحتهم،أو شرفهم،وقد يسرقون أو يرتشون أويُذلّون أنفسهم من أجل أن يجعلوا أبناءهم يعيشون في غنى،ولا يشعرون بأي حرج،ولا إنتقاص لكرامتهم،لكنهم في الحق

يستكبرون،أيُّهما أفضل ابنتك تظل،جنْبك،أم تتزوج وتطمئّن عليها .

-تتزوج .

-إذن لا تلتفت لكلام الناس،وادعو الله أن .يرزق ابنتك بزوج صالح،وإن وجدت ما قلته لك،لا تتكبَّر ، المهم أن يكون يستحق ولا تعيِّره أنت،وأهلك بفقره،وساعدْه حتى يصبح غنيًا مثلك ، لا تخجل،إن صديقي أستاذ جامعي وطبيب فعل ذلك مع ابنته،وأصبح زوج ابنته ابنه الذي لم ينجبه،ولم يربيه،ولم يشعر بحرج أمامه لأنه عرض ابنته عليه ، ولم يشعره زوج ابنته بأنه هو الذي عرض عليه ابنته ، هل تعرف لماذا؟

-لا .

-لأنَّه مؤمنٌ حق الإيمان،ويعرف أن عَرْضَ الابنة على الصالحين من الدِّين وأمرٌ غير مذموم؛لذلك لم يقل مثل الآخرين،إذا أراد الأب أن يخفف عن العريس في مطالبه، فيشك فيها وفي أبيها ، ويظن أن بها عيب أو بائرة ، وأنهم يريدون أن ينصبوا عليه .

-معك حق يا مولانا .

أخرج ورقة بها عنوانه وأرقام هواتفه،وأعطاها للشيخ ، وقال :

-ربنا يسهل،أرجو يا مولانا إن وجدت زوجًا مناسبًا لابنتي، لا تتردد في الاتصال بي،وهذا رقم هاتفي ولك الحلاوة، إن شاء الله .

غضب الشيخ واحمرَّ وجهُهُ ، وقال:

-هذا واجبي ، ولا آخذ مقابلًا عليه ، ولا تقل هذه الكلمة مرة أخرى ، إننا لا نريد منك لا شكرًا ، ولا جزاءً ، إننا نفعل ذلك من أجل الله ورسوله .

-آسف يامولانا ، لم أقصد ما ظننته .

-لا شيء ، ادعو الله ، وأخلص في الدعاء ، هل تريد شيئًا آخر؟

-أشكرك يا مولانا .

سلَّم على الشيخ ، وانصرف ، فودَّعه الشيخ داعيًا له بالهداية ، والتوفيق والمغفرة ، واستعد لاستقبال غيره من ذوي الحاجات .

في انتظارك يا شارون

اقترب موعد الاحتفال بعيد الأم،و لم يتبقَ عليه غير يومين ، نزل إلى شارع طلعت حرب بعد انتهاء موعد العمل،وأخذ يسير وسْط الزِّحام الرهيب ، وقال في سِّره :

-كل هؤلاء منافقون يتظاهرون بحب أمهاهم،وأمهات أزواجهنَّ،وزوجاهم،لو كانوا حقًا يحبوهم،فلماذا كل هذه المشاكل التي في البيوت؟،ولماذا تشتكي الأمهات دائمًا من عقوق أبنائهنَّ؟،ولماذا كثرت حالات الطلاق بسبب تدخل أهل الزوجين في حياهم ؟ حقا إننا شعبٌ غلبنا المنافقين في نفاقهم .

دخل أحد المحلّات ، واشترى زجاجة عطر لأمه و جلبابًا لجدته ، ثم ركب مترو الأنفاق ، ثم نزل في محطة المظلات ، ثم ركب سيارة متجهة إلى قليوب ، قعد جنْب النافذة _كعادته_ وسرح في عفيفي ، وفي حياته ، وفي عيد الأم الذي يكرهه هو وغيره من الأعياد الكثيرة في مصر ، والتي اخترعها العلمانيون .

اقتربت السيارة من مترل كوبري الطريق الدائري،أفاق على لغط الناس وسبهم للحكومة،تلفت يمينًا ويسارًا؛ليرى ما أغضبهم،فوجد على يمينه أربع عمارات مكونة من أربعة أدوار، تم إزالتهم ففهم ما استغربه في الصباح ، حينما وجد في الصباح سيارات أمن مركزي وسيارات شرطة على يمين الطريق

بالقرب من قرية أبو سنة،فظن أنهم موجودون؛لمنع أي مظاهرة تندد باحتلال العراق أو موجودون؛لمنع شغب قد يحدث بين المسيحيين، أو المسلمين ، بسبب بناء كنيسة أو مقتل أحد أبناء المسلمين على يد أحد المسيحيين،أو العكس،هذا ما ظنَّه في الصباح،لكنه فهم الآن سبب كل هذه الإجراءات الأمنية، استمع لتعليقات الناس ، وكانت مختلفة من شخص لآخر، فقال أحدهم :

-يا أبناء الكفرة ، ماذا تركتم لليهود ؟ لوشارون احتلنا لن يفعل معنا ذلك،يارب أمريكا تأتي وتحتلنا،وتطردهم،وتقتلهم .

قال آخر ، وهو ينهره :

-كيف تتمنَّى أن يحتلوك ؟ هل تعرف ماذا سيفعلون بنا إذا جاؤوا إلى هنا ؟

رد عليه ساخرًا:

-لن يفعلوا معنا أكثر ، مما تفعله حكومتنا معنا ، ولن يذلُّونا أكثر من حكومتنا.

قال آخر مؤمِّنا على كلامه :

-أمريكا تضحي بأي شيء من أجل أن يعيش شعبها ، أما حكومتنا فتضحي بنا ؛ لتعيش هي ، وأعوانها .

قال رجل قاعد جنْب محمود بوقار:

-إن حكومتنا غريبة جدًا،ماذا ستستفيد من تدمير هذه البيوت بعد بنائها ؟ انظر للملابس المرصوصة على الحبال،هل هذا يرضي الله ، ماذا ستستفيد الحكومة؟

-إنها تحافظ على الأرض الزراعية من البوار .

-وهل بعد هدم هذه البيوت ، ستصلح أراضي هذه البيوت للزراعة ؟

-لا لن تصلح بعد ذلك للزراعة أبدًا .

-إذن ماذا استفادت؟غير قهر أصحاب هذه البيوت، وجعل الناس تلعنهم ، وتتمنَّى الخلاص منهم .

-للأسف هم ينفذون القانون،دون أي اهتمام بمشاعر الناس،كان من الممكن أن يأخذوا منه غرامة كبيرة،بدلا من أن يهدموا بيته بهذا الشكل،لا هم استفادوا ولا هو استفاد ولا الأرض عادت ،كما كانت .

-وأين كانوا حينما شرع في البناء ، ولماذا تركوه حتى بنى أربعة أدوار هو وغيره؟ أين كانوا وقتها؟،ولماذا في هذا التوقيت بالذات؟ الناس كلها مخنوقة من أجل العراق ، إنهم يتفنَّنون في قهر وزرع الحقد في قلوب الناس .

-معك حق ، إنهم لا يتعلمون من أخطاء غيرهم أبدا،لو علموا أن حب شعوبهم لهم هو الشيء الوحيد القادر على

حمايتهم من أعدائهم لما فعلوا هذه الفعلة،لكنهم يظنون أنهم بقهر شعوبهم وبإرضاء أعدائهم سيستمرون في الحكم .

-هل تعرف لماذا بيننا خونة،وعملاء يسلمون أوطاننا للأجنبي؟

-لا .

-لأن حكومتنا ،كما رأيت تقهرنا وتزرع الحقد والغل في صدورنا ؛ لذلك إذا جاء محتل نساعده ، لكي يخلصنا منها ؛ لأنها ليست رحيمة بنا ، ولا تختلف عنه في شيء ،فنتعاون معه لنشفي صدورنا منهم ، ولا يهمنا بعد ذلك أي شيء .

- معك حق ، هنيئًا لك يا شارون ، لقد أصبحت أنت وبوش في نظرنا المحرر العظيم والمهدي المنتظر.

عفيفي في بلادالرّافدين (العراق)

منذ أن وصل إلى العراق،لم يهدأ، و لم يرتح ، فبعد أن وصل إلى الفلوجة قام بتنفيذ كل ما أوصاه به الشيخ جلال ، وسلم نفسه للشيخ حاتم ، وأصبح تحت رهن إشارته.

قام الشيخ حاتم بتسليم عفيفي لقائد المجاهدين العرب في الفلوجة أبوحفص المصري؛ ليدربه على حمل السلاح ، وجميع أعمال القتال في الصباح ، ويعود ويبيت في بيته في المساء ، رافضًا أن يبيت في أي مكان بعيدًا عنه ، لكي يطمئن عليه ، فقد قال له حينما تعجب من ذلك:

-إنك قادم من عند الشيخ جلال ، والشيخ جلال بالنسبة لي أب ، وليس صديقًا لذلك كل من يأتي من طرفه هو بالنسبة لي ابن ، والابن لا يغيب عن بيت أبيه.

قام الشيخ أبو حفص المصري ، بضمه للمعسكر مع أشقائه المجاهدين ، ثم قام بإخضاعه لبرنامج تأهيلي مكثف،لرفع لياقته البدنية،ثم قام بتدريبه على كيفية تسلق المناطق المرتفعة بواسطة الحبال ، وعلمه كيفية الهروب إذا وقع في فخ ، ثم أخيرًا درَّبه على حمل السلاح بجميع أنواعه ، وعلّمه كيفية زرع اللغم ، و كيفية تفجيره من على بعد.

مرَّ شهران،وهو على هذا الحال يستيقظ قبل الفجر، ويتسلّل تحت جنح الظلام مع أشقائه المجاهدين،ثم يتقابل معهم في مكان

متفق عليه،ويذهبون جميعا إلى المعسكر الموجود في المناطق النائية بعيدًا عن الأعين، ثم يعود بعد الغروب بنفس الطريقة ، لكيلا يشك فيه أحد،ويقعد مع رجال عائلة الشيخ حاتم -الذين أحبُّوه ، وأحبهم ، وأصبح كأنّه واحدٌ منهم- حتى بعد صلاة العشاء بقليل ، ثم يتناول العشاء ، ويذهب لغرفته لينام .

حينما يذهب للنوم ويمدد على سريره لا ينام بسرعة ، بالرغم من شدة التعب الذي يشعر به ، وينظر للسقف ويسرح في أهله وأصدقائه،ويشعر بحنين جارف لهم،وتنتابه رغبة للعودة إليهم والارتماء في أحضانهم،لكنه يستعيذ من الشيطان ، ويتذكر كلام زوجته زهراء ، ووصيتها.

-اوعدني بأن تنتقم لي ، وبأن حقي ، وحق شقيقاتي لن يضيع .

فيردِّد في سرِّه

-والله لن يضيع بإذن الله ، سأنتقمٍ من كل الكفرة الذين دمروا حياتنا وديننا ، يارب اجعلني سيفًا على رقاب الكفار ، وآتني الشهادة .

يوم الجمعة من كل أسبوع هو اليوم الوحيد الذي ليس فيه تدريبات ، أو مهام ، فيستغله عفيفي ؛ لكتابة خطابات لأهله أو يذهب مع رفاقه لبغداد ، وسمراء وكربلاء ؛ ليشاهد المعالم

التاريخية التي كان مشتاقًا لرؤيتها ، ويذهب وفي ذهنه نصيحة الشيخ حاتم والشيخ جلال .

-حذارِ أن تترك أشقائك المجاهدين،وتتجول بمفردك ، حذارِ أن تقول عن سبب مجيئك لأحد ، حذارِ أن تثق في أحد يقول لك إنه من أهل البيت ، إذا ضللت الطريق اتصل علينا بالهاتف، ونحن سنحضر اليك.

في إحدى المرَّات ذهب إلى بغداد ، ومشى في شوارعها وهو غير مصدق أنه يمشي في عاصمة الخلافة التي كان يقرأ عنها في الكتب،دخل شارع المتنبي فوجد الكتب الكثيرة الموجودة في المحلات،وعلي الأرصفة فتذكر سور الأزبكية في العتبة في مصر، وقال لصديقه طارق الرشيدي- الذي تعرَّف عليه هناك، وأصبح صديقه المقرب،وهو شاب عراقي في الخامسة والثلاثين من عمره من عشيرة الشيخ حاتم الضاري ، ولم يتزوج لضيق ذات اليد ، وكان قد أحبّ إحدي بنات خاله ، لكنها تزوجت من عراقي غني يعمل ، ويقيم في الإمارات،وتركته لفقره ، فنذر نفسه للجهاد ضد الأعداء الذين حاصروا بلده حتى أذلوه بالفقر والمرض ، ثم بعد ذلك يريدون أن يحتلوه ، فنذر نفسه للجهاد هو ومن معه من الشباب الذين لا يبكون على شيء-:

- إنه مثل عندنا بالضبط ، إنه يشبه سور الأزبكية في العتبة .

-إنك جئته،وهو يحتضر،إن هذا الشارع كان له شأنٌ عظيم قبل الحصار،كان أهم شارع في بغداد ، لكنه الآن -كما ترى -شارع يعاني من قلة المشترين وكثرة البائعين من جميع المهن أساتذة جامعة ومثقفين، وقراء وطلبة ، الكل يبيع كتبه من أجل أن يأكل وبثمن بخس،لو كان معي مال لاشتريت ما أحتاجه من كتب فأنا أحب القراءة،لكن (العين بصيرة واليد قصيرة)، كما تقولون عندكم في مصر .

-لو كان محمود صديقي هنا لاشترى كلَّ هذه الكتب .

-صديقك الذي تحكي عنه .

-نعم ، هو يحب الكتب أكثر من أي شيء في الدنيا .

-لو جاء وعاش بيننا،لباع كل ما يملك من أجل أن يأكل خبزًا فقط ، الحصار جعل الناس تبيع ملابسها من أجل أن تأكل .

وفي إحدى الزيارات،زار مدينة كربلاء،ودخل مسجد الإمام الحسين،وصلي فيه،ولفت نظره ضخامة وفخامة المسجد، وتقبيل الناس لعتبات المسجد ، وتقبيلهم لجدران القبر ، فقال لصديقه:

-إنه مسجدٌ فخم جدًا ، أول مرة أرى مئذنة وقبابًا بهذا الجمال، وبهذه الفخامة.

-إنه أهمُّ مسجد،وأهمُّ مرقد في العراق بعد مرقد الإمام علي رضي الله عنه .

-من أين كلّ هذه الأموال التي أُنفقت عليه ؟ إن العراق محاصرٌ منذ أكثر من عشر سنوات .

-إن الشيعة أغنياء جدا ، إنهم يأخذون خمس الدخل من كلّ شيعي في العالم؛لكي ينفقوا على دعوتهم،وعلى حوزاتهم .

-لو وفروا كلّ هذه الأموال ، وأنفقوها في وجوه الخير لما ظلّ أحدٌ فقيرٌ في بلاد المسلمين .

-معك حق سُنّي يُبَدِّد أموال البلاد على صنع تماثيل ، وبناء قصور له ، وعلى شعارات كاذبة ، وشيعيّ يُبَدِّد أموال البلاد على بناء وزخرفة المساجد،وجعلها كالمتاحف ، ندخلها لنتأمَّل جمالها ، لا لكي نقيم فيها الشعائر ونتعبد لله ، وبينهم صليبي يعينهم على بعض ، ويقبض من هذا ثمن دم ذاك ، والعكس .

-معك حق ، حتى هنا يُقَبِّلون الأرض ، ويتمسَّحون في سور القبر مثل عندنا .

-نعم ، إنها مراسمٌ شيعيةٌ مقدسةٌ .

-إن الإمام الحسين بريء من تصرفاتهم ، واللهِ لو كان حيًا لنهرهم ، ووبَّخهم على دَجَلِهِم وسوء سلوكهم .

-اسكت لكيلا يسمعك أحد ، لو سمعوك وأنت تنتقدهم ، قد يقتلوك وخاصة أنك غريب .

قرأ الفاتحة أمام القبر ودعى للإمام الحسين ، ثم خرج مع صديقه،ومشوا في الشارع ، وتذكر قصة مقتل الحسين، وحضر في ذهنه صوت الشيخ كشك،وهو يحكي قصة استشهاده ، فشعر بقشعريرة ، وقال لصديقه طارق :

-أنا غير مصدق أنني أقف في المكان الذي كان الإمام الحسين يقاتل فيه ، وفي المكان الذي استشهد فيه ، أشعر أنني في حُلم ، وأشعر أنني أريد أن أبكي .

-كلُّنا يشعر بهذا الشعور ، مَن منَّا لم يحزن على الإمام الحسين ، ولم يبكِ من أجله؟ منهم لله الذين كانوا السبب في مقتله ، فبسبب مقتَله أصبحنا فرقًا متناحرة يقتل بعضنا البعض ونتعاون مع أعدائنا على بعض ، أصبحنا سُنَّة وشيعة، ثم انقسم كلٌّ منَّا إلى فرق ، وتفرق شملنا وأصبحنا في نزاعٍ لصالح أعدائنا.

-معك حق.

زار معظم معالم العراق مع أصدقائه يوم الجمعة من كل أسبوع ، وفي كلِّ زيارة يشعر بنفس الشعور، الشعور بالدهشة وعدم التصديق ، والحنين لأيام الخلافة العباسية ، ومجد الإسلام.

أكثر شيء تضايق منه كثرة تماثيل صدَّام المنتشرة في كل مكان في العراق،فقال في سرِّه حينما وقف أمام التمثال الموجود في ساحة الفردوس ، وكان تمثالًا ضخمًا:

-كل هذه التماثيل لشخص واحد،كل هذه الأصنام موجودة في بلد إسلامي،إن الحسين ذات نفسه لم يصنعوا له تمثالًا،كل هذه الأموال أنفقت من أجل تمجيد شخص غبي عنيد أضاع الأمة العربية كلها،كل هذه الأموال أُنفقت في هراء على تمجيد شخص،والشعب كله يموت من الجوع،معهم حق حينما يصفونا بالنفاق والكذب ، وحينما يردِّدون أنَّهم يريدون تحريرنا من الظلم والقهر ، وعبادة الفرد .

مرَّت الأيام بسرعة،ودخل شهر مارس،ولم يعد في العراق حديث إلا عن الحرب وعن بوش،ووجد الناس تستعد للحرب بطرقٍ مختلفة.

مجموعة من الرجال تحفر آبارًا للمياه في الميادين من أجل الشرب ، وأخرى تقوم بعمل ساتر رملي- مثل الذي كان يراه في الأفلام الحربية-أمام البيوت ؛ ليتحصنوا به والحكومة تقوم بتوزيع السلاح على البيوت ، وتحثهم على المقاومة ، ومكاتب توزيع المواد التمونية توزع على الناس موادًا تموينية لمدة سته أشهر ، الناس في الأسواق يتزاحمون من أجل شراء كميات

إضافية من السلع الغذائية والمياه،والدواء ليخزّنوه،سيارات مرصوص على سقفها حقائب سفر،وبها مسافرون متجهون إلى عمان تاركين العراق .

ولاحظ أيضًا تأثيرَ أخبار الحرب على وجوه الناس، فاختلفت التعبيرات على وجوههم من شخص لآخر،فوجد خوفًا،وترقبًا على معظم الوجوه،وعدم مبالاة،وعدم اهتمام على البعض الآخر،ولاحظ أيضًا الشماته والسخرية على وجوه البعض،وقد عرفهم من نظرهم الساخرة له وللذين معه، حينما كانوا يبنون الساتر الرملي أمام أحد البيوت فأخبر طارق عنهم، فقال له :

-دعك منهم ، إنهم إما خونة يتعاونون مع الأعداء كرهًا في صدّام ونظامه ، أو طمعًا في جاه ومال من الأمريكان، ونحن لهم بالمرصاد إذا ثبت عليهم أي خيانة،أو من الشيعة الذين يتمنون أن نُهزم ونُحتل؛ليحكموا العراق،ويحولوها إلى بلد شيعي،ويقضوا علينا،وعلى كل السنيين ، ولكنهم لن يستطيعوا بإذن الله .

وجد أيضًا في بغداد وفي الفلوجة مراسلين،ومصورين أجانب كثيرين يمشون في الشوارع،ويتكلمون مع الناس ويصورون أي شيء ، حتى ولو كان تافهًا لا يستحق التصوير، قال في سرّه حينما رأى أحدهم يتكلم مع عجوز:

-تجوبون البلاد طولها وعرضها ، بحجة أنكم تسعون لنقل الحقيقة والخبر،وأنتم في حقيقة الأمر تنقلون كلَّ شيء لبلادكم، تتجسَّسُون علينا،ونحن هنا نصدقكم ، ونقول لكم عن كل شيء ، آه منكم يا أبناء اللئام ، يارمم لا تتغذى إلا على جثث الموتى .

اجتمع الشيخ حاتم الضاري مع أبي حفص المصري ، واتفق معه على عدم المشاركة مع القوات العراقية في بداية الحرب، لكيلا يُقتلوا في بداية المعارك،وطلب منه الانتظار،واستقبال وتدريب مجاهدينَ جُدد من البلدان الإسلامية وأنه سيقوم بالاتصال،والتنسيق مع فصائل المقاومة في المناطق السُنِّية المختلفة، وأمر من معه بالمشاركة في الدفاع المدني من إزالة للأنقاض،وتمريض للجرحى ، والصَّلاة على الشهداء،ودفنهم، والعمل على حماية الناس من القصف بتوجيههم إلى المخابيء ، وإلي المساجد بانتظام دون فوضى ، ورعاية من سيفقد أهله.

شعر عفيفي بالخوف الشَّديد ، وأخذ يدعو الله أن يُثبِّتَه ، وأن يقف معه ، وينصره على جميع الكفار .

أخي يُعَذَّب ، وأنا أبكي ثم أرقص !

قامت الحرب في العراق بالرغم من اعتراض الدنيا كلّها على قيامها ، وقامت المظاهرات لوقفها ، وكان من ضمنها مظاهرة اليوم التالي للحرب،والتي قامت في الأزهر،ثم امتدت إلى ميدان التحرير ، وكانت كبيرة جدًا احتشد فيها بشرٌ كثيرون ، وكان أبو داوود مع ابن خاله الطالب في كلية الهندسة يردِّدُون الشعارات التي تسبُّ أمريكا والخونة،وقد ذهب أبو داوود على مضض، فهو يكره المظاهرات ، ويسبها ويقول إنها لا تقدم ولا تؤخر، لكنه قبل بعد إلحاح ابن خاله ، والذي وصفه بالسلبية .

استمرَّت المظاهرة في الزيادة،بالرغم من شدة حرارة الطقس، وكلَّما مرَّ وقت انضم متظاهرون جدد حتى أصبح ميدان التحرير ممتلئًا عن آخره بالمتظاهرين والإعلاميين وجنود الأمن المركزي .

أُذِّنَ للعصر،فصلَّى المتظاهرون في مكانهم ثم استأنفوا المظاهرة،وأخذوا يسبون أمريكا،وإسرائيل والخونة،ويرفعون اللافتات التي تُنَدِّد بالحرب،وبأمريكا واستمروا على ذلك الوضع،حتى اقتربت الشمس من الغروب،وعمَّ الظلام الأرجاء ، وأُذِّن للمغرب ، فصلَّى المتظاهرون المغرب في مكانهم أيضًا ، واستمرُّوا في الهتاف .

شعرت الحكومة بالخوف،وبتأزم الموقف فأصدرت أوامرها بتفريق المظاهرة بالقوة ، فقامت قوات الأمن المركزي بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع،فحدث هرج ومرج،فاستغلته الشرطة فأمرت بضرب المتظاهرين بالهراوات والعصي، وبصعقهم بشحنات كهربائية تتولد من بعض العصي التي في يد بعض الجنود.

شعر أبو داوود بالخوف الشديد،فهذه أول مرة يقف في مظاهرة ، فقال لابن خاله :

-هيا بنا نمشي من هنا،الوضع قد تأزَّم،انظر لتلك الفتاة التى يضربوها بقسوة ، هيَّا بنا .

- لا تكن جبانًا إذا كنت تريد أن تهرب،فاهرب،أما أنا فلن أترك مكاني .

لم يرد عليه أبو داوود،فقد وجد طوفانًا من البشر يجري نحوه هاربًا من المظاهرة خاف أن يدوسوا عليه فأمسك بكف ابن خاله وجريا مع الناس مسرعين حتى وصلا إلى تمثال عبد المنعم رياض،فوقفا ليلتقطا أنفاسهما ، قال ابن خال أبي داوود:

-هل ترى سيارات الأمن المركزي المحترقة هناك ، وعربة الإطفاء المهشمة جنبهم؟.

- نعم .

-الجنود هم الذين أشعلوا النار فيهم .

-وكيف عرفت؟

- لقد قالوا لنا في الحزب أنّ هذا سيحدث ، وقد رأيتهم وهم يشعلون النار فيهم.

-لماذا؟

-لتتخذها الحكومة ذريعة لمنع المظاهرات الأخرى ، ولتبرر أمام الرأي العام ضربها للمتظاهرين ، وتصفهم بالمشاغبين .

-هيَّا بنا نعود للبيت .

ذهبا لبيت جدهم،وتناولا الطعام،وهم يشاهدان مشاهد قصف العراق بالقنابل والصواريخ .

وقف خال أبي داوود منفعلًا،وأخذ يدعو الله أن ينصر العراق ، ويقهر أمريكا،وانجلترا،وكل من في المترل أخذ يُؤَمِّن على دعائه بما فيهم أبو داوود .

بعد أن انتهى من الدعاء التفت إليهم ، وقال بنبرة فيها فرح موجِّهًا كلامه للجميع:

-هيا بنا لنحتفل بعيد الأم،ونقدِّم الهدايا ، لقد تأخرنا كثيرًا

تفرَّق الجميع وهم فرحون،وذهبوا ليحضروا الهدايا، وتركوا التلفاز ، وهو يذيع مشاهد الانفجارات في العراق.

نظر اليهم أبو داوود في غيظ ، وقال ساخرًا :

-أخي يصرخ ، وأنا أرقص ،أين أنت يا عفيفي الآن؟ ربنا معك .

قام هو الآخر ؛ ليحضر هديته ليقدمها لجدته،لكيلا تغضب، وليشاركهم الاحتفال بعيد الأم ، وتظاهر بالسعادة وهو يقدِّم الهدية لجدَّته.

أبوداوود يتقمَّص شخصية الصحَّاف

أطلق موظفي الشركة على أبي داوود لقب الصحَّاف؛لأنه منذ قيام الحرب لم يعد له اهتمام غير متابعة أخبار الحرب، يتابع أخبارها في التلفاز،وعلي شبكة الإنترنت،وفي الصحف،ثم ينقلها لهم بتحمِّس وانفعال،مما جعلهم يطلقون عليه لقب الصحاف ، ويضحكون معه حينما يسألونه عن أخبار العلوج ، وهل انتحروا على أسوار بغداد، أم لا؟

شعر خلال هذه الفترة بمعنويات مرتفعة للغاية،وبثقة وبأمل في مقاومة العراق وصموده،وكان شديد الثقة في الصحاف، وفي كتابات جريدة الأسبوع المصرية ذات الاتجاه الناصري، والتي بثّت فيه الحماس والأمل .

استمرَّ على هذا الحال طوال فترة الحرب،حتى يوم التاسع من إبريل أي يوم سقوط بغداد فهذا اليوم لن ينساه أبدًا من ذاكرته .

ففي هذا اليوم حدثت له صدمةٌ شديدة ،لم يفق منها لمدة أيام متتالية ، فقد كان جالسًا في مكتبه يراجع الحسابات مع نرمين ، وعماد فدخل عليه زميله دانيال- الملقب من قبل أبي داوود بالخرتيت الهائج ؛ لضخامة جسده،وعدم مراعاته لشعور أي زميل ، أو زميلة في الشركة- وقال وهو يضحك:

-هل عرفت آخر الأخبار يا أبو داوود ؟

-ماذا حدث ؟

-العلوج دخلوا بغداد،وأسقطوا تمثال صدَّام وضربوه بالنِّعال.

-مستحيل هذا الكلام .

-ادخل على الشبكة ، وابحث وسترى ما أقوله لك.

-وكيف عرفت ؟

-اتّصل عليَّ صديقي جورج ، وأخبرني بذلك .

تغيَّرت ملامح وجهه ، وبدى عليه الذُّهول وعدم التصديق، قام من مكانه ، وقعد أمام مكتبه ، ودخل على موقع الجزيرة ، فوجد ما قاله دانيال صحيح، لم يصدق الخبر اتصل على أمِّه في البيت ، وسألها ، فقالت بنبرة حزن ويأس:

-حسبنا الله ونعم الوكيل،الأمريكان دخلوا بغداد،والناس تنهبُ كلَّ شيء ، وتمثال صدَّام سقط والناس يضربنوه بالنعال، أشعر أن أباك قد مات اليوم .

وضع السماعة وهو مذهول ، نظر إلى الجميع ، وقال :

-كيف حدث هذا ؟ لقد كان الصحاف يقول إن هناك مفاجآت،وأن الأمريكان، لم يحتلوا المطار،والمعارك عنيفةٌ هناك .

قال دانيال ، وهو يضحك:

-وهل هذا كلام يُصَدَّق ؟ إنها أمريكا يا أبتِ داوود .

أفاق أبو داوود من الصدمة ، وقال غاضبًا:

-أراك سعيدًا ،وفرحانًا .

– نعم ، إني سعيدٌ لسقوط الطغيان ، والظلم والقهر .

-هل ظلم صدَّام أحدًا من أهلك ؟

-لا .

-هل هدم أيَّ كنيسة في العراق؟

-لا .

– هل اضْطَهَدَ المسيحيين؟

-لا .

-إذن ، لم أنتِ فَرِحٌ للغاية ؟

-أنا فرح؛لأن الظلم قد زال ، والطاغية قد رحل ، والعدل والديموقراطية سينتشرون في العراق .

-وهل أمريكا هي العادلة !؟

-على الأقل لا تقهر شعبها،وتجعلهم يعيشون في رفاهية وسعادة .

-صح من دم،ومالِ المسلمين ، أعرف أنك تتمنَّى أن يحدث لنا مثل ما حدث في العراق .

-من قال لك ذلك ؟ أطال الله عمر رئيسنا،نحن وضع والعراق وضع آخر ، ثم إن رئيسنا ليس مثل صدَّام .

-صح ، كل كلامك صح ، اتركني من فضلك ؛ لأن لدي عملٌ كثير .

خرج دانيال ، فقال موجِّهًا حديثه لمرؤسيه:

- ابن المنافقة ، أعرف أنه يتمنَّى أن يحدث أكثر من ذلك ، ليعلوا في البلاد ويطردونا منها ، آه منك يا حفيد المعلم يعقوب الخائن .

قال عماد متسائلًا :

-مَن المعلم يعقوب الذي ذكرته؟

-رجل مسيحي خائن،حينما جاء نابليون،واحتل مصر وقف بجانبه ضد المصريين،وجهز جيشًا من المسيحيين ودرَّبهم على حمل السلاح ، وأنفق على هذا الجيش من ماله الذي جمعه من تجارته مع المسلمين ، ثم قاد هذا الجيش وحارب وقتل المسلمين الذين كانوا يعاملونه أحسن معاملة،مثل معاملتنا معهم الآن ، وبعد أن فشلت الحملة ، وقرر الفرنسيون الرحيل جرى نحوهم ، وأخذ يرجوهم أن يبقوا في مصر ، ولا يغادروها .

-وهل ممكن أن يحدث لنا مثل ما حدث للعراق؟

-ربنا يستر .

رجع للبيت،وفتح التلفاز،وشاهد ما قالته له أمه،أغلق التلفاز، و لم يتناول غداءه ، وقال لأمّه غاضبًا:

– سأجن ، كيف حدث هذا ؟ ألم تسمعي مثلي تصريحات الصحاف؟ ألم تشاهدي بنفسك المقاومة؟

–يا بنيَّ ، لا تقهر نفسك ، ما حدث قد حدث .

–أنا زهقت من كثرة الإحباط واليأس ، نفسي أفرح وأشعر بأننا ناجحون في شيء ، دائمًا مهزومون ومقهورون ، نفسي أفرح ولو مرة واحدة ، كرهت هذه الدنيا ، وما فيها لا يوجد شيء ناجحون فيه غير المسخرة وقلة الأدب وسبٍّ بعضنا لبعض،الذُّل نشربه من جيل لجيل،أول مرة أشعر بطعم المرارة التي ذاقها أبي يوم ٥ يونيو ، أشعر أني مخنوق وأريد أن أبكي ، يئست،أودُّ أن أشعر ولوٍ مرة واحدة بالأمل أو بالنجاح ، أشعر بأنِّي داخل نفق ومتخفي عن عيون العدو،ومنتظر الفرج من سنين ، أشعر بأني عاجز ، ولا أعرف ماذا أتصرف أو أعمل شيء لحياتي ، أنا محبط وحاسس بأني مهان طوال الوقت،أذهب للعمل وأنا مهان،وأعود وأنا مهان من الزِّحام، إذا اشتريت شيئًا أجده فاسدًا،ولا أجد من أشتكي له، أو يسمعني،أريد أن أهرب من النفق الذي أعيش فيه،أريد أن أخرج للنور، أتشوَّق للنجاح ، أمنيتي أن أرى النظافة والنور والخضرة،أريد أن أجري وأجد أمام عيني الخضرة والماء،أريد أن أغير حياتي، لكني لا أستطيع،أنا محبط ومهزوم ، وليس عندي أملٌ في شيء ، يا ليتني

ما تعلَمت ولا قرأت ولا فهمت،يا ليتني كنت جاهلًا،ولا أعرف بما يحدث من حولي، أنا حزين ، أريد أن أصرخ لكني غير قادر،أتمنى أن أشعر بأننا متفوقون ولو مرة واحدة ، ياليتهم ما درَّسوا لنا في المدارس أيّ شيء عن تاريخنا الذي ضاع وعن عزنا الذي أصبح ذكرى ، ياليتنا ما كنا عرفنا أننا كنَّا عظماء ، ياليتهم تركونا في جهلنا ، دون أن نعرف شيئًا عن مجدنا الذي راح ،كنا سنرضى بالذل ، ونقول هذا هو الواقع ، وهذا ماضينا وحاضرنا.

-يابنيَّ ، لا تكفر برحمة الله ، هوِّن على نفسك.

-وماذا تريدين مني أن أفعله ؟ أغني وأرقص مع الذين قتلونا وهزمونا!،يا ليتني كنت مثل حسين ، لا يهمه شيء ويعيش في غيبوبة وهو سعيد ، وياليتني كنت مثل عفيفي،أرفض الواقع المرير،وأحاول أن أغيره حتى ولو ضيعت نفسي ، أنا واقف في مكاني أشكي همِّي ، وأتحسَّر علي حياتي،يا رب أين المفر؟ يارب أتمنى أن أعيش في النور ، أحلم بالهروب من النفق الذي أنا منتظر فيه من زمن ، يارب ساعدني لأغير من حياتي ، وأهرب من هذا النفق المظلم.

-يا بني ، لماذا تحمِّل نفسك أكثر من طاقتك؟

-لا أحمِّلها ، لكنها الحقيقة التي أراها بوضوح ، هل تعرفين ماذا قال كسنجر وزير خارجية أمريكا ؟

-لا .

-قال:"لا بدَّ أن يشعر العرب والمسلمون بالمهانة والذُّل والخِزي والعار حتى يوافقوا على ما نلقيه إليهم،وهم صاغرون" وهذا ما يحدث حولنا وفي جميع البلاد المسلمة ، أشعر بأني أحد أفراد القطيع الذي يعرف أنه يساق الى الذبح ، ولا يقدر على الهرب.

-ابكِ ، وفرِّج عن نفسك ، ولا تكتم في نفسك .

-حاضر ، سأبكي حتى لا أموت من الغيظ ، سأبكي كما بكى آخرُ ملك مسلم في الأندلس ، سأبكي مثل النِّساء فهذا ما نحسنه .

تركها ، وتوضَّأ،وصلَّى المغرب،وقعد في حجرته وأخذ يبكي،ويدعو لعفيفي ، ويدعو على الأمريكان،وعلى الانجليز ، ثم قال :

- كيف حالك الآن يا عفيفي؟هل أنت حيٌّ أم مت أم أُصبت ؟ ، يارب كنْ معه ، فإنه غريب ووحيد .

لماذا هُزمنا؟

دخل الشيخ حاتم الضاري على عفيفي في حجرته ، فوجده يبكي بحرقة ، فاقترب منه ، وقال :

-ماذا حدث ؟ لقد بحثتُ عنك و لم أجدك فسألت طارق ، فقال إنك هنا ، هل ضايقك أحد من عشيرتي؟ ، قل وإياكَ أن تكذب عليَّ ؟ أنا مثل أبيك ، هل أغضبك أحدٌ من المجاهدين؟

-لا شيء .

-قلت لك ماذا حدث؟

-لقد صعبت عليَّ نفسي،حينما رأيت الدبَّابات داخل بغداد،وتمثال صدَّام يلفونه بعلم أمريكا،ثم منظر ضربه بالنعال ، أصابني بالحزن والهزيمة،والعار والانكسار،مهما فعل فهو في نهاية الأمر حاكم مسلم،وعاره عارنا،وهزيمته هزيمتنا،لقد وقفت أنظر إلى التمثال،وهو يسقط وأنا مذهول،وغير مصدق، ولولا أن مسكنى طارق من ذراعى ، وأعادنى إلى هنا ، لكنت انقضضت عليهم وضربتهم ، الموت لى أشرف من أن أرى المهانة ، وأسكت .

-يا ولدى أنت هنا ؛ لتدافع عن دين الله فقط .

- أنا سأجن ، كيف حدث هذا بكل سهولة ؟

-ياولدي ألم أقل لك أننا سنُهزم ، وإنهم سيُسلِّمون البلد ، لكننا سنقاوم من أجل ديننا فقط .

-لكن لماذا الخيانة ؟ ألم تسمع تصريحات الصحاف معي؟

-بلى،لقد سمعتها لكني كنت أعرف أنه يكذب مثل رئيسه، يا ولدي كيف ينصرهم الله،وهم يحاربون دينه،ويعذبون أبناء وطنهم،إنك لم تراهم أيام مجدهم وعزهم،لقد طغَوا في البلاد وأفسدوا فيها ونشروا فيها الفُرقة،والصِّراع،وبثوا في الناس الشعوبية ، فأصبح كلٌ واحد يعاير الآخر بأصله وبعِرقه حتَّى أصبح هذا حالنا ، صدَّام هذا، قال فيه أحد الشعراء المنافقين" تبارك وجهُك القدسي فينا ...كوجه الله ينضح بالجلال" وأصبح هذا البيت يُردَّدُ أمامه في كل مناسبة،وهو لايعترض، ولا يخجل ، إنَّ ما حدث لهم من هزيمة هي أقلُّ شيء ، إن الله يُمْهِلْ ، ولا يُهْمِلْ .

-لماذا استسلموا بهذه السِّهولة ؟ أين ذهب الجيش ؟

-استسلموا ؛ لأنهم يحرصون على الدنيا ، وليس لديهم أيُّ هدف يدافعون من أجله .

-أليس الدفاعُ عن الوطن أسمى الأهداف ومن شعائر الدِّين؟! ، أليس الجهاد فريضة مقدسة؟!

-لكنهم ليسوا مؤمنين بالله،وبرسوله،وبالجهاد،إنهم مؤمنون بأفكار البعث وبالاشتراكية،إنّهم مؤمنون بالشعارات فقط ، وبالنَّعرات الكاذبة .

-والقادة أين ذهبوا ؟

-لقد فرُّوا مثل الفئران؛لأنهم جهلة،وخونة ومرتشون ويعرفون أنهم مكروهون من مرؤسيهم .

-لماذا ؟

-لأنَّ جميعهم من أقارب وأحباب صدَّام ، لقد عين أهل الثِّقة رؤساءً على أهل الخبرة،والعلم،مثلما حدث عندكم في مصر أيام عبد الناصر ، وأصبح العرِّيف رئيسًا للفريق ويعطي له الأوامر،والجاهل مسئولًا عن التصنيع،أوالتعليم،أو التسليح ؛ لأنَّ صدَّام يثق فيه،أو لأنه من عشيرته،فكان من الطبيعي أن يُهْزموا، وكل الشَّعب يعرف ذلك،والذي يحارب ويقاوم مضطرٌ للدِّفاع عن نفسه، لقد كنا نقول ونسأل نفس الأسئلة ، حينما وقعت "نكسة ٦٧" إنه كأسٌ ومكتوبٌ على شعوبنا أن تتذوقه جيلًا بعد جيل.

-وماذا سنفعل بعد الهزيمة ؟

-سننظِّم صفوفنا،ونقاوم مثلما اتفقنا من قبل ، ولن نستسلم وسنكبد العدو خسائر في الأرواح،وفي العتاد بإذن الله، ولن ندعه يهنأ بعيشه أبدًا ، هيَّا بنا لنلحق صلاة العشاء في المسجد، ونعود لندرس الخطط التي وضعناها،امسح دموعك إنك هنا، لكي تجاهد لا لكي تبكي،أين الشيخ جلال الآن،لو رآك هكذا لتبرأ منك على الفور،إن أمامنا مهامٌ جثيمة،الأمريكان على مشارف الفلوجة ، ويريدون احتلالها،ولابد أن نقاوم ، لا وقت للبكاء ، هيا بنا.

الأمل يعود من جديد

(١)

منذ أن سقطت بغداد،وأبو داوود حزين،ولا يضحك مع أحد ومما زاد من حزنه تحول موقف جميع الصحف من اليسار إلى اليمين ، من تشجيعٍ للعراق إلى السخرية منه ، ومن صدَّام ورجاله وإلحاق كل التهم بهم فشعر أنَّ هؤلاء كانوا يسايرون الموجة ، فكرههم جميعًا و لم يعد يشترِ أي جريدة عدا جريدة الأسبوع ، فقد أعجبه موقفها الثابت الذي لم يتغير بعد الهزيمة، فواظب على شرائها ليتابع أخبار المقاومة .

سمع رنين هاتفه المحمول أثناء جلوسه في مكتبه ، وهو يراجع الحسابات مع عماد ونرمين ، نظر في شاشة الهاتف،فوجد رقمًا غريبًا لا يعرفه ، ضغط على زر الفتح ، وقال:

-السلام عليكم .

- وعليكم السلام .

- من معي على الهاتف؟

- أنا علي من طرف صديقك عفيفي،وأريد أن أسأل عن ثمن بعض الأجهزة الطبية التي تبيعها الشركة ، وقد رشَّحكم لي الأستاذ عفيفي صديقك ، وأريد أن أحضر إلى الشركة لآخذ بيان أسعار هل لديك مانع ؟

شعر بشعور غريب حينما سمع اسم عفيفي، احمرَّ وجهه ، وشعر بالاضطراب ، لكنه تمالك نفسه ، وقال :

-أهلا وسهلا بك ، الشركة تحت أمرك .

-هل لديك وقت ، أم مشغول ؟

-لا أنا منتظرك،سأغادر العمل الساعة الخامسة،متى ستأتي؟

-بعد ساعة إن شاء الله .

-أنا سأنتظرك بإذن الله مع السلامة.

وضع الهاتف على المكتب،واتصل على علياء ، وقال لها :

-سيحضر شخص اسمه علي ، ويريد مقابلتي ، بمجرد أن يحضر أبلغيني ، إنه سيحضر بعد ساعة .

وضع السمَّاعة ، فسأله عماد بفضول

-من الذي يريدك يا أستاذ محمود؟

-زبون من طرف صديق يريد شراء أجهزة طبيَّة من الشركة، لماذا تسأل؟

-لا شيء ، لكني وجدتك مضطربًا ، وكنت أريد أن أطمئن عليك فقط ، لا غير.

نظر إليه أبو داوود ، وقال ساخرًا:

-لا تحشر أنفك في كلِّ شيء ، كن مثل نرمين وتعلَّم منها أن تكون في حالك.

مرت ساعة ونصف،ولم يحضر الضَّيف،شعر أبو داوود بالخوف والضيق،فهو يكره الانتظار،ويقول دائمًا ساعةٌ إلى بيت حبيبتي ، ولا دقيقةٌ في انتظارها.

اتصلت علياء به ، وقالت:

-إن الضيف قد حضر ، هل أدخله ؟

- لا سأخرج له .

خرج مسرعًا إليه ، ورحَّب به ، وأدخله إلى حجرة مكتبه ، وأقعده أمام مكتبه ، ثمَّ نظر إلى نرمين وعماد نظرة ، فهموا منها أنه يريدهم أن يغادروا الحجرة ، فقامت نرمين ، وقالت :

-بعد إذنكم ، سأصلي.

قالتها ثمَّ خرجت،أما عماد فظلَّ جالسًا أمام مكتبه متظاهرًا بالانشغال في العمل،فقال له أبو داوود بلهجة حازمة:

-اتركنا خمس دقائق ، واغلق الباب بعد أن تخرج.

خرج على مضض ، ، فقال أبو داوود :

-أهلا وسهلا ماذا تشرب ؟

-لا أريد شيئًا،أنت تعرف أنِّي في مهمة ، وأريد أن أقضيها بسرعة ، ولقد تأخَّرت متعمدًا ، فقد ركبت أكثر من سيارة تحسبًا لأي شيء .

-كيف حال عفيفي ؟

-بخير وبصحة جيدة .

قال ذلك ، ثم أخرج من جيبه مظروفًا به مال ، ومظروفًا به خطاب موجهًا إلى أمِّ عفيفي،واسطوانة حاسب آلى ، وأعطاهم إلى محمود ، وقال:

-هذه الأشياء أرسلها عفيفي إليك،هل تريد أن ترسل له شيئًا.

-أرسل له سلامي،وتحياتي،ودعواتي،وقل له حافظ على نفسك .

-حاضر .

-دقيقة ، وسأحضر اليك .

خرج،وعاد إليه ومعه ورقه بها أسعار منتجات الشركة ، وقدَّمها له ، وقال:

-وأنت خارج ، قل إنك ستراجع الأسعار ، وستتّصل بي ، أنت تعرف أن كلَّ شيء ينقل هنا ،لا أريد مشاكل،دقيقة وسأخرج معك .

فتح حقيبته،ووضع الأشياء التي أرسلها عفيفي،وأغلقها بالرقم السرِّي ثم خرج معه إلى باب الشركة ، فقال الضيف بصوت مرتفع :

-إذا أعجبتنا الأسعار ، سنتصل بك .

– ونحن تحت أمرك .

–إن شاء الله ، مع السلامة.

دخل مكتبه ، فوجد عماد قد سبقه ، وقعد أمام مكتبه ، نظر إليه أبو داوود نظرة ذات مغزى ، وقال في سرّه :

–ربنا يرحمنا من أمثالك .

(٢)

نزل مسرعًا بعد انتهاء العمل،وركب من أمام محطة مسجد مصطفي محمود حافلة لكوبري أبو العلا ، ثم نزل من الكوبري وركب حافلة إلى ميدان المؤسسة،ثم ركب من الميدان حافلة إلى قريته .

عبر الطريق وحيًّا القاعدين أمام الأبواب،ثم دخل دوار الحاج فتحي،وسلّم على الموجودين فيه، ثمّ تركهم وذهب إلى بيت عفيفي.

طرق الباب،ووقف بعيدًا ينتظر،لفت انتباهه لافتات التأييد للرئيس مبارك،وللحكومة ابتسم ، سمع صوتًا من الداخل يقول:

-من الذي على الباب ؟

-أنا محمود صديق عفيفي .

فتحت طفلةٌ صغيرة الباب،وتبعتها أم عفيفي،حيَّته، وأدخلته إلى حجرة الضيوف، قعد على إحدى الأرائك ، وقال بعد أن سلّم عليها :

-عفيفي أرسل خطابًا من الأردن ، وأموالًا .

- بجد .

-نعم،والله العظيم بجد،لقد أرسلهم اليوم مع صديق قادم من هناك ، وأنا جئت على الفور ، لأبشركِ .

فتح حقيبته وأخرجهم منها ، وأعطاهم لها ، ثمّ قال:

-صديقه قال لي إنه بخير وسعيد،وإنه سيرسل الخطابات والأموال إليّ ، ثم سأحضرها إليكِ ؛ لأنه خائف من عدم الاستدلال على العنوان هنا .

-طمأنك الله ، نحن آسفون لإزعاجك .

-لا تقولي هذا الكلام،عفيفي أخي،وأنت أمّي،سأمشي لأنّي متعب .

-لا والله لن تمشي ، إلا بعد أن تتناول الغداء .

-اعفيني،أنا مستعجل،وانت تعرفين،أمي لا تأكل إلا معي.

حياها وخرج بعد أن شيَّعته بالدعوات الكثيره له ولعفيفي ، دخل شارعًا فرعيًا ؛ لكيلا يراه أقاربه ، ثم وقف على الطريق ، وأشار لحافلة وركب ، وعاد لمترله .

تناول الغداء بسرعة،ثمّ صلّى وشرب الشاي بالنعناع،وقال لأمّه :

- معي شغل،أريد أن أنجزه،سأغلق الباب عليَّ،ولا أريد أيَّ إزعاج .

دخل حجرته،وأغلق الباب وقعد أمام الحاسب الآلي، وشغله ووضع الاسطوانة ، وقام بتشغيلها، فصل السماعة الخارجية ، وقام بتوصيل سماعة الأذن ووضعها على أذنيه .

كانت الاسطوانة بها ملفان فيديو،الملف الأول مكتوبٌ عليه عفيفي ، أما الملف الثاني مكتوبٌ عليه عملية السيف الصاعق ، نقر على الملف الأول نقرتين ، فاشتغل .

ظهر عفيفي على الشاشة وهو يبتسم ، وقال :

-السلام عليك يا أخي محمود،أرجو من الله أن يديم عليك نعمة الإيمان والصحة ، لقد اشتقت إليك كثيرًا أنت وحسين، وكنت أتمنَّى أن أكون معكما ، أنا بخير ، والحمد لله وسعيد مع أشقائي المجاهدين،وقد نجونا من القصف،أعرف أنك تتعجب ، وتسأل نفسك كيف حدث احتلال بغداد بكلِّ هذه السهولة ، السبب هو الخيانة والحصار واليأس، ليس مهم ما حدث ، المهم ما سوف يحدث،نحن قمنا بتجميع أنفسنا،ونقوم بعمليات فدائية ونكبِّد العدو خسائر فادحة،ولا نتركه ينعم بالأمان،وكل يوم نقوم بمهاجمته في كل أنحاء العراق نحن وأشقائنا المجاهدين ، ولا تصدق أننا قد سلَّمنا وأنهم سيطروا علينا،لا،نحن الذين نجعلهم يعيشون في رعب هم وأعوانهم من الخونة ، وحذارِ أن تصدِّق أننا نقتل الشيعة أو نزرع القنابل في أماكن تواجدهم،لسنا نحن الذين نفعل هذا ، لكنهم الأمريكان والانجليز ، ليشعلوا الفتنة بيننا وليظهرونا بمظهر الإرهابيين،أشد ما يحزننا نحن وجميع

إخوتنا المجاهدين،هو وصفنا بالإرهابيين أو بالانتحاريين في وسائل الإعلام المختلفة، لو كنت معي لرأيت بعينك من هم المجاهدون،إنهم أناس تركوا القصور وسكنوا الجحور؛ليدافعوا عن دين الله .

أرجو أن تردَّ غيبتنا أمام أيٍّ شخص يسبُّنا ، وقل لحسين أن يتقي الله،ويبتعد عن هؤلاء الخونة،لو جاء ورآهم وهم يسرقون ويقتلون ، ويمثلون بالجثث ؛ لغير رأيه ، وعرف أن الإسلام هو الحق،آخر كلماتي لك،أرجو أن تكون غيرت نظرتك في الحياة وفي المرأة،وأرجو أن تكون قد فهمت معنى قولي لك حذارِ أن تكون من أهل الأعراف،كن يا محمود من أهل اليمين لتعيش سعيدًا،ومرتاح البال،أنت طيِّب ومؤدب ، لكن ينقصك الإيمان الكامل،سلامي لك ولكل من عندك،إن غيرت رأيك ، وأردت الجهاد قل للشيخ جلال الحكيم ، لقد أرسلت لك ملف فيديو لعمليات قمنا بها مهداةٌ إليك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قام بتشغيل الملف الثاني،وكان عبارة عن تصوير لعملية تفجير دبَّابة أمريكية،زرعوا تحتها الألغام فانفجرت أثناء مرورها على اللغم،ثم سمع صيحات الله أكبر تتردَّد بعد الانفجار،ثم شاهد قصف طائرة أباتشي بصاروخ من المقاومة وسقوطها على الأرض محترقة وسْط تكبير المجاهدين.

أخذ يعيد تشغيل هذا الملف أكثر من مرة وهو سعيد،ثم أغلق الجهاز ووضع الاسطوانة بين الكتب ، وقال :

-الحمد لله ، لم يضع مجهود عفيفي في الأرض ، الحمد لله أنا سعيد ، لقد رُدَّت إليّ الروح مرة أخرى ، يا رب انصر عفيفي هو ومن معه ، يارب أنت تعرف من المجرم ومن البريء .

خرج من غرفته،وقعد مع أمِّه،وأخته،وشقيقه يشاهد التلفاز وهو سعيد ، ثم وقف في الشرفة يغني ، ثم قال :

-أين أنت يا حسين لترى العار الذي لحق بأصدقائك الخونة؟

استشارةٌ عاطفية

قالت نرمين ، وهي تضع المستندات في الحافظة :

-أستاذ محمود ، أريد أن أستشيرك في أمر هام .

-بعد أن أنتهي من مراجعة حسابات العملاء.

-لن آخذ من وقتك كثير ، أرجوك لا يوجد لدي وقت ، الأمر مستعجل ، وعماد سيعود من البنك بعد قليل، ولن أتكلم أمامه .

- حاضر ماذا تريدين ؟

-لي صديقة تقدَّم لها عريس ، وهي تعرفه من قبل، فهو جارها ، وعضوٌ في النَّادي معها وهي محتارة، هل توافق أم ترفض ؟

-لماذا ؟

-لأنه من عائلة ميسورة ، وذات وضع اجتماعي في البلد ، ومن الصعب أن تجد مثله ، لكنه للأسف كانت له علاقات غرامية متعددة ، فهي في حيرة ، هل تقبله وتتغاضى عن ماضيه أم ترفضه وتضيع الفرصة من يدها ؟ فأنت تعلم أن الزواج أصبح صعبًا في هذه الأيام ، ولا يوجد عرسان .

-هل علاقاته الغرامية عبارة عن تبادل كلمات الحب والخروج مع من يحبُّها ، أم زنا والعياذ بالله ؟

-للأسف زنا .

-وكيف عرفت صديقتك بعلاقاته ؟

- أنت تعرف أن الشباب يتباهى الآن بهذه العلاقات ، ويعتبرها مغامرات عاطفية ، وكان يتكلم عن مغامراته أمام الجميع وكان يمشي مع بنات ذات سمعة سيئة في النادي ، وحينما صارحها بحبِّه اعترف لها بذلك ، وأقسم لها أنه قطع علاقته بكل البنات ، إلا هي وتاب عن هذه الفعلة .

-قولي لها على الفور ارفضيه .

-لماذا ؟

-لأنه ارتكب معصية لا يرتكبها إلا العاصين ، أوالفاسدين، أو من لا يهمهم أحد،هذه المعصية لا يفعلها إلا الفاجر الذي لا يخاف،ونحن في مصر ننظر له على أنه فاسد وفاجر،ولا يصح أن نصاحبه ، من الممكن أن نسامح أحدًا كان يشرب بانجو ، أو سجائر أوكان يعرف بنات من قبل وكلمهم ، أو خرج معهم لكن لا نسامح أحدًا زنى أو شرب خمرًا ؛ لأننا نراه كأنه مجرم خطير ارتكب أشد الجرائم ، هل تقبلي أن تتزوجي شخصًا قاتلًا ، حتى ولو تاب؟

-لا .

-لماذا؟

-لأنه فعل شيئًا خطيرًا لا يفعله أي أحد،وسوف أخاف منه، فقد يقتلني إذا أغضبته .

- هو أيضا مثله،لقد فعل الشيء الذي لايفعله معظم الآخرين ، ثم إن من يزني قبل الزواج يخون بعد الزواج ، ومن الممكن أن يخون صديقتك مع أقرب الناس إليها .

- لكنه تاب،ووعدها بأنه لن يفعل هذه المعصية مرة أخرى.

-ما هي شكل توبته ؟ هل يبكي على خطاياه ؟ هل يصلي ويصوم ويستغفر الله كثيرًا ، ويندم طوال الوقت ، هل شكله يوحي بأنه إنسان صالح ومؤمن .

-لا .

-هل قطع صلته بأصدقائه القدامى الذين شجعوه على الفساد ؟

-لا .

-إذن ماذا فعل حتى تقول إنه تاب؟

-يتبرع بالمال للفقراء ، ويقسم لها إنه لم يعد يزني .

-قولي لصديقتك،لا تصدقيه إنه كذاب،إنه يدَّعي ذلك، لكي توافق عليه ، وبمجرَّد أن توافق عليه ، سيعود إلى ارتكاب المعاصي،أنا أعرف شبابًا كانوا فاسدين أيام الجامعة ، لكنهم تابوا وندموا على فسادهم،وعندما أراهم الآن أرى في

وجوههم الصَّلاح والتقوى ؛ لأنهم تابوا توبة صادقة ، وغيروا حياتهم من الشمال لليمين،بينما العريس الذي تتحدثين عنه تاب باللسان فقط،وما أسهل الكلام لو كان مثل الذين أحكي عنهم ، لقلت لك اجعليها توافق، هذا رأيي،وهي حرة .

-لكنَّها تحبه .

- هي حرَّة في اختيارها،وعليها أن تتحمَّل نتيجة اختيارها.

بدى الضِّيق على وجه نرمين ، فقال محمود بخبث:

-هل هذا العريس يخصّك أم يخص صديقتك ؟

- يخصُّ صديقتي طبعًا ، أنا من المستحيل أن أتزوج شابًا بمثل هذه الأخلاق .

ابتسم محمود ، وقال :

-ربنا يوفقك أنت وصديقتك للخير ، هيَّا بنا نكمل مراجعة حسابات الفروع ؛ لأن المديرة تريدها .

عميل تحت الطلب

ذهب إلى حسين يوم الخميس بعد صلاة العشاء ،كما اتفقا سويًا،طرق الباب،ففتح له شقيق حسين الصَّغير ، دخل وقعد ، وانتظر قدوم صديقه الذي كان يتكلم مع أحد الأجانب في الهاتف ، نظر إلى مكتبة صديقه العامرة بكتب اللغة الإنجليزية ، وأخذ كتابًا ، وأخذ يقلِّب فيه.

طرق حسين الباب ، ودخل وهو يحمل صينية عليها كوب حلبة باللبن ، وكوب نسكافيه ، بمجرَّد أن رآه محمود ضحك ، وقال :

-لو أصدقاؤك الأجانب رأوك،وأنت بهذا الجلباب القصير ، لذُهلوا من هيئتك.

ضحك،ووضع الصينية على المنضدة،وقال وهو يقدم الحلبة له:

– معك حق ، هل تعرف أنني أشعر أن عندي انفصام في الشخصية .

-لماذا ؟

-لأنِّي أعيش بشخصيتين مختلفتين تماما ، أحدهما مع أهلي وزملائي وجيراني والأخري مع أصدقائي الأجانب،أستيقظ على صوت صراخ،وسبّ،وضرب،وشجار في الشارع، وأسهر

بالليل في أفخر الفنادق،وأقعد مستمتعًا بصوت الموسيقي العذب، أقعد في الصباح مع زملائي،نتحدث عن تخلّف البلد، وقلة المرتبات والزحام ، وكثرة القضايا وسوء أدب الناس، وبالليل أقعد مع أصدقائي الأجانب نتحدث عن حقوق الحيوان، والثقافة ، والحرية والتقدم ، أصلّي الجمعة في المسجد، وأسمع الشيخ يحذّر من الاختلاط،فأقتنع بكلامه،لكن إذا اتصلت بي أي أجنبية أجري مسرعًا ؛ لأقابلها وحينما أراها أُحَيِّيها بالقبلات ، والعناق متناسيًا كل ما سمعته،أشعر أني أصبحت شخصين ، وليس شخصًا واحدًا .

- ولِمَ كلُّ هذا العذاب؟عِش بطبيعتك وعُد لحياتك الأولى.

- لم يعد ينفع ، من ذاق طعم الحياة مع الأجانب ، ورأى معيشتهم من الصعب عليه أن يرجع ، ويعود للوراء .

-وهل عودتك لأصلك تسميه عودة للوراء ؟!

-أرجوك ، لا أريد أن أسمع هذه الشعارات ، أنا أريدك في أمر هام .

-ما هو ؟

-حصلت على منحة لمدة شهر للسفر إلى انجلترا .

-بجد .... قالها بفرحة شديدة

-والله العظيم ، والسفر بعد أسبوعين من الآن .

- ألف مبروك هل تحتاج لنقود ؟

- لا ، لكن أريد منك أن تشتري معي لوازم السفر .

-حاضر أنت تؤمر .

-متى تريدني أن أذهب معك ؟

-يوم الاثنين القادم،سأنتظرك أمام مطعم كنتاكي في ميدان التحرير .

-موافق ، وأنا تحت أمرك .

قالها ، ثمّ قال في سرّه:

-الكل سيذهب وسيتركني،أخشى أن أصبح وحيدًا في هذه الدنيا .

-أين ذهبت؟

-سرحت ، الكل سيتركني وحيدًا،أنت ستسافر وعفيفي مسافر ، وأنا هنا سأصبح وحيدًا .

-إنه شهر سيمرُّ بسرعة ، هل توجد أخبار عن عفيفي ؟

-عفيفي،كان الله في عونه،هو الآخر مشغولٌ مثلك بالأجانب الذين يراهم على حقيقتهم ، دون زينة ، أو تجميل، ويتعامل معهم بكل صراحة ووضوح .

- لا أفهم شيئًا من كلامك .

-لا تهتم ، قل لي كيف حصلت على هذه المنحة ؟

-بعد أن اقتنعت برأيك،وقدَّمت في المركز الثقافي البريطاني، وبدأت أدرس اللغة ، شعرت بأني قد وجدت ما كنت أبحث عنه من زمن ، فأمسكت الفرصة بيدي ، وأصبح المركز ملاذي الوحيد ، فعشقته وعشقت من فيه ، ولم يعد بالنسبة لي مكانًا أتعلم فيه لغة مثل الآخرين ، لكنه أصبح المكان المحبب لقلبي وكل من فيه أصبحوا أصدقائي،عدا المصريين وأنت تعرف عني أني أحب التحدي،فأقسمت أن أكون أحسن واحد في المركز، وأقسمت أن أتفوق حتى على خريجي مدارس اللغات ، فبدأت أسمع قناة(النيل تي في) طوال الوقت،ثم صادقت مُدرِّستي الإنجليزية،ومما نفعني وظيفتي التي جعلتني محترمًا أمامهم ومظهري وأنت تعرف ذلك،وعن طريق صديقتي الانجليزية بدأت أتعرف على كلِّ الأجانب في المركز،وأصدقائهم من خارج المركز،ودخلت عالمهم السحري الذي أحبه،ثم رشحتني صديقتي لمقابلة المسؤول عن المنح،فتقابلت معه وانبهر بي ؛ لأني في سلك النيابة وأهتم باللّغة ، وأريد أن أعمل دراسات عليا في القانون، فتعجب لأنه لا يري أحدًا من المصريين يدخل مكتبة المركز الثقافي ، إلا أنا فأخذ عنواني ، ورقم هاتفي ، ثمَّ فاجأني واتصل بي وبشرني بالبعثة .

-هل تعرف أن معظم من في المراكز الثقافية التابعة للسفارت عملاء لمخابرات بلادهم .

-كيف عرفت؟

-قرأت ذلك في الكتب السياسية،وعرفت أنهم يبحثون عن عملائهم داخل هذه المراكز وداخل المؤسسات الاجتماعية، مثل الروتاري أو اللويتز .

-هل أنت متأكد ؟

-نعم ، وستثبت لك الأيام كلامي .

-لكن ماذا سيريدون مني ؟

-أن تكون رجلهم في المستقبل،إنهم يفكرون لخمسين عاما قادمة،فاحذر منهم، من الممكن أن تكون مراقبًا من المخابرات عندنا ؛ لحساسية منصبك .

-لا يهمني ، فالعلاقة بالأجانب أصبحت الآن فخرًا عكس زمان،أنت ترى أن الحكومة تستجدي رضا أمريكا وانجلترا عليها،أتمنّى أن أكون رجلهم في المستقبل،فسيكون معي مالٌ ، وسلطة وشهرة ونفوذ ، الدنيا بحذافيرها ، ستصبح تحت قدمي.

-لكن احذر منهم ؛ لأنهم إذا غضبوا على أحد يدمِّروه ويلقوه في الزّبالة ، ويأتون بغيره في ثانية،احذر منهم الف مرة.

-إنك تشعرني بأني قد أصبحت رئيس جمهورية،أو عميلًا عندهم .

-أنت صديقي،وأتمنَّى لك الخير،وأخاف عليك،وقد قرأت عنهم الكثير .

-لا تخف عليَّ،أنا أعرف كيف أتعامل معهم؟

-كثيرون قالوا مثلك ، هكذا ، وكانت نهايتهم فظيعة .

-لا تخف عليَّ .

- هذه المنحة لن تكون الأخيرة ، وستحصل على منحة أعلى منها في المستقبل ، إذا وجدوا فيك ما يريدونه .

-بجد ! كيف عرفت ؟

-نعم ، لقد قرأت في كتب جلال كشك ، والشيخ الغزالي، وفي كتب أنور الجندي عن كيفية صناعة العملاء .

- لم أسمع عنهم من قبل .

-أعرف ذلك؛لأنهم علماء ومفكرون إسلاميون،وليسو مثل ماركس،ولا فرويد ولا سارتر وغيرهم من الأفّاقين المشهورين الذين ابتلانا بهم العلمانيون ، ونشروا فكرهم بيننا .

-المهم سأنتظرك يوم الاثنين كما اتفقنا .

-موافق بعد العمل ،سأنتظرك لكن حذارِ أن تبِعني من أجل أجنبية !

ضحك ، وقال بثقة :

-أبيع كلَّ الناس إلّا أنت،أنت مرآتي التي أري فيها نفسي، بلا أي تجميل ولا نفاق .

ابتسم محمود ، وقال في سرِّه :

صديقي يحارب هناك ، وصديقي يمالق هنا،وأنا حائرٌ بينها، لقد عرفت الآن،كيف يربي العملاء؟،ولماذا نُباع بسهولة للأعداء؟

كم أنت مغفل يا أبو داوود!؟

دخل محمد عامل البوفيه على أبي داوود ، ومن معه حاملًا صينية عليها أطباق حلوى،وزجاجات مياه غازية،ووضعها أمامهم،ثم خرج دون أن يتكلم ، رافضًا الإجابة على تساؤلات أبي داوود .

بمجرَّد أن خرج دخل حسام المهندس في قسم الصيانة والتركيب ، وقال :

-هل سمعت آخر خبر يا أبو داوود ؟

- هل قبضوا على صدَّام ؟

-أهمُّ من ذلك .

-أمريكا ستحتل مصر .

- أرجوك ، ليس لنا شأن بالسياسة .

-قل ما عندك بسرعة ، عندي شغل .

-سأخطب ، وهذه الحلوى بمناسبة خِطبتي .

-أنت! ومن هي سيئة الحظ التي ابتلاها الله بك،ووافقت عليك ؟

-تخيَّل من تكون ؟

-هل أعرفها ؟

- أشدُّ معرفة .

-تعرف أنَّ لي معارفٌ كثيرة .

-فكِّر .

-أنا مشغول ، وليس لديَّ وقت لأضيِّعه معك، تكلّم .

-سأخطب نرمين .

-نرمين من؟

-نرمين تلميذتك المخلصة،ابنتك التي لم تنجبها،كما تقول .

تغير لون وجهه،وبدت عليه الدهشة وعدم التصديق،نظر ناحية نرمين فوجدها تتحاشى النظر إليه،قال وهو يحاول أن يخفي دهشته ، وعدم تصديقه:

-الف مبروك،ربنا رضي عنك،حينما جعلها توافق عليك، ألف مبروك يا عروسة .

-الله يبارك فيك ، قالتها في خجل وكسوف .

-ومنذ متى بدأت قصة حبّكم السرية ؟

-منذ خمسة أشهر .

-ولماذا لم تعلنوا للجميع عن حبِّكم الطّاهر النبيل؟قالها بسخرية .

-قلنا نجعلها مفاجأة ، انتظرنا حتى وافق أهلي ، وأهلها .

-ألف مبروك ، وربنا يتمِّم بخير .

قال أبو داوود ، وهو يحاول أن يغير الموضوع :

-من أين اشتريت هذه الحلوى ؟ أنت تعرف أنِّني لا أحب الحلوي الرخيصة التي يقف عليها الذباب والحشرات،أحب الحلوى الغالية الثمن التي لا يشتريها إلا الناس التي تُقَدِّر طعمها.

قال هذا الكلام ، وهو ينظر إلى نرمين التي احمر وجهها من الخجل.

-وهل تعرف عني ذلك؟ أنا دائمًا أحبُّ أن أشتري أغلى شيء وأندر شيء ، حتى ولو دفعت فيه عمري بالكامل،المهم أن أشتريه ولا يستعصي علي،حتى ولو رميته بعد ذلك،المهم أن أحصل عليه ، اشتريتها من عند العبد ، أنا ونرمين .

سكت أبو داوود،وتظاهر بالانشغال بالأكل والشراب ، ثم قال:

- معك حق الحلوى طعمها حلو ، ومتى الفرح ؟

-الخميس القادم ، سنقيم حفلة في البيت ، ونلْبس الدِّبل ، وإن شاء الله الفرح الكبير بعد سنتين .

-سنتين !.

-نعم حتى نستطيع تجهيز كل شيء .

-ألف مبروك ، الحلوى طعمها جميل .

-هل تحب أن أحضر لك المزيد؟

-شكرًا .

تظاهر أنه يريد أن يكمل شغله ، فقال حسام وهو يبتسم بخبث :

-أترككم ؛ لتكملوا عملكم .

-تفضل ، وألف مبروك .

بمجرد أن خرج ، التفت إلى نرمين ، وقال في غضب :

-ألم تجدي غير هذا التافه ؛ لتتزوجيه ، إنه مستهترٌ وفاسد ، ولا يتحمل مسئولية بيت،هل هو نفس الشخص الذي كنت تسأليني عنه؟هل أنت التي كنت تريدين مشورتي أم صديقتك؟ لماذا أنت صامته ؟

نظرت إلى عماد، ثم إليه وسكتت، فهم ما تقصده ، فقال :

-عماد اتركنا من فضلك خمس دقائق .

خرج عماد غاضبا دون أن يتكلم .

قال أبو داوود -بعد أن جرَّ درفة الباب الزجاجي لكيلا يسمعهم أحد-:

-أجيبيني لماذا وافقت عليه؟ ألم أُحَذِّرْك منه من قبل حينما وجدته يريد أن يضحك ويتكلم معك ؟ ألم أقل إن مثله تافه ، ولا يتحمل مسئولية ؟

-أعرف كلَّ هذا .

-إنه لا يصلي .

-وعدني بالمحافظة على الصلاة .

-كذَّاب ، إنه لا يصلي إلا نادرًا ، إنه يفطر في رمضان .

-أعرف ؛ لأنه مريضٌ بالسُّكر .

-لكنه يدخن أثناء الصيام ، ولا يخجل ، هل مرضه يُحَتِّم عليه شرب السجائر ؟

-ما دام قد أفطر ، وأكل وشرب ، فلم لا يدخن ؟!

قال وهو مذهولٌ من كلامها :

- أنا غير مُصَدِّق ما أسمعه ، هل تعرفي أنه مازال يزني ؟

-لا .

-كاذبة ، إنَّكِ تعرفين وتتظاهرين بأنكِ لا تعرفين ، لماذا لم تقولي لي ؟

-خِفتُ منك .

-لماذا؟

-لأنك لن توافق ، وكنت ستنهرني .

- أنا مجرد زميل ، ليس لي سلطان عليك ، أنا خائف عليك فقط ، وأنت حرة تفعلي ما تشائين،لماذا وافقتي ، وأنت تعرفين حقيقته؟

-لأنّي أريد أن أتزوَّج ، ولم أجد غيره أحبَّني .

-لمَ لَمْ تنتظري ،حتى يرسل لك الله عريسًا مؤدبًا يقدِّرك ، كما قَلتُ لكِ من قبل ؟

-انتظرت ، ولم يأتِ أحد .

-انتظري مرة أخرى .

-إلى متى ؟

-حتى يأذن اللّه .

-هل تعرف أني أبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا ، ولم أُخْطَبْ بعد،وأختي اقتربت من الثلاثين ، ولم تُخْطَب ولي أخت أصغر مني عمرها اثنان وعشرون عاما ، ولم تُخْطَبْ ، يا أستاذ محمود لا يوجد زواج ، وأنا أخاف العنوسة إذا وصلت لسن السابعة والعشرين ، لن أتزوج .

-لماذا؟

-لأن الشاب الذي يريد أن يتزوج يريد عروسة صغيرة لا يتجاوز سنُّها الرابعة والعشرين،وإذا زاد سنُّها عن ذلك، ستصبح في نظره عانسًا وبائرة .

-وهل معنى ذلك أن نوافق على أي شخص يأتي إلينا؟

- "ظِلُّ رجل ، ولا ظِلُّ حائط".

-ولماذا لا تقولي "قعدة الخزانة ، ولا جوازة الندامة" ؟

-يا أستاذ محمود قدِّر موقفي . أنا بنت .

-أقسم بالله أنه سيلعب بك،ولن يتزوجك،إن مثله إذا تزوج، سيتزوج بنتًا من طبقته من مصر الجديدة ، لا من شبرا.

-ولماذا تقسم بالله ؟

-لأنَّه قال إن الخطبة ستكون عائلية ، وستقتصر على تلبيس الدِّبل هل تعرفين معنى ذلك ؟

-لا .

-معناه،أنه لا يريد أن يكلِّف نفسه،أو يخسر،إنَّه يحسبها صح ، لوكان مقتنعًا بكِ مائة في المائة ؛ لاشترى شبكة ، وأقام فرحًا كبيرًا مثل الآخرين ، لكنه يعرف أنه لن يستمر ؛ لذلك خاف أن يخسر .

-إذا كان هذا تفكيره ، فلماذا خطبني ؟

-لأنه يعلم أنك لن توافقي على المشي معه ، ويعلم أننا سنقف ضدَّه ، إذا رأيناه يحوم حولك ، فقرر أن يخطبك بدبلة لا يتجاوز ثمنها نصف ثمن هاتفه المحمول ، وأطال مدة الخطبة ؛ ليقضي معك أطول فترة ممكنة .

-أنت تظلمه ، إن أباه هو الذي طلب ذلك .

-أليس أبوه لواء شرطة وغنيٌّ ؟!، وابنه حسام الابن الوحيد له

-بلى .

-إذن لماذا لم يشترِ شبكة مثل الآخرين،وأصرَّ على أن تكون الخطبة محدودة ؟

-إنه قال إنه يريد من ابنه أن يعتمد على نفسه في الزواج .

-إنه كاذب،هو يعرف أن ابنه لن يستطيع أن يتحمل تكاليف الزواج بمفرده ، إنه يعلم أن ابنه طفلٌ مدلل،إذا رأى شيئًا أعجبه أصرَّ على أخذه بكل الطرق ، ثم بعد ذلك يرميه حينما يملُّ منه،لذلك هو يعرف أنه سيملُّ منك بعد فترة ؛ لذلك طاوعه وفي نفس الوقت لم يخسر، حسام كان يقول هذا الكلام عن نفسه ، وكان يقول إنه لا يحب أن يستعصي شيءٌ عليه ويصر على أخذه ، ثم بعد ذلك يرميه .

-أنت متجن عليه .

-الأيام بيننا ، وستثبت صحة كلامي .

-أرجو أن تكون قدَّرت موقفي ، ولا تغضب مني .

-أريد أن أسألك سؤالًا .

-تفضل .

-كيف استطعتِ أن تُخْفِي عنِّي مدة خمسة أشهر،ولم يظهر عليك أيٌّ شيء يدل على أنكِ تحبي حسام .

قالت وهي تبتسم :

-تلميذتك المخلصة لتعاليمك،أنا محاسبة أشتري،ولا أبيع .

قال ساخرًا :

-صح "علّمناهم التسول ، فسبقونا على الأبواب" .

قالها ، ثم نظر إلى الصورة المعلّقة على الحائط للثلاثة نساء اللاتي يرتدين مِلاءات لف،تكشفن أكثر مما تسترن،وينظرن بوقاحة وخلفهم مسجدٌ كبير ، وقال:

-أشعر أنهم يضحكون عليَّ ، ويقولون لي كم أنت مغفل يا أبو داوود .

انبهارٌ ، واحتقار

-أين أنت يا محمود ؛ لترى الغرب الذي تكرهه وتخافه ، ولتُغير رأيك فيه .

قالها حسين أثناء زيارته لجامعة أكسفورد مع أفراد البعثة ، فمنذ أن وصل إلى هناك انبهر بكلّ شئ رآه،النظام،النظافة ، الأدب في التعامل مع الآخرين ،كثرة قرّاء الكتب في الحدائق العامة،ومما زاد انبهاره،وجعله أسيرًا لحب الغرب،أنه بمجرد أن وصل إلى هناك مع زملائه،اجتمع بهم المشرف الإنجليزي، وقال:

-إننا نعرف أنّكم مسلمون ، والخمر ولحم الختزير محرم في دينكم ، لذلك قمنا بالتنبيه على إدارة البعثة لكي تستقدم لكم طباخًا مسلمًا ليطبخ أطعمة حلال ، خالية من دهن أو لحم الختزير ، ومنعنا تقديم الخمور نهائيا

شعر حسين بالانبهار ، وقال في سرِّه :

-أين أنت يا محمود لترى التسامح الديني ، واحترام شعور الآخر .

بعد أن سمع هذا الكلام،زاد انبهاره بانجلترا ، وتمنى أن يعيش فيها ، ويعمل فيها ، ومما زاد من انبهاره ، أنه وجد الشوارع بعد التاسعة خالية من المارة ، والكل جالسٌ في بيته ، فسأل أحد الاجانب ، فقال :

– نحن هنا في انجلترا ننام في تمام العاشرة ؛ لنستيقظ مبكرًا في الخامسة ، لكي نستطيع أن نعمل بجد ، والمحلات تغلق أبوابها في هذه الأوقات ، عدا السبت والأحد ، والكل يعمل طوال الأسبوع ، ويسهر ويمرح في أيام الإجازات فقط .

انبهر بكلِّ هذه الأشياء ، وتمنَّى أن تطول مدة البعثة إلى الأبد ، وشعر أنه في حلم جميل لايريد أن يفيق منه،ولم يضايقه أيُّ شيء في البعثة غير شيء واحد فقط،وجود إحدى المبتعثات معه في نفس الغرفة،فقد قامت إداره البعثة،بتسكين شاب وفتاة في غرفة واحدة؛بحجة أنهم سواسية،ولا فرق بين الذكر والأنثى في انجلترا .

أراد أن يعترض ، لكنه خاف أن يقولوا عليه إنه متخلفٌ ورجعي،وأن يظهر أمامهم بمظهر المراهق الذي يخاف من الفتنة، ولا يستطيع أن يمسك نفسه عن الشهوة ، فوافق على مضض ، وتذكر كلام محمود الذي حذَّره قبل السفر من شيئين

–احذر يا حسين من الزِّنا ، أو شرب الخمر ، إن شربت خمرًا ، أو زنيت ستهون عليك أيُّ معصية بعد ذلك ، فاحذر منهما.

شعر بالضِّيق والخجل ، واستعاذ بالله من الشيطان ، ودعا الله أن يثبِّته،ولا يصدر منه أيُّ شيء يعيبه ، وتعامل معها كأنها إحدى شقيقاته ، ومما جعل الأمور تسير بهدوء ، سلوك هذه

الفتاة معه، فقد كانت تتصرف بدون أي كسوف،أو خجل ، وتقعد جنْبه على السِّرير ، وكأنه صديقتها وليس زميلها ، مما زاد من دهشته ونفوره منها ، وشعوره بالقرف منها .

قضى الشهر في التعرُّف على ملامح الحياة في لندن ، وزيارة جامعاتها،ومراكزها الثقافية، والأماكن السياحية الشهيرة هناك، ثم زار أماكن تَجَمُّع المسلمين والمراكز الإسلامية التي يتجمعون فيها ، وغيرها من مختلف أشكال الحياه هناك .

انقضى الشهر بسرعة وعاد لمصر مبهورًا بما رآه هناك، وناقمًا على ما يراه هنا ، وقعد في بيته يستقبل المهنئين بسلامة رجوعه إلى مصر،فاستقبل زملاءه في العمل وأصدقاءه وأقاربه وجيرانهم ، ثمَّ استقبل محمود بعد أسبوع من رجوعه،وذلك بناء على طلب محمود ، حتى يخف الضغط عليه ، ويستطيع أن يقعد معه على راحته دون إزعاج .

حكي له بالتَّفصيل،وبكلِّ صراحة،ولم يُخْفِ عنه أي شئ عكس ما حكاه للآخرين.

استمع محمود بتركيز ، ثم قال معقِّبًا على ما سمعه عن تسامحهم الديني واحترامهم لمشاعر المسلمين :

-إنهم أذكياء لا يريدون أن يظهروا بمظهر المتعصِّبين،أو الغير مبالين لشعور الآخرين،فهم يعرفون أنكم إذا عرضوا عليكم

الخمر سترفضون ؛ لأنها حرام وحرمانيتها ظاهرة للجميع ، ولا يختلف عليها أحد وقد يتسرَّب الخبر إلى الصحف ، فيفضحوا أمام الجميع ويظهروا أمام الناس بمظهر الذين يريدون أن يفسدوا الشباب،أما لحم الخنزير،فهم يعرفون أنكم لن تأكلوه، لأنه محرم أيضًا،ولن يضرهم في شئ أأكلتموه أم لم تأكلوه ، ففضلوا أن يظهروا أمامكم بمظهر المتسامحين والمحترمين لدين الآخر ، هم لا يريدون فسادًا في المظهر والسلوك ، هم يريدون فسادًا في التفكير ؛ لأن فساد التفكير مقدمةٌ لفساد السلوك، إنهم يسيرون ببطء شديد؛ليصلوا إلى هدفهم. بجعلوكم تنبهرون بهم ، وتنخدعون فيهم ثم يدسُّون لكم السم في العسل، والدليل على ذلك ، أنهم وضعوا كلَّ شاب مع فتاة في كل غرفة، وهم يعلمون أن هذا حرام عندنا،لكنهم أرادوا أن يختبروا درجة إيمان كل الموجودين ؛ ليعرفوا من الذي سيعترض،ومن الذي سيوافق فإذا اعترض أحدكم سيوضع في القائمة السوداء ؛ لأنه مازال يحتفظ بشيء من الدين فيمنع من أي منح بعد ذلك ؛ لأنه ليس على هواهم ، ولا يؤمن بأفكارهم،وإذا لم يعترض فهو موافق ومؤمن بأفكارهم،ومن يوافق على هذا الأمر سيوافق بعد ذلك على أيِّ شئ يطلبونه منه ، إنهم لا يلعبون،إنهم يخططون بعناية شديدة ليصلوا لهدفهم .

-وماذا سيستفيدون من ذلك؟

-في المستقبل سيدفعونكم وسيساندوكم،حتى تتولّوا مناصب عليا في البلد ، وتنفذوا ما يريدونه منكم عن اقتناعٍ تام وبدون اعتراض،ليضمنوا عدم وصول أي شخص مخالف لعقيدهم ، ويُحْكِمُوا قبضتهم على البلاد من أجل مصالحهم.

-من أين تأتي بهذه المعلومات ؟

-من كتب السياسة ذات الاتجاه الدِّيني ، ومن فضح العملاء لبعضهم البعض،ومن اتهامات الشيوعين للرأسماليين ، والعكس.

-كم تمنيتُ أن أكون مثقفًا مثلك؟

-الكتب موجودة ، وأنا تحت أمرك .

-لا ، أنا لا أقرأ أي شيء لا يُدر مصلحة علي ، أنا لست مثلك أضيع وقتي في كتب لا تنفع ولا تفيد .

-أصدقاؤك يحبون أمثالك من الجهلة ؛ ليستطيعوا أن يحشوا مخهم بأفكارهم ، بسهولة ويسر وبدون اعتراض.

-أنت هكذا،دائمًا تظلم الغرب،وتؤمن بنظرية المؤامرة وتعيش في الدور،نفسي ولو مرة واحدة تتخلى عن سوء الظن.

-غدًا ستثبت لك الأيام كلامي،و سترى من هو على حق، ومن هو على باطل .

-دعك من هذا الكلام، أنا اشتريت لك هدية ستعجب بها .

قام وفتح درج مكتبه،وأخرج صندوقًا صغيرا وقدَّمه لمحمود، وقال :

-هذا ربع كيلو شاي انجليزي أصلي،لا تشرب منـــه إلا في المناسبات الخاصة .

ضحك محمود ، وقال ساخرًا :

-تركت كلَّ شيء في انجلترا،و لم تجد غير الشاي لتـــهاديني به.

-جرَّبه واحكم بعد ذلك ، إنه أصلي ، وليس مثل الشاي المغشوش الذي تشربه ، وتظن أنه شاي نقي .

-على العموم شكرا ، لتذكرك لي .

-وهل أستطيع نسيانك؟أنا لم أنسَ كلامك أو نصائحك لي أبدا،وكنت دائما أرى صورتك أمامي ، أنسى كل الناس إلا أنت ، وأبيع كل الناس ، إلا أنت .

-صح ، كلامك كله صح .

قالها بسخرية،وهو ينظر إلى صندوق الشاي،ثم ضحك ، وسكت.

-أتسخر منِّي؟ ستثبت لك الأيام صحة كلامي ومقدار حبي لك.

- معك حق ، حمدا لله على سلامتك ، أنا سأتركك لترتاح

- لا تغيب عني ، أنا محتاجك جدا في الأيام المقبلة

-حاضر

فراق ، وانتحار

قطع صمتهم رنين الهاتف ، رفع محمود السماعة ، وقال :

-السلام عليكم من معي؟

-أنا هيثم .

- كيف حالك يا هيثم ؟

- الله يخرب بيتك يا محمود ، أنا في مصيبة ، بسببك .

-ماذا حدث؟

-لقد سمعت كل كلامك،وانسحبت من حياتها تدريجيا،كما اتفقنا،ثم فسخت الخطبة،وتركت لها كل شيء الشبكة و الهدايا .

-إذن ، ما المشكلة؟

-خطيبتي ترجتني أن أستمر معها،ولا أتركها لكني رفضت ، كما نصحتني وثبت على موقفي وفسخت الخطبة ، ولما يئست مني شربت سم فئران .

- انتحرت ياللمصيبة! ، وهل ماتت؟

-الحمد لله أنقذوها في آخر لحظة .

-الحمد لله .

-أنا في مصيبة لا أعرف كيف أتصرف؟أهلها اتهموني بأنني السبب،ودعوا عليَّ،وسبُّوني أمام الجميع في شارعنا،لقد فضحت بسببك .

-وما ذنبي ، لقد حاولت أن أقنعك بالإستمرار معها ، وقلت لك افتح قلبك لها وانظر لمحاسنها وتغاضى عن ما تكرهه فيها ، لكنك كنت رافضًا ، وكنت تتمنَّى أن تفشل الخطبة، لكنك كنت تريد أن يكون السبب منها ، لكيلا تشعر بالذنب، ثم إني لم أكن أعرف أنها ضعيفة الإيمان هكذا ، تنتحر وتدخل النار من أجل فسخ خطبة !.

-إنها تحبني بجنون ، لا أعرف ماذا أفعل؟

-ملعون هذا الحب الذي يَدخل بسببه الشخص النَّار،ثمَّ إني لم أكن أعرف أنك مُحَطِّم قلوب العذارى هكذا ، يا ليتني أجد من تخلص لي فقط ، وأحبها على الفور .

- ليس وقته سخريتك ، أريد نصيحتك .

-هل عندك استعداد أن تعود إليها، وتكمل زواجك منها ؟

-لا ، لكني أشعر بالذنب نحوها .

-إنك حيرتني ، مرة تقول إنك لا تطيقها ، ومرة تقول إنها تصعب عليك،ارسُ على بر، تردُّدك هو السبب فيما أنت فيه، هل ستكون سعيدًا معها ، ولن تظلمها إذا تزوجتها ؟

-لا .

-إذن اثبت على موقفك،ولا يهمك أحد،وإذا سألك أحد ، قل الزواج قسمة ونصيب،وهي بمرور الوقت ستكرهك وستنساك .

-وأهلي ماذا أقول لهم ؟ إنهم لا يكلموني،ويعتبروني ظالمًا وأقسموا أنهم لن يتدخلوا في أي زيجة لي .

-اثبت على موقفك،ولا تضعف واتصل بي من وقت لآخر إذا حدث أيُّ شيء جديد .

-آسف ؛ لأني انفعلت عليك .

-لا يهمُّك ، فأنا معتادٌ على ذلك من أمثالك .

ضحك هيثم ، وقال :

-ربنا يخليك لنا يا كبير .

-أنت أخي الصَّغير .

-شكرا على نُصْحِك لي ، سلام .

-مع السَّلامة ، اتصل بي في أيِّ وقت ، سواء في العمل أو في البيت .

وضع سماعة الهاتف،فوجد نرمين تنظر إليه بغضب بينما عماد ينظر اليه نظرة بها رغبة في معرفة ما حدث ، فقال لهم:

-لماذا تنظرون إليَّ هكذا ؟

قالت نرمين بغضب :

- لم أكن أتخيل أنك متحجرُ القلب، هكذا يا أستاذ محمود .

-أنا !.

-نعم أنت ، تنصحه بتركها بعد كل الذي فعلته من أجله ، لماذا كلّ هذه القسوة معها،هل ذنبها أنها أحبَّته ،وهو لم يحبها؟ لماذا خطبها من البداية ، وهو يعرف أنه لا يحبها ؟

-لقد قلت له كل هذا الكلام،ثم إن أي خطبة معرضة للفسخ،وهذا أفضل من أن يتزوجها،ثم يطلقها بعد ذلك أو يتزوجها ويكون كارهًا لها ، ويسيء معاملتها .

-وهل مشاعر الناس رخيصة لهذه الدرجة !؟

-نرمين لا تحمليني ذنبها،الزواج قسمة ونصيب،وغدا ستنساه وربنا سيعوضها خيرًا منه .

-أراك تتكلم بهدوء شديد ، ولا يبدو عليك التأثر هل أنت معي يا عماد ؟

-أستاذ محمود نظرته أبعد منا ، هو أكبر منا وعنده خبرة في الحياة أكثر منا ، وأكيد عنده مبرر ، لموقفه هذا .

-كلام عماد صح،فسخ خطبتها الآن أكرم لها من الطلاق،أو العيش مع إنسان لا يحبها،إن ربنا سيعوضها بمن يحبها ويقدر مشاعرها ، وساعتها ستشكر الله كثيرًا على فسخ

خطبتها من هيثم،أنا أنقذها من ذلّ الحب من طرف واحد ذل العطاء بلا شكر أو حمد ، ذل الإهانة والشعور بالنفور مِن من نحبه،أنا أكثر واحد أشعر بما تشعره، وأقدر جيدًا ما تعانيه من ألم وشعور بالمهانة ، وأعرف أيضًا شعورها،حينما يعوضها الله بعريس يحبُّها ويقدُّرها .

-وما الذي يجعلك متأكدًا من هذا الشعور؟

- لقد جربت كلّ هذه المشاعر من قبل يا نرمين ، الشعور بالنفور ، والشعور بالحب ، الشعور بالمهانة والشعور بالاحترام. الشعور بالتعاسة والشعور بالسعادة ، وشكرت الله على الألم الذي شعرته حينما كنت أحب من طرف واحد ؟

-شكرته على الألم ؟

-لأن شعوري بطعم الألم جعلني أعرف معنى وقيمة الراحة والحبِّ والسعادة ، ومن تجربتي الفاشلة عرفت كيف أفرق بين من تحبني ومن تدَّعي بأنها تحبني ؟

-ومتى شعرت بذلك ؟

- حينما كنت خاطبًا أول مرة .

-ماذا حدث؟

نظر إليها وابتسم ، ثم أخرج سواكه من جيبه ، ووضعه في فمه كأنه سيجار ونظر إلى السماء، وقال بنبرة بها مسحة حزن:

وطني ليس للبيع

منذ أن عاد حُسين من الخارج ، وحاله قد تغير إلى الأسوء من وجهة نظر صديقه محمود الذي قال له في إحدى الزيارت ، وكانت تقريبًا الأخيرة :

- أشعر أني قاعد في بيت السفير الأمريكي،أ- الإنجليزي .

ضحك ، وقال :

-لماذا؟

-أرى علم انجلترا مُرفرف على مكتبك،والكوب الذي تشرب فيه مرسوم عليه علم انجلترا،ومعظم الكتب التي في مكتبتك كتبًا أجنبية ، وأصبحت أراك بصعوبة ، فكلّما سألت عنك يقولون إنك في حفلة في إحدى السفارات الأجنبية

- الحمد لله،لقد أصبحت ضيفًا دائمًا في حفلات السفارات الأجنبية .

-ولماذا تحمد الله على ذلك ؟

-أنت تعرف أني أحب النظافة،والرقي والتقدم،وقد وجدت كل ما أبحث عنه عندهم ، وأتمنى أن أعمل معهم ، أو أحصل على جنسيتهم ، هذا حلمي الذي أحلمه .

-هل تعرف أنك تغيرت إلى الأسوء؟

-أنا ! ..... قالها في دهشة

-للأسف نعم،لقد تغيرت معاملتك مع الجميع،قريتنا لم تعد تزورها،إلا نادرًا وإن حضرت من أجل مناسبة تحضرها وتمشي بسرعة؛متعللًا بالانشغال حتى واجب العزاء تحضره على مضض،وإن حضرت تمشي بعد أول ربع،الكل لاحظ أنك تتعالى عليهم حتى أقرب الناس إليك ، أبناء عمومتك .

-هل أنا سيءٌ لهذه الدرجة ، كما تراني؟

-نعم. هل تنكر أنك تغسل وجهك ويديك بالمطهر،بعد أن تسلّم عليهم .

-نعم من أجل الوقاية من الأمراض المعدية،أنت تعرف أني أقرف من أقلّ شيء .

-إنهم أهلك ، وليسو كلابًا جربى ، ومادمت تراهم هكذا ، فلماذا تزورهم؟

-مضطر من أجل الوجاهة الاجتماعية ، الكل يتباهى بعائلته ، فلابد أن يكون لي عائلة أتباهى بها أمام الناس ، وخصوصًا أمام أصدقائي الأجانب ، فهم يحبون الريف المصري الذي يقرؤون عنه في الكتب ، فأحكي لهم عنه وعن عائلتي هل تعرف أنهم يريدون زيارة القرية ؟ ؛ليتعرفوا على الحياة هنا .

-تقصد ؛ ليضحكوا على أهلنا ويتظاهروا أمامهم بالانبهار والتواضع وهم في باطنهم يحتقروهم،مشكلتنا أننا نضيع كرامتنا من أجل إسعادهم وإرضائهم ، ثم لا نحصل على أيٍّ مقابل .

-أنت هكذا تكره كل شيء أجنبي ، وتحب كلّ ما هو قذر ومتخلف هنا .

-ما دمت ترى الحياة هنا بهذه القذارة ، فلماذا تعيش فيها ؟

-مضطر حتى تأتيني الفرصة،وأهرب من هنا،ولن تجدني بعد ذلك هنا أبدًا.

-أخشى أن تبيع كلّ شيء من أجلهم ، ثم لا تصل إلى أي شيء تتمناه ، أو أخشي عليك أن تصل لما تتمنّاه بعد أن تكون فقدت كلّ قيمة كنت تتمسك بها .

-دعك من كلام الكتب التي تقرؤها ، ولا تخف عليّ ، أنا عارف طريقي صح وسأصل لما أتمناه .

بعد هذه الزيارة أصبحت علاقه محمود وحسين على الهامش، فبعد أن كانوا أصدقاء أصبحوا معارف ، وبعد زيارتهم لبعض باستمرار،أصبحوا يتقابلون في المناسبات كالزملاء القدامى،ويتباكون على الأيام الماضية ويتواعدون على الزيارات في الأيام المقبلة .

استمرت علاقتهم على هذا الوضع،حتى حدث شيئان جعلوا محمود يقطع صلته بحسين نهائيا

١-الشيء الأول هو..

تأكُد محمود أن حسين أسقطه من حساباته،ووضعه في سله المهملات مع الآخرين،فقد تأكد أنه لايريد أن يكلّمه ويتهرب

منه،فقد حدثت مشكلة لأحد أصدقائه مع المرور، وأراد محمود أن يساعده ، فقام بالاتصال بحسين ليساعده في استرجاع رخصة القيادة لصديقه،فلم يرد عليه من هاتفه المحمول ولا من هاتف منزله،فظن أنه لا يوجد أحد في البيت فعاود الاتصال بعد ساعة ، فلم يرد أحد ، فقال بغضب :

-أتتهرب منِّي،ولا تريد أن تكلمني،أنا غير مصدِّق،لابد أن أتأكد .

قام بالاتصال على عز،وأملاه رقم هاتفه المنزلي،وطلب منه أن يتصل بعد ربع ساعة مدَّعيًا أنه يريد شخصًا آخر،وأنه أخطأ في العنوان.

مرت الربع ساعة عليه،وكأنها دهر،واتصل عليه عز وأخبره بأن شخصًا رد عليه،فشكره ووضع السماعة،وقال بحزن ممزوج بغضب مكتوم :

-شكرا صديقي العزيز،لقد بِعتني كما بِعت كلّ شيء جميل،لم تأتِ بجديد ، إننا نتخلص من السلم الذي نصعد عليه، بعد أن نصل إلى آخر درجة فيه ، لكيلا يصعد وراءنا أحد .

٢-الشيء الثاني هو..

حينما ذهب إلى قريته في أحد الأيام؛ليزور أم عفيفي وليعطيها مالًا وخطابًا من عفيفي،وفي أثناء مروره في الشارع

الرئيسي الذي يقع فيه دوار العائلة،وجد شيئًا غريبًا أمام الدوار فقد وجد سيارتين شرطة أمام الدوَّار،وسيارة فارهة سوداء اللون مكتوب على لوحة أرقامها هيئة سياسية،فشعر بالقلق والخوف،فقرر أن يدخل ليعرف ماذا حدث.

دخل فوجد الحاج فتحي والعمدة وبقية رجال العائلة، قاعدين في فناء الدوَّار على الأرائك التي فرشت بمفارش نظيفة في أدب شديد،وبجوارهم وفدٌ أجنبي مكون من ثلاث شباب وفتاتين ورجل زنجي قاعدين في سعادة شديدة،وبجوارهم ضابطين برتبتي عميد وعقيد،ومجموعة من أمناء الشرطة وبينهم حسين قاعد في زهو وسعادة،ويقوم بمهمة الترجمة للوفد ولبقية الجالسين.

مال على أحد أقاربه ، وقال في همس :

-من هؤلاء الأجانب؟

أجاب في زهو وسعادة :

-إنهم وفد من السفارة الأمريكية يزورون قريتنا ؛ ليتعرفوا على مشاكلنا ليحلوها ويريدون أن يستمتعوا بالجو هنا ويستنشقوا الهواء النقي ، ويستمتعوا بالشمس التي لا يروها في بلادهم ، ويأكلوا الفطير بالجبنة القديمة أوبالعسل .

شعر بالغيظ والضيق،ومما زاد من غضبه أنه وجد الجميع بما فيهم الضباط يتكلمون بأدب شديد،وبرقة مصطنعة وينحنون باحترام وبإجلال لهم .

قام وألقى السَّلام عليهم وخرج فلم يرد ، و لم يهتم به أحد و لم يدعوه أحد للمكوث،فقد كانوا كلهم مشدودين للأجانب ، و كأنهم مسحورون .

وصل لبيت عفيفي وطرق الباب،ففتحوا له وأعطاهم حاجات عفيفي،وهو واقف أمام الباب،ورفض أن يدخل ؛ لأنه مستعجل.

عاد إلى الدوَّار وقعد ليشاهد باقي فصول المسرحية ، وأخذ ينظر للجميع في غيظ مكتوم.

سمع صوت امرأة عمه يأتي من الداخل عاليًا وبنبرة يكسوها الفرح والفخر :

-الفطير استوى والغداء جاهز .

ترجم حسين للأجانب ، فتظاهروا بالانبهار وبدى عليهم السرور والسعادة ، وقالوا :

-نحن من زمن طويل نتمنى هذه الأكلة المصرية اللذيذة.

قام الحاج فتحي بدعوتهم للدخول على طريقة الزعماء، فدخلوا إلى داخل البيت هم ورجال الشرطة والعمدة،أما باقي أفراد العائلة فتعلَّلوا بأنهم غير جائعين،وانصرفوا و لم يتبقَ غير محمود ، فدعاه الحاج فتحي للدخول،فتعلَّل بأنه مستعجل ، فلم

يكرر عليه الدعوة ، ودخل ليرحب بالضيوف تاركه مع حسين الذي أخَّر نفسه في الدخول ؛ ليسلِّم عليه .

قام محمود بجذبه من ذراعه،وتنحَّى به جانبًا بعيدًا عن الباب، وقال :

-من هؤلاء؟

-أصدقائي، ويعملون في السفارة الأمريكية .

-ولماذا جاؤوا ؟

-يريدون أن يتعرَّفوا على أحوال الناس عن قرب .

-وما شأنهم بالناس هنا ، إنهم أجانب وليس لهم شأن بنا .

-إن السفير الأمريكي يذهب للصعيد ، ويتكلم مع الناس ، ليعرف مشاكلهم ، وليوجه أموال المعونة لحلِّها .

-كاذب،أعرفك جيدًا لقد جئت بهم،لتتباهى بهم أمام الناس هنا، ولتستعلي عليهم بعد ذلك .

-ليس وقته هذا الكلام ، الناس سيتضايقون، لقد تأخرت عليهم

- هل أحضرت المطهر معك ؛ لتطهر يدك أنت والأجانب من الجربانين الذين تستحلون طعامهم،وأنتم تحتقروهم في نفس الوقت،هل أنت سعيد الآن،وأنت ترى كبار القرية مستذلون أمامهم وأمامك ، لقد بعت نفسك لهم منذ زمن والآن تريد أن

تبيع أهل قريتي لهم،وطني ليس للبيع ولا أهل قريتي للبيع أو للفرجة.

-أرجوك لا داعي لهذا الكلام ، أنا لست خائن ولا عميل

-إذن ماذا تسمي ما تفعله الآن؟

-ليس وقته ما تقوله ، سنتكلم بعد ذلك عن إذنك .

تركه ودخل فوجد نفسه وحيدًا في فناء الدوار،قعد على إحدى الأرائك يفكر، فقطع تفكيره دخول كلب بلدي أجرب اللون من البوابة ، دخل ليبحث عن طعام يأكله .

نظر إليه ، وبصق على الأرض ثم قام وخرج ، وأخذ يسبُّ الغرب ، وكل من يحبهم وقرر أن يقطع علاقته بحسين نهائيًا .

وحدة وضياع ، ورغبة في الفناء

(١)

أصبح يعاني من وحدة شديدة،وأصبحت حياته مقصورة على الذهاب إلى العمل،والعودة منه والجلوس في البيت، وأحيانا يتمشى في وسط البلد مع عز صديقه وزميله في العمل، ويقعد معه في أحد المطاعم في وسط البلد،ثمّ يعود بعد ذلك إلى بيته،ولا يخرج منه إلا في صباح اليوم التالي ليذهب إلى عمله.

شعرت أمه بما يعانيه ، فنصحته بالذهاب إلى قريته والجلوس مع أقاربه ، فرفض وتعلّل بأن من في سنه قد تزوج ، وانشغل في حياته وأنه لا يحب كلامهم وتفكيرهم ، فنصحته بالذهاب إلى بيت شقيقته -التي نادرا ما يزورها - فرفض ، وقال :

-مللت من كثرة شكواها ، وادعائها الفقر وسوء الحال هي وكل من أزوره.

تركته وهي تدعو له بالهداية وسعة الرزق ، وخشيت أن تعرض عليه الزواج فيثور عليها ؛ لأنه يرفض أن يتكلّم في هذا الموضوع ويردِّد دائمًا إذا فاتحته في هذا الأمر .

-كفاني ما حدث،أنا لن أتزوج زواج صالونات،حينما أجد من أشعر أنها ستسعدني،وتملأ عيني سأتزوجها،أنا لن أتزوج من أجل الزواج فقط .

-لكنك كبرت ، والعمر يجري ، ولابد أن تتزوج ؛ لتنجب ولدًا ، أو بنتًا لتربِّيهم وتفرح بهم .

-لا أريد أبناءً ، ولا بناتًا .

-لا تقل هذا الكلام ،لكيلا يعاقبك اللهُ ويحرمك من الذرية.

-وماذا سأستفيد من الذرية غير حمل الهمِّ والتعب ، كفاني ما أعانيه من يأس ، وحزن وهزيمة .

-هذه سنَّة الحياة .

-أنا لا أريد هذه السنة،أريد أن أعيش فقط،وأستمتع بحياتي مع إنسانة أحبُّها.

-تقصد لا تريد أن تتحمَّل مسئولية أحد ، تريد أن تكون أنانيًا.

-أنا لا أريد أن أنجب ، ثم أُعَذّب من أنجبه .

-لماذا ؟

-لأني سآتي به إلى دنيا مليئة بالشر والقذارة .

-لو كلُّ الناس فكَّرت مثلك ، لانقرض الجنس البشري .

-ياليته انقرض ، كنا ارتحنا من هذا العذاب والذل الذي نعيشه كلَّ يوم .

أصبح شديد التشاؤم واليأس،ولم يعد يفكر في شيء غير أكله وشربه وذهابه وعودته من العمل ، وقد لاحظ زملاؤه أنه

لم يعد يضحك معهم مثل زمان،وإذا ضحك تجد مسحة حزن في عينيه ، وساءت علاقته بنرمين وأصبح لا يحدثها إلا في العمل فقط بعد أن نصحها ورفضت نصيحته ، فقد لا حظ انها منذ خطبتها تفعل أشياءً لا يوافق عليها ، تركب مع خطيبها سيارته في المجىء والعودة للبيت،وتتغيب عن العمل بدون سبب مقنع فنصحها وقال :

-إنَّ هذا لا يصح ،إنه مجرد خطيبك لا تفعلى مثل التي تفرِّط في مشاعرها وأخلاقها مع خطيبها ، ثم تندم بعد ذلك ، فقد تُفسخ الخطبة في أى وقت والناس تلاحظ كلَّ شىء ، وسيصبح شكلك سيئًا أمام الناس،وسيتكلمون عنك بالسوء. ضعى احتمالًا ولو واحد في المليون،أن الخطبة ستُفسخ،أنا أنصحك لأنى أخاف عليك،الشباب يتردَّد ألف مرة قبل أن يخطب فتاة خُطبت من قبل،ولو وقعت مشكلة وفُسِخت الخطبة، فلن تتزوجى بعد ذلك إلا بصعوبة .

-لماذا؟

-لأن الشاب المعروض عليه عروس خُطبت من قبل ، يسأل نفسه ويقول ما أدرانى ماذا فعلت مع خطيبها ، وسيسىء الظن بها ، بسبب ما يراه ويسمعه عن المخطوبين ، لقد شوهنا الحلال وجعلناه حرامًا .

-هؤلاء متخلفون،وأنا لن أوافق على الخِطبة لشاب يفكر بهذا الأسلوب .

-هذا تفكير معظم الشباب،وقد تتمنّي أن تتزوجى بواحد مثلهم إذا تأخرتى في الزواج ، وخفتى من العنوسة .

-حاضر ، سأسمع كلامك .

قالت له ذلك،لكنّها استمرت في الركوب معه،وتعللت بأن أبيها موافق ، فسكت وكتم غيظه و لم يعد يتكلم معها في هذا الموضوع حتى بعد أن لاحظ أنها تتغيب عن العمل في نفس اليوم الذى يتغيب عنه حسام ، وقد قال له عز ذات مرة :

-إنه سمع علياء تقول في الهاتف إن نرمين في البنك ، وأنها ستتصل بك حينما تعود من البنك وهى في الأصل غائبة هى وحسام.

غضب بشدة ، ولكنَّه لم يتكلم،حتى حدث شيءٌ جعله يثور عليها ، فقد كان في مأمورية في الخارج وعاد للشركة ، فوجد عماد قاعد مع مهندسى المبيعات ويتكلم معهم ، فألقى السَّلام ودخل مكتبه ، فوجد حسام قاعد على كرسي جنبها ، وكان يقبِّل كفَّيها ، فغضب ، وقال لحسام :

-الحسابات ممنوع أن يدخلها أحد غير المحاسبين ، وآخر مرة أراك هنا ، هنا مكان عمل وليس غرفة نوم ، تفضل من غير مطرود .

خرج من مكتبه غاضبًا ، ودخل عماد بعده ، فوبَّخه محمود قائلا:

-لماذا تركت مكتبك ، ألم أكلفك بشغل؟ بمجرد أن أخرج تخرج وتترك العمل ، وتتكلم مع الموظفين.

التفت لنرمين ، وقال :

-آخر مرة أجد حسام هنا ، وحذارِ أن تغيبى إلا بإذن منى ، لقد حذّرتُكِ من قبل ولكنك مستمرة في عنادك ، لا تجعليني أفعل أشياءً لا تتوقعيها منّى .

منذ هذه الواقعة أصبحت علاقتهم مقتصرة على التكلم في العمل فقط،وانضم حسام لهانى الذى مازال لا يكلّمه، وأصبحا أعداءه اللدودين .

مرَّت الأيام بسرعة ، ووجد نفسه في الأسبوع الأخير من شعبان ، والناس تستعد لقدوم رمضان في المحلات وفي البيوت .

استمع لخطبة الجمعة ، وكانت قبل رمضان بيومين ، وكان الخطيب يتكلم عن فضل رمضان وبركة رمضان ، وأخذ يحثُّ الناس على الالتزام في هذا الشهر ، وعدم مشاهدة التلفاز في هذا الشهر ، مبررًا ذلك بقوله :

-إن رمضان لا يأتي في السنة إلا مرة واحدة ، ولا نضمن أن نعيش للعام القادم حتى نعوض ما يفوتنا في هذا الشهر، فعلينا أن نطيع الله ورسوله،ونغتنم الفرصة،ونترك المسلسلات التي لا تحترم حرمة هذا الشهر ولا غيره ، ونتفرغ للعبادة ، هم

فاسدون ويقبضون ثمن فسادهم شُهرة ومال،أما نحن فماذا نقبض ثمن اتباعهم غير ضياع الحسنات،وكثرة السيئات؟. استغلوا الوقت في الصلاة،أو في قراءة القرآن أو في صلة الأرحام ، إنها فرصة ، الكل موجود في وقت واحد ، فعليكم بصلة الأرحام وتصفية القلوب من الغلّ والحقد والضغينة ؛ ليبارك الله لكم في حياتكم .

تأثّر بخطبة الشيخ،وأقسم في سرّه بأنه لن يترك فرضًا في المسجد،وسيصلّي التراويح ، ولن يشاهد التلفاز وسيصل رحمه، وسيختم القرءان أكثر من مرة.

رجع إلى البيت،وقعد أمام التلفاز يستمع لحديث الشيخ الشعراوي على إحدى القنوات الفضائية الخاصّة رافضًا أن يشاهد البرنامج الديني الذي بثته الحكومة مكانه ؛ لتمحو أثر هذا الشيخ من قلوب مستمعيه ، بحجة أنهم يطورون البرامج ويسايرون العصر،ويسْعوا لمسايرة متطلبات العصر،لكنه كان حريصًا على مشاهدته بعد الصلاة منذ أن كان صغيرا،وسعد جدًا حينما وجده على إحدى القنوات الفضائية ، فأصبح يتابعه باستمرار..سمع طرقًا على الباب،فقام وفتح لأن أخيه لم يعد من الخارج، فوجد طفلًا يطلب منه خمسة جنيهات،من أجل المساهمة فى شراء زينة رمضان وشراء فانوس يُعلق في منتصف الشارع ، تركه ودخل إلى غرفته وأخرج من جيبه عشرة جنيهات ، وأعطاهم له وهو سعيد .

(٢)

"كل عام وأنتم بخير،غدًا أول أيام شهر رمضان المبارك، أعاده الله عليكم باليمن والخير والبركات"

بمجرَّد أن سمع هذه الجملة في التلفاز،نزل إلى الشارع الرئيسي في قليوب ، ووقف أمام مسجد سيدي عواض يتأمله، وهو مزين بالمصابيح الملوَّنة،ثمَّ مشى في الشوارع،وأخذ ينظر لمحلات الياميش،الخضار،الفاكهة،الفول،الخبز وشوادر بيع المخللات،والكنافة البلدي والافرنجي ، ثمَّ سمع أغنية عبد المطلب الشهيره"رمضان جانا " فشعر بالحنين لأيام زمان،أيام الطفولة ، حينما كان يذهب ويشتري الزبادي والخيار والفول،ويعلق الزِّينه مع أصحابه،ويشتري الفانوس وينيره ويترل به في الشارع،ويسهر مع أصدقائه حتى السحور ويصوم ويتباهى، بأنه صائم أمام أصحابه في الشارع،ويشتري أكياس العرق سوس والتمر هندي،وينتظر بفارغ الصبر أذان المغرب ، ليشرب فقط.

شعر برغبة شديدة في البكاء،وتذكر أباه،وعفيفي، وحسين، وخطيبته الأولى التي حضرت معه رمضان،وتذكر سخريتها منه حينما اشترى لها فانوسًا، وقدمه لها يوم الرؤية ، وقالت :

- لا أهتمُّ بهذه الأشياء التافهة ، فتفكيري أكبر من هذه الأشياء .

-لكن كل العرائس تطلب الفانوس وتفرح به .

-قلت لك ألف مرة ، لا تقارنِّ بأحد ، فأنا مختلفة عنهم .

بصق على الأرض ، وقال في سرِّه ، وهو يكمل سيره :

-صحيح أنت مختلفة عن جميع العرائس ، أنت الوحيدة التي لا يعجبك أي شيء ، غير الضرب بالنِّعال ، كما كنت تقولين عن نفسك .

بدأ الصيام ، واستمر على مقاطعته للتلفاز لمده عشرة أيام ، ثم ضعف وتعلّل بالملل الذي يعانيه من طول الوقت بعد صلاة التراويح،فأخذ يتابع المسلسلات والبرامج التي كانت كثيرة جدًا، ضاربًا بعرض الحائط قَسَمه الذي أقسمه قبل رمضان ، واستمرَّ يصلّي صلاة التراويح لمدة أسبوعين ، ثم تكاسل وتعلل بالتعب بعد الفطار .

أما زيارته للأقارب،فزارهم مرَّتي ،وزار أخته وأفطر معها على مضض،ورفض الخروج من البيت بعد صلاة التراويح مع أحد ، وختم القرءان مرة واحدة ، بالكاد .

جاء العيد وشعر [illegible] أي[illegible]ا بنفس الشّعور، الشُّعور بالحنين للماضي والغربة والرف[illegible] [illegible]حاضر ، والرغبة في البكاء على ما

فات ، ورفض أن يشتري ملابس جديدة للعيد ، ولم يذهب لصلاة العيد،بحجّة أنه يريد أن ينام وذهب لبيت أخته أول يوم بعد صلاة المغرب،وعيَّد عليها بضغط من أمِّه التي نهرته وغضبت منه،فذهب ــوهو يشعر بالضِّيقــ ،ثمَّ عاد وقعد في البيت ، ولم يخرج طوال مدة إجازة العيد .

مرَّت الأيام بسرعة بعد العيد ، ودخل الشتاء،وأصبح جلوسه في البيت كثيرًا وقلت أخبار عفيفي ، ولم يعد يتابع أخبار الحرب في العراق بعد أن أصبحت أخبارها مكررة ، ولا جديد فيها ، وفقدت اهتمام وجذب الناس.

استمر الوضع على ما هو عليه من رتابة وملل ، وبلا جديد حتى جاء يوم القبض عل صدَّام حسين ؛ ليجعله يهتم بشأن العراق من جديد ، وليضيف لأحزانه وانكساراته حزنًا وهمًا جديدًا .

صفحة جديدة من دفتر الانكسارات

أخيرًا ظهر صدَّام على الشاشة بعد تسعة أشهر من الحرب على العراق بصورة مزرية،وتبعث على الغيظ والحقد على الأمريكان والانجليز وعلى جميع الغزاة،فقد ظهر بشكل قبيح ومُنَفِّر،فوجهه كان أشبه بوجه العفريت الذى يُجَسِّدُوه فى الأفلام،شعره غير مهذَّب،ولحيتة غير مهذبة،وعيناه زائغتان وهيئته تشعرك بالانكسار والعار،وكان وقع خبر القبض عليه كالصاعقة التى حلَّت على الجميع وقد اختلفت ردود أفعال الناس إزاء القبض عليه من شخص لآخر،ومن طائفة لأخرى.

ففى العراق اختلفت ردود الأفعال من طائفة لأخرى، فالشيعة والأكراد فرحوا جدًا وأطلقوا أعيرة نارية فى الجو ابتهاجًا وفرحًا،واعتبروا خبر القبض عليه مناسبة قومية وعيد.

أما السُّنة فبعضهم لم يصدق واعتبرها خدعة من أمريكا، لتثنيهم عن المقاومة،والبعض الآخر غضب بشدة ، وشعر بالعار والخزي ، وتمنى ألا يكون صدَّام ويكون شبيهًا له

وأما المجاهدون وكان من بينهم عفيفى ، فقد تمنَّوا لو قتلوه بأيديهم ولا يقبض عليه بهذه الصورة .

وفى مصر كانت ردود الأفعال مختلفة،مثلما حدث فى العراق فقليل من العامة من فرح فيه،والكثير منهم حزنوا

واغتمُّوا،وأخذوا يسبُّون أمريكا وانجلترا وفى الحكومة وفى العرب،وأخذوا يُعَدِّدُون مناقبه ويترحَّمون على أيامه وعلى بطولاته السابقة،وأخذوا يبررون له أخطاءه ويلتمسون له الأعذار مثلما يفعلون مع عبد الناصر إذا جاءت سيرته ، لكن الحاج فتحي كان له رد فعل مختلف عنهم ، فقد قال حينما رآه على شاشة التلفاز بهذه الصورة :

- هذه هى النتيجة الطبيعية للعند والكبر،لو كان سمع كلام الرئيس مبارك لما حدث له ما حدث ، لكنه كان متكبِّرًا ويظن نفسه بطلًا وزعيمًا ، ثم ضحك وقال لابنه -الذى تعجَّب من موقفه وكلامه-:

-إنك لا تعرف ماذا فعل بنا أيام السادات ، لقد جعل جميع الدول العربية تقاطعنا وعزلنا عن جميع الدول العربية ، ونصَّب نفسه زعيمًا على الأمة العربية،ووضع سلاحة على طاولة الاجتماعات ، وهدَّد الجميع إذا ساعدوا مصر،أنا أكرهه لأنه كان يكره السادات الذى أحبُّه ، لقد نسي أن من يدوس على مصر لا يكسب ولا يربح،نحن فراعنة نبتسم،ثم ننتقم ونشمت.

-لكنَّ الناس فى مصر تحبه .

-لأنهم لا يعرفون حقيقته ولا تاريخه ، الناس تحب كل من يسبُّ ويعادى أمريكا وإسرائيل،حتى لو ضيَّعهم وجعلهم يُهزموا مثل عبد الناصر .

هذا هو ردُّ فعل الحاج فتحي،بينما كان ردُّ فعل الشيخ جلال مختلفًا تمامًا عنه ، فقد قال لمستمعي درسه قبل صلاة العشاء :

-اللهمَّ لا شماته،حذارِ من الشماته،إنها ليست من أخلاق المسلمين،لكن عليكم أنَ تأخذوا عبرة وعظة منه،المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين،لو كان مؤمنًا لاتعظ ممَّا حدث لعبد الناصر ، حينما آمن بالاشتراكية ودعاوى العروبة ، وظن أنه سينتصر بهم واستبدل الأخ بالرفيق ، ونشر فكر الإلحاد بيننا ، وفى معظم الدول العربية ، وظن أنه سيصبح بطلًا ، ونسى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، حينما استلم مفاتيح القدس من النصارى،"كنا أذلَّاء فأعزنا الله بالإسلام،فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله" لا بدَ أن يتعلم الناس من أخطاء غيرهم، لو كان على حق لَمَا قُبِضَ عليه بهذا الشكل ، لو كان حقًا مؤمنًا بالله ، لحارب فى صفوف المقاومة واستشهد فى المعركة،لكنه كان حريصًا على الدنيا ويخاف الموت ؛ لأنه غير مؤمن بالجهاد،ولا بالاستشهاد.هو مؤمنٌ فقط بالشِّعارت الجوفاء ، أيُّ حاكم لا يعتمد على شريعة الله ، سيُهزم ولو بعد حين ، ومن يتغطى بالأمريكان أو أي أجنبي فهو عُريان .

تبقى اثنان كان ردُّ فعلهم مختلفًا أيضًا،حسين- الذى خرج ليقابل أصدقاءه الأجانب فى إحدى العوَّامات على شاطىء النيل فى حى الزمالك،ليحتفل معهم بخبر القبض على الدِكتاترر

الظالم من وجهة نظرهم ، بالرغم أنه مغتاظٌ من ذلك ، لكنه لا يقدر على إظهار ذلك لهم وذهب ليحتفل معهم- ومحمود الذى تلقّى خبر القبض عليه بدهشة وعدم تصديق ،فقد كان في البيت ولم يذهب إلى العمل؛لأنه كان يشعر ببعض التعب وفضّل البقاء فى البيت،وكان ممددًا على سريره ، فسمع صوت رنين هاتفه ، فضغط على زر الفتح وكان المتحدث صديقه عز الذى قال بدون مقدمات :

-أبو داوود،افتح بسرعة التلفاز وشاهد قناة الجزيرة،صدّام قبضوا عليه .

-هل تتكلم بجد ؟

-نعم ، افتح بسرعة ، سلام .

جرى نحو حجرة أمّه وفتح التلفاز،وأخذ يبحث عن قناة الجزيرة حتى وجدها ، ووجد كلام صديقه صحيح .

قعد على السرير وهو مذهول وغير مصدق،ثم استنجد بأمه وقال:

- إلحقينى يا أمى بسرعة .

جرت نحوه ، وهى مفزوعة ، وقالت :

-ماذا حدث ؟

-صدّام قبضوا عليه .

نظرت لشاشة التلفاز ، وهي غير مصدِّقة ، وقالت :

-معقول هل هو ؟

-نعم ، إنهم واثقون لو كانوا غير واثقين ، لما أعلنوا الخبر .

-ولماذا أظهروه بهذا الشكل المهين ؟

-ليذلُّوه ، ويذلُّونا .

-لماذا لم يهرب ، أو يحارب حتى الموت ؟

قال فى يأس ممزوج بالسخرية :

-يحارب وهل هذا يحارب؟إنه يتكلم ويتفاخر فقط، والشعب هو الذى يشيل الطين ويحارب،منهم لله،لقد أضاعونا وأذلُّونا.

تركها ودخل غرفته،وغير ملابسه،وأخبر أمَّه بأنه سيخرج، وسيتأخر ورفض أن يقول لها عن مكان خروجه؛لأنه لم يعرف إلى أين هو ذاهب .

حاولت أمُّه أن تبقيه فى البيت ؛ لأنه مريض ، فقال لها :

- إن قعدت فى البيت ،سأموت من القهر،أريد أن أخرج وأتكلم مع أيِّ أحد،أريد أن أُخرج ما بداخلى.

-اذهب لحسين ، واقعد معه وتكلم وفضفض معه .

-حسين!حسين أكيد بيستعد ليحتفل مع أصدقائه الأجانب بهذا الخبر العظيم ، وهل سيترك هذه الفرصة؛ليثبت ولاءه لهم، سلام .

نزل من العمارة،وأشار لسيارة أجرة وركب وهو مذهول لا يعرف الى أين سيذهب،كل ما كان يشعر به هو الرغبة فى البكاء والصراخ .

نزل فى ميدان المؤسسة،ووقف وأسند ظهره على حائط المسجد ، وأخذ يفكر إلى أين يذهب وأخذ يسأل نفسه :

-هل أذهب إلى ميدان التحرير،وأقعد وأتكلم مع أيِّ أحد ؛ لأخرج ما بداخلي من غيظ،لا أنا أريد أن أبكي،هل أذهب إلى مسجد الحسين،وأقعد أمام المقام وأبكي؟ لا لن أقدر،سأخجل، هل أذهب الى سينما وأدخل وأشاهد أيّ فيلم كوميدي، وأضحك؟ لا لن أضحك وسأغتم ، ماذا أفعل ؟.

سمع منادي إحدى الحافلات ينادي ويقول:

-أكتوبر ، الدائرى.

قال حينما سمع اسم أكتوبر :

-وجدتها سأذهب الى مدينة ٦ أكتوبر،وسأدخل مدينة الملاهى،وسأركب كل الألعاب الخطرة؛لأخاف وأصرخ وأخرج ما بداخلى .

ركب الحافلة،ووصل قبل المغرب وقطع تذكرة ودخل المدينة،ووجدها مزدحمة بالطلبة الجامعيين وبرحلات المدارس ، نظر إليهم فى غيظ ، وقال فى سرِّه:

-تضحكون وترقصون ،ولا يهمّكم أيَّ شيء من حولكم .

وقف في صف طويل أمام لعبة قطار الموت الذى لم يركبه من قبل ؛ لرعبه الشديد منه ، وأخذ ينظر للقطار وهو يتلوَّى بسرعة رهيبة ، وشعر بالخوف لكنه لم يتراجع وانتظر حتى جاء دوره.

صعد للقطار وقعد جنْب طالبة جامعية،وتأكّد من أحزمة الأمان،بدأ القطار فى التحرك ببطء إلى أعلى،حتى وصل إلى قمة عالية،ثم نزل إلى أسفل بسرعة رهيبة شعر خلالها برعب شديد، وأخذ يصرخ بشدَّة ورفض أن يُغمض عينيه،وظل يصرخ بحرقة حتى انهمرت الدموع من عينيه،استمر القطار فى الصعود والهبوط بهذه السرعة حتَّى هدأت سرعته ، ثم توقف .

نزل من القطار ، وتوجَّه نحو لُعبة الإعصار ثم الصاروخ ، وفعل نفس الأفعال أثناء الركوب.

ظلّ فى المدينة على هذه الحالة وركب كل الألعاب الخطرة أكثر من مرة ، واستمر هكذا حتى أغلقت المدينة أبوابها ، فعاد للبيت وهو منهك ولا يقدر على الكلام وبدّل ملابسه،وألقى بنفسه على السرير ، ونام من شدة التعب والألم ورفض أن يأكل ، ولم يصلِّ المغرب ولا العشاء .

مصيبة غيرُ متوقعة لمحمود ،

وصدمة مدمرة للحاج فتحي.

(١)

مر أسبوعان على خبر القبض على صدَّام،ومحمود مازال يشعر بالضِّيق،ولم يخرج من حالة الحزن واليأس ،وفشلت أمُّه وزملاؤه في إخراجه من هذه الحالة،واستسلم لليأس والحزن، وأخذ يتابع الأخبار وهو حزين وأصبح شديد الكره لكلّ شيء أجنبي ، وتمنى أن يكون مع عفيفي في العراق.

استيقظ على رؤية يراها من حين لآخر ، وعندما تجيئه يشعر بالخوف والضِّيق ويقعد طوال اليوم يتوقع شرًا سيلحق به،أو يتذكر شيئًا قد نسي أن يفعله ، فيعصر مخه حتى يتذكر ما نساه ويفعله ، ودائمًا ما كان يردِّد أن هذه الرؤية بالرغم من أنها تضايقه ، إلا أنها تثبت له أن الله يقف معه .

بعد أن استيقظ قام بعمل طقوسٍ كلّ يوم ، ثم نزل وركب الحافلة وقعد يفكر ويسأل نفسه،لكنه لم يتوصل لنتيجة ، فقال إن شاء الله خير،وصل لعمله وقعد مع عز صديقه الذي لا يخفي عنه أي شيء ، وقال له في وقت الراحة:

-أنا مخنوق يا عز .

-لماذ؟

-لقد رأيت في منامي رؤية تأتيني من وقت لآخر،وإذا رأيتها . أشعر بالخوف والضِّيق ، وأتوقّع شرًا

-تفاءل خيرًا يا أبو داوود ، ماهي هذه الرؤية؟

-حلمت أني واقف في فناء مدرستي الثانوية ، ووجدت زملائي ومعهم كتب ويذاكرون فسألتهم ماذا تفعلون؟ فقالوا مستنكرين نذاكر لأن الامتحان بعد ساعة فتعجَّبت وقلت " أنا لم أذاكر ولا أعرف أي شيء عن هذا الامتحان"،فتركوني وانصرفوا؛ليذاكروا بينما أنا واقف أنظر اليهم في دهشة وذهول، وأردِّد، أنا سأذاكر أنا سأشتري الكتب ، لكني خائفٌ من عدم لحاقى بالامتحان ، ثم أطوف على زملائي وأتحسَّر ، ثم أقول وأنا أنظر للسماء" إن شاء الله سألحق ، يارب ساعدني" ثم استيقظت بعد ذلك .

-لا تقلق إن شاء الله خيرًا .

-هل تجد تفسيرًا لهذه الرؤية؟

-أكيد يوجد شيء ناقص في حياتك ، لم تكمله .

- عملي لا يوجد به أي تأخير .

-حياتك الشخصية هل يوجد فيها أيُّ مشاكل؟

-لا ، إنها تسير على وتيرة واحدة بدون أيِّ مشاكل .

-لا تتضايق : وتفاءل خيرًا إن شاء الله .

تركه ووقف ينظر إلى الشارع كعادته حينما يكون مهمومًا، لفت انتباهه عمارة تقع فى الناحية المقابلة لعمارتهم، ووجد فوق سطحها عمال بناء يقومون بتعلية السور ، وينقلون الحديد إلى السَّطح ، نظر إليهم و لم يُعَلِّق ، ثم دخل وقعد أمام مكتبه يعمل.

مرت ثلاث ساعات على قعوده في مكتبه ، وهو يعمل، ولا يتكلم مع أحد،قطع صمته رنين هاتفه المحمول. ضغط على زر الفتح ، فوجد المتحدث رسولًا من عند صديقه عفيفي يخبره أنه سيحضر إليه بعد ساعة .

بمجرَّد أن أغلق محمود السماعة تحرَّكت سيارة من مباحث أمن الدولة،وذهبت إلى مقرِّ الشركة،وركنت جنْب أحد الأرصفة بعيدًا عن باب العمارة،ثم نزل منها ضابط يرتدي ملابس مدنية ودخل العمارة وعرَّف نفسه لعم حسين -ضابط الأمن - وقعد جنبه ، وقال له :

- إسمعني جيدًا سيحضر شخص نريد القبض عليه ، ونحن لا نعرف اسمه ولا شكله ، أيُّ شخص لا يعمل في أيِّ شركة من الشركات الموجودة في العمارة سَلْهُ ماذا يريد ؟ ومن الذي يريد أن يقابله ، وما اسمه وما اسم الشركة التي يعمل بها ، دون أن تثير مخاوفه .

خلال الساعة جاء أشخاصٌ كثيرون غرباء وموظفون في الشركات،وفعل معهم ما أمره به الضابط،الغريب سأله، والذي يعرفه رحَّب به وناداه باسمه .

استمر الوضع هكذا لمدة ساعة ونصف،حتى حضر الضَّيف ودخل من باب العمارة ، فسأله عمٍّ حسين :

-تحت أمرك ، أيّ خدمة؟

-أريد أن أقابل الأستاذ محمود السيِّد المحاسب بالشركة العالمية للأجهزة الطبيَّة .

-أهلًا وسهلًا ، الدور التاسع .

بمجرَّد أن دخل المصعد وصعد ، قام الضابط بالاتصال بزملائه ، وأمرهم أن يستعدوا بعد خمس دقائق من الآن . نظر إليه عم حسين في دهشه ، لكنه لم يتكلم وشعر بالخوف والقلق على محمود ، فهو يعرفه منذ مجيئه إلى العمارة ، ويحبّه مثل ابنه.

دخل الضَّيف إلى مكتب محمود،وألقى السَّلام على الموجودين وقعد أمام مكتب محمود ،كأنه عميل يستفسر عن حسابه .

كما توقَّع محمود فقد وجده غَيْر الشخص الذي جاءه في المرة السابقة ، ففي كلّ مرة يأتي شخصٌ مختلف عن الشخص الذي أتى من قبل ، ويرتدي ملابس غالية الثمن ، وذات طِراز

غربي واستحالة أن يشك فيه أحد أو يظن ، ولو بنسبة واحد في المليون أنه عضو في تنظيم سياسي .

بعد أن قعد سأل محمود عن أسعار الأجهزة الطبية،ثم أعطى محمودًا مظروفين:أحدهم به أموال،والثاني به خطاب من عفيفي بالإضافة لاسطوانة حاسب آلى،ورفض أن يشرب أيَّ شيء بحجة أنه على سفر، فقبل محمود عذره وتظاهر بأنه قد تضايق، وقام ليصحبه للخارج.

بمجرَّد أن قام سمع أصواتًا عالية في الخارج،وسمع أصوات أقدام تقترب من مكتبه،فخرج من مكتبه مسرعًا؛ليرى ماذا حدث،فوجد أربعة رجال يدخلون عليه المكتب،وخلفهم صاحب الشركة والمديرة،وقال أحدهم :

-لا أحد يتحرك.مباحث أمن الدولة،أنت وهو مقبوض عليكما .

-لماذا؟ ....قالها محمود في خوف .

-هناك ستعرف،كن هادئًا،حتى تتجنَّب الفضيحة أمام الناس.

-أين مكتبك؟

-هناك.

قام الضَّابط بتفتيشه بنفسه،فلم يجد أي شيء.نظر إلى سطح المكتب فوجد الأشياء المرسلة من عفيفي ، فأخذها ثم سأل عن

جهاز الحاسب الآلي الخاص به،فأشار إليه فأمر أحد الرجال بأخذه دون الشاشة. اعترض صاحب الشركة،فقال الضابط :

-سنأخذ نسخة من البيانات المخزنة فيه،ثم نعيده إليك،لا تخف أعرف أن به بيانات وحسابات العملاء .

-أين حقيبتك ؟

-هناك جنب الحائط .

أمر أحد الرجال الآخرين فأخذها،ثم قام بوضع القيد الحديدي في يدي محمود والضيف،ثم أمرهم بالتحرك .

خرج محمود والضيف والقيود في أيديهم وسْط ذهول ودهشة جميع الموظّفين الذين تجمعوا في مدخل الشركة.نظر إليهم محمود كأنّه يودِّعهم لآخر مرة.جرى نحوه عز،فقال له محمود :

-هذه تفسير الرؤيا ، رد غيبتي وبلغ أهلي.

خرج ، ودخل المصعد وخرج من باب العمارة وسْط دهشة عمّ حسين والبوّابين والعمال وأصحاب المحلات الموجودة في الشارع والذين يعرفونه،نظر إليهم ثمّ ركب هو والضيف في سيارة "ميكروباص"،توقفت أمام العمارة،، امتلأت السيارة بالضُّباط والمخبرين .

بعد أن [illegible]حوا المضبوطات فى السيارة ، أمر الضَّابط السَّائق بالتحر[illegible] فتحركت السيارة ؛ لتذهب إلى المكان الذي كان يقرأ عنه محمود في [illegible]لكتب السياسية .

مثلما [illegible]ن الضيف لا تدل هيئته على أنه ضمن منظَّمة سياسيه ، كانت أيضًا السيارة التي ركبها محمود وضيفه ، لا تدل على أنها تتبع للشرطة ، فقد كانت سيا[illegible]ة "ميكروباص" عادية مثل باقي السيارات التي تسير في الشوار[illegible] ، وتحمل أرقامًا مَلَكية ، لكن زجاجها لونه غامق ؛ لكيلا يُظهر ما بداخلها، وبمجرَّد أن عبرت السيارة ميدان مصطفى محمود قام المخبران بوضع عُصابتين على أعين محمود والضيف ، ولم يتكلموا معهما وتركوهما يفكران في المجهول الذي سيذهبون إليه .

(٢)

في نفس اللّحظة التي دخل فيها فريق أمن الدولة شركة محمود ، ذهب فريقٌ آخر إلى بيته ، طرقوا الباب بهدوء،ثم دخلوا بعد أن فتحت لهم أمُّه،أظهر الضابط إذن التفتيش لأم محمود ، وقال :

-مباحث أمن الدولة ، هل من الممكن أن نفتش ياحاجة ؟

-خيرا يابني ؟

-خيرًا إن شاء الله ، أين غرفة ابنك محمود ؟

- لماذ؟

-أين هي من فضلك؟

أشارت إلى غرفته،فدخلها هو واثنان معه أما الباقي فأوقفوها ووقفوا معها في الصالة.

تَجَمَّع الجيران أمام عتبة الشقة،فنهرهم أحد المخبرين، فابتعدوا وتفرُّقوا في دهشة،والبعض منهم أخذ يتساءل،ماذا حدث؟ والبعض الآخر أخذ يتمتم بدعوات عليهم وعلي البلد.

قام الضابط بتفتيش الغرفة هو وجنوده قطعة قطعة،نظر إلى المكتبة،وأخذ يقرأ العناوين،لم يهتم بكتب الأدب والفن والعلوم،ولكنه توقَّف عند ركن كتب السِّياسة والدين،وقال في

سرِّه"وجدت المطلوب"،جمع كل الكتب السياسية وكانت كثيرة،وأعطاها لأحد الجنود وأمره أن يضعها في مؤخرة "البوكس"،ثمّ لفت انتباهه مجلّدات تعليم اللغة الإنجليزية طبعة جامعة أكسفورد - كان قد أهداها حسين لمحمود-،أخذها وأعطاها للجندي الثاني،وأمره أن يضعها على المقعد الخاص به.

ترك الجنديان الغرفة ونزلوا بينما استمر هو في التفتيش، فتح أدراج المكتب فوجد اسطوانات حاسب آلي فأخذها.

فتح دولاب الملابس وفتّش فيه ، فلم يجد أيَّ شيء يحتاجه، وقعت عيناه على علبة مكتوبٌ عليها كلمة "رادو" موضوعة على أحد الأرفف ففتحها فوجد فيها ساعة ذهب مرَصَّعة بالماس ماركة "رادو"،-كان قد اشتراها أبو محمود من السعودية، ورفض أن يلبسها وندر أن يهديها له يوم فرحه، ولكنه مات ، فاحتفظ بها محمود ، كما هي ولم يلبسها وأقسم أن يهديها لأخيه يوم فرحه- أُعجب الضابط بالساعة وتلفت يمينًا ويسارًا ، ثم نزعها من العلبة بسرعة ووضعها في جيبه ثم أكمل التفتيش ، أخذ يقلب في الدولاب فلم يجد أيَّ شيء يدين محمود.

استمر في التفتيش فوجد تحت الملابس الموضوعة على آخر رف علبة بها قلمين ماركة "باركر" -كان محمود قد اشتراهم وندر أن يُوَقِّع بأحدهم على وثيقة الزواج-،فأخذ العلبة

ووضعها في جيبه في هدوء ، انتهى من التفتيش وهمَّ بالخروج ، فوقعت عيناه على مصحف صغير،موضوعًا على المكتب فأخذه، وقال في سرِّه :

-ينفعني في ختم القران ، وأنا ذاهب للعمل .

أمر أمَّ محمود بوضع ملابس داخلية وخارجية في حقيبة ، فجهزهم،فأخذهم منها وأعطاهم لأحد الجنود،رافضًا أن يجيبها على تساؤلاتها الكثيرة،ثمَّ اشار إلى باقي الجنود فتبعوه على الفور،ثم ركب السيارة وركبوا بعده ، وغادر المنطقة بعد أن بصق على الأرض ، ثم أخذ يقلِّب في موسوعة اللغة ، وقال في سرِّه ، بعد أن أمر السائق بالتحرك :

-هذه الموسوعة أنا أحقُّ بها من هذا الإرهابي الذي يتعلم لغة ؛ ليتعلم صنع القنابل من على "النت" ، خطيبتي أحقُّ بها ،إنها ستعجب بها جدًا شكرًا ، جزيلًا يارب .

(٣)

بمجرَّد أن غادرت الشرطة المكان،اتصلت أم محمود بابنها في العمل،فصُدِمت بخبر القبض عليه في الشركة،فوضعت السماعة،وغيرت ملابسها بسرعة وفتحت الباب وخرجت، ولم ترد على أحد من الجيران الذين تجمعوا أمام باب الشقة، إلا بجملة واحدة :

– أقسم بالله ، لا أعرف أي شيء .

نزلت مسرعة و أشارت لسيارة وركبت،وذهبت إلى الحاج فتحي في الكفر الذي ذُهل،حينما علم منها ما حدث،وقال متظاهرًا بالهدوء :

–إن شاء الله خير،أكيد يوجد شيء غلط في الموضوع، سأذهب لعبد الرحمن بك أمين الحزب في القليوبية،وسأطلب منه المساعدة،إنه صديق شخصي لي وحبيبي،لا تقلقي إن شاء الله خيرًا،اقعدي مع زوجتي،وبعد صلاة العصر سأذهب إلى بنها، و سأستفسر منه عن كل شيء.

–ولماذا لاتذهب الآن ؟

–عبد الرحمن بك،يذهب إلى مقرِّ الأمانة بعد صلاة العصر، أما الآن فهو موجود في مصر،ولن أعثر عليه،لا تخافي إن شاء الله خيرًا .

-يسمع منك ربنا .

بعد أن تناولوا الغداء،هو وأسرته مع أمِّ محمود،شرب الشاي ثم صلَّى العصر،وارتدى ملابسه التي يرتديها في المناسبات المهمة. الجلباب البلدي ، وتحته الصديري،ولبس حذاءه اللاَّمع والذي يضعه تحت الدولاب ولا يلبسه إلا في المناسبات الهامة، وأمسك في يده اليمني مسبحة كهرمان،وغادر القرية بعد أن حيَّا القاعدين أمام البيوت أثناء سيره في الشارع،وكانت له طريقة غريبة في تحية الناس.فيفرد كفي يديه ويقلبهم ويجعلهم في مستوى واحد منخفض،ثمَّ يصعد بكفَّيه بسرعة من أسفل إلى أعلى واحد ناحية اليمين،والآخر ناحية اليسار،ثمَّ يقلب كفَّيه ويحي الناس ، وكأنه زعيم يسير في موكب عظيم.

وصل إلى مقر الأمانة في بنها،وصعد السلّم ببطء،ثم دخل إلى غرفة السكرتارية،وقال للموظَّف في أدب شديد :

- لو سمحت ، أريد أن أقابل عبد الرحمن بك .

- هل يوجد موعدٌ سابق ؟

-لا ، لكني أريده في أمر هام،أَخْبِره فقط بأنِّي الحاج فتحي منير (أمين حزب قرية كفر أبو نعيم) .

-لو عندك مشكلة ،أو طلب وظيفة أو طلب تأشيرة لأحد، اكتبها في ورقة وسأدخلها له .

-لا ، إنها مسألة شخصية .

-تفضل اقعد ، وانتظر دورك ، أنت ترى الزِّحام والناس هنا منذ أكثر من ساعتين .

- كان الله في عون الباشا ، أطال الله عمره .

قعد على أحد الكراسي ، وأخذ يفكِّر كيف يبدأ الحوار معه؟ ، وكيف يطلب منه الخدمة ؟وأخذ يتذكر أسماء من يعرفهم ولهم علاقة وطيدة بعبد الرحمن بك .

(٤)

بعد أن مرَّت ساعة على انتظار الحاج فتحي،وجاء دوره دخل السكرتير لأمين الحزب-الذي كان يعمل بوظيفة لواء شرطة ومن عائلة غنية جدًا ، وبعد خروجه كافأته الحكومة ، ونصَّبته أمينًا للحزب فى المحافظة،نظير جهوده في محاربة الإسلاميين-وبلَّغه بطلب الحاج فتحي.استنكر اسمه و لم يتذكره، وقال :

-اركنه ربع ساعة،حتى أنتهي من تليفونات هامَّة،ثمَّ أدخله.

مرَّ ربع ساعة،ودخل الحاج فتحي رافعًا هامته،وسلَّم عليه في أدب جم ، وسلم عليه اللواء بترحاب شديد،وكأنَّه يعرفه من قبل،وتبادلوا التحية والاعتذار،الحاج فتحي عن حضوره بدون موعد سابق،والباشا عن تركه في الخارج ينتظر،وتحدَّثوا عن أحوال البلد ومشاكل الحزب،وبعد أن انتهى الباشا من الحديث، قال في لهجة جادَّة :

-خيرًا يا حاج فتحي ، اؤمر .

-الأمر لك ياسعادة الباشا ، كلُّ ما في الأمر أن مباحث أمن الدولة قبضت على ابن أخي اليوم في العمل،وابن أخي هذا ليس له أي نشاط سياسي ، وليست له علاقة بأحد ، وأخشى أن يكون في الأمر شيء خطأ .

-هل أنت متأكد ، أن ليس له أي نشاط سياسي ؟

أجاب الحاج فتحي،بعد أن أضاف من عنده مايقَوِّي موقف ابن أخيه :

-نعم ياسعادة الباشا،هو لايتكلم ولا يعمل في السياسة، غير مرة واحدة فقط،حينما تأتي الانتخابات،فيقف معنا وينتخب مرشحي الحزب ويحشد الناس؛لِيُصَوِّتوا لمرشحينا أنت تعلم ياسعادة البك،كم نحن مخلصون للحزب ونحن خُدَّامُ الوطن .

-من الممكن أن يكون يعمل في الخفاء ضد مصالح الوطن ، أنت تعلم أن أولاد الحرام كثيرون،ومن الممكن أن يكونوا قد استقطبوه ؛ ليعمل في الخفاء ضد الوطن .

-لا ياسعادة البك،أنا أربعون سنة في العمل السياسي، وأعرف كلَّ شيء عن عائلتي وعن كل فرد في قريتي،هذا بالذات،ليس له شأنٌ بأحد ، هو في حاله وليست له أيّة ميول هدَّامة ، هو يشتري كتبًا ويقرأ فيها فقط لا غير،ومن البيت إلى العمل . أنا واثقٌ من كلامي .

- أريد اسمه بالكامل ، لكي أستعلم عنه في الداخلية .

-محمود السيد حسين .

كتب الاسم على ورقة ، ثمَّ قال :

- أرجوك انتظرني في الخارج ، من الممكن أن تصلِّي العشاء في المسجد ثم تحضر مرة أخرى ، أنت تعلم أنَّ هذه الأمور حسَّاسة ودقيقة ، وتأخذ وقتًا .

-أعرف ياسعادة الباشا،وأتعشَّم خيرًا في معاليك بعد إذنك.

(٥)

صلّى الحاج فتحي العشاء في المسجد،ثم ذهب لمقر الأمانة ودخل إلى عبد الرحمن بك،فوجد ملامحه غاضبة،فتَوَجَّس خيفة وقعد ، ثم قال في خوف :

-خير ياسعادة البك .

-هل أنت متأكدٌ ، أنَّك تعلم كلَّ شيء عن ابن أخيك، وعن كل فرد في قريتك؟!

-نعم ياسعادة البك .

-هل تعرف شخص اسمه عفيفي؟

-نعم ، إنه ابن اختي ، هل أصابه مكروه؟

-ماذا تعرف عنه؟

- يعمل في الأردن بوظيفة مدرِّس.

-في الأردن!.

قالها في سخرية، ثمَّ أكمل :

-ابن أختك في العراق ، هل تعرف ماذا يفعل هناك ؟

قال الحاج فتحي في ذهول :

-ابن أختي في العراق ، وفي هذه الظروف .

-نعم ، وهل تعرف ماذا يفعل هناك ؟

-لا .

- إنه يحارب في صفوف الإرهابيين ضد قوات التحالف ، إنه مع تنظيم القاعدة.

- ابن أختي إرهابي ، ومع تنظيم القاعدة! مستحيل .

-لا ليس مستحيلًا ، وهل تعرف من يساعده في مصر؟

-لا .

-ابن أخيك الذي لايعمل في السياسة ويحشد الناس ؛ لتنتخب مُرَشَّحي الحزب ، كما تقول .

- مستحيل ، أنا لا أصدق .

-لا ، لابُدَّ أن تصدَّق ، إنها معلومات مؤكدة . لقد قبضوا عليه في عمله متلبسًا هو ومندوب عفيفى ، ووجدوا خطابات واسطوانات مبعوثة من العراق مع هذا الإرهابى تثبت تورطه معهم ، ووجدوا كتبًا متطرفة في بيته وكان يعمل تحت اسم حركي ، هل تريد أن تعرفه ؟

-نعم .

- اسمه الحركي ، أبو داوود المصري .

- ما هذا الاسم الغريب،إنه اسم يهودي،أنا سأجن مستحيل .

-كيف تكون أمين حزب ومسئولًا عن قريتك،ولا تعرف عن أقرب الناس منك شيئًا،لقد خذلتني أمام القيادات،هل تعرف أن شكلي أصبح سيئًا أمامهم وأنا أسأل عن إرهابيين ؟

-والله ياسعادة الباشا،كل أفراد عائلتي خُدَّام للوطن،أنا أخطب أمام الناس وأقول لو ابني رشَّح نفسه ضد مرشح الحزب،سأقف ضدَّه، أنا أعمل في السياسة منذ أربعين عامًا، و لم أخذل الحكومة،كل كبيرة وصغيرة أنقلها أنا والعمدة إلى مباحث أمن الدولة ، اسأل عن تاريخي يا سعادة البك .

- إذن ماذا حدث؟

- الذي حدث هو وجود إرهابي بيننا يبثُّ سمومه بين الناس

-من هو ؟

-الشيخ جلال الحكيم هو السبب في كلّ ماحدث،لقد جعل بعض الناس تترك طريقتنا الصُّوفية وتتبعه،وبنى مقابرًا يقول إنها شرعية ومقابرنا مخالفة للشرع ، وبنى مسجدًا يخطب ويربي فيه الإرهابيين ، وأنشأ جمعية خيرية يجمع فيها تبرعات ؛ ليوزعها على الأرامل والمحتاجين،فيكسب عطفهم حتى أنه يخطب ويزوج الغير قادرين للغير قادرات،ولا يخجل من ذلك، هو السبب يا سعادة البك لقد كتبت عنه أكثر من تقرير لأمن الدولة ، لكنهم قبضوا عليه وأفرجوا عنه ، هو السبب يا سعادة البك لقد غيَّر حياتنا منذ أن عاد من السعودية وجمع ثروة ،

وجعل من نفسه زعيمًا والناس تحبُّه؛لأنها مخدوعة فيه من كلامه المعسول وضحكه عليهم بالمساعدات .

– من المؤكد أن الحكومة تتحين الفرصة،وستقضي عليه وعلي أتباعه ، المهم لابد أن تتبرَّأ منهم أمام الناس، لكيلا يؤثر ذلك على مستقبلك السياسي،تخيل لو القيادات عرفت أن أمين حزبها يساعد تنظيم القاعدة،من المؤكد أنهم لن يسكتوا وسيعزلوك وسيضيع تاريخك السياسي،إن الحزب يُجري في الخفاء تغييرات غير محسوسة يدفع بالوجوه الشابة،بدلا من الوجوه التي شاخت،احذر لكيلا تجد نفسك مجرَّد عضو في الحزب تحت إِمْرَة شاب في سن أولادك،لقد حدث ذلك في قرى ومدن كثيرة ، الحرس القديم يُصَفَّى ، انتبه لكيلا تلومنا ، المرحلة القادمة خطيرة .

–حاضر ياسعادة البك،آسف لأني أحرجت معاليك أمام القيادات ، أستأذن لكي أعود لبلدي .

–مع السلامة ، ولا تنسَ كلامي .

–حاضر .

(٦)

خرج وهو يجر ساقيه من الصدمة وكاد أن يقع على السلم، لكنَّه تماسك وركب سيارة ميكروباص ودفع أجرة السيارة بالكامل،وأخذ يفكر في مصير أقاربه وكيف سيخبر أمَّ كل منهما بما عرفه،وشعر بخوف شديد عليهم وعلى تاريخه السياسي الذي ضحَّى بكلّ شيء من أجله، وظيفته،وأرضه التي باعها قيراطًا قيراطا ؛ لينفق على أسرته وعلى جاهه.

شعر لأول مرة بالخوف الشديد وهو لم يعرف الخوف من قبل إلا في مرات قليلة ، ظهرت صورة الشيخ جلال أمام عينيه، فأخذ يتوعَّده بالانتقام هو وجماعته ، وقال وهو يحدث نفسه:

- لقد عرفت الآن سبب زيارات محمود المتكررة لأمّ عفيفي،والله يا شيخ جلال سأكتب فيك شكاوى لرئاسة الجمهورية وأمن الدولة،ولن أدعك تعيش هاديء البال،ربنا يسامحك ياسادات أنت الذي أفرجت عنهم من المعتقل،لولاك لكانوا ميتتين من زمن والله يرحمك يا عبد الناصر،كنت راميهم في السجون وكنا مرتاحين منهم،حاضر يا أبناء اللئام سترون مني أيامًا لونها أسود من لون قرن الخروب،هل نسيتم من أنا؟، أنا أربعون عامًا في العمل السياسيّ .

نزل من السيارة ومشى مسرعًا وهو يلقي السلام على القاعدين،كان وجهه شديد الوجوم وعلامات الحزن والخوف تكسوه .

دخل الدوَّار فوجد الفناء مزدحمًا برجال العائلة الذين جاؤوا بعد أن عرفوا بخبر القبض على محمود،ودفعهم فضولهم لمعرفة ماذا حدث لمحمود،وماذا فعل الحاج فتحي في بنها وقعدوا ينتظروه وبين الحين والآخر يذهبون ويعودون مرة أخرى ، قعد وحيَّاهم ثم سأل عن أمِّ محمود وأمِّ عفيفي،أجابه ابنه بأن أمَّ عفيفى فى بيتها،أما أمُّ محمود بالداخل مع الحريم فأمره أن يذهب و يأتي بصينية شاي للرجال ويخبرهم بأنه يريد أم محمود على انفراد مع زوجته في حجرة الجلوس،ثم التفت لرجال العائلة وقال :

-مصيبة ، وحلَّت بنا .

-ياساتر يا رب ، خير يا حاج فتحي .

-ليس خيرًا .

أخبرهم بما عرفه باختصار،فذُهلوا عندما سمعوا،وتعجَّبوا وأخذوا يتساءلون،كيف حدث ذلكَ؟فقال لهم الحاج فتحي بلهجة فيها أمر :

-لا أحد يتحرك، حتى أعود ،وأرسِلوا لبقيَّة العائلة لتحضر حالا وافتحوا المضيفة.

تركهم ودخل حجرة الجلوس،فوجدهم في انتظاره،حيَّاهم وقعد على الأريكة التي في مواجهة أمِّ محمود وزوجته اللتان قعدتا جنب بعضهما،تنحنح، ثم قال بعد أن أخرج المسبحة من جيبه وسبَّح :

-عفيفى،ابن أختي في العراق يحارب مع الإرهابيين،وابنك يا أم محمود يُمِدُّه بالمعلومات ويساعده من مصر،هذا ما عرفته بدون لف ولا دوران .

-مستحيل ... قالتها أم محمود في ذهول

-ياخبر اسود... قالتها زوجته بعد أن لطمت على خدَّيها .

-هذه هي الحقيقة،عفيفي سافر إلى العراق عن طريق الأردن والمخابرات عرفت بذلك ، وراقبت كلَّ أصحابه ومحمود أقرب أصدقائه ، فراقبوه ووجدوا في مكتبه خطابات من عفيفي ، ووجدوا كتبًا متطرفة ، واسطوانات في مكتبته وضبطوه مُتَلِّبسًا في الشركة ، وهو يقابل أحد الإرهابيين ومعه خطاب ونقود واسطوانة من عفيفى، ابنك له اسم حركي مثل الإرهابيين اسمه أبو داوود المصري ، هل سمعت عن هذا الاسم من قبل .

- لا.

-هذا كل ما حدث .

-وما العمل؟ .... قالتها أمُّ محمود .

- العمل عمل ربنا .

-ماذا تقصد؟

-العمل عمل ربنا،أنا سأذهب إلى أعضاء مجلس الشعب وهم أصدقائي،ولن يرفضوا لي طلبًا .

-وماذا سيفعلون ؟

-سيذهبون إلى وزير الداخلية وسيحاولون معه،وأنا سأتصل بالمحامي،لكي يتابعه عند عرضه على النيابة،وعند ذَهابه إلى المحكمة .

-وهل سيروح إلى النيابة ؟

-نعم.، ربنا يستر وإن شاء الله خير،إنها مصيبة،وحلّت على الجميع .

-يا خبر أسود من قرن الخرُّوب،ابنى أنا إرهابى أنا غير مصدِّقة،إنه لم يقف في أيّ مظاهرة من قبل،ولم ينضم لأيٍّ حزب،أنا لست نائمة على أذني،أكيد يوجد خطأ في الموضوع.

-أنا تأكّدت من عبد الرحمن بك .

-ياسواد أيّامى،يا حزنى على ولدى،أكيد هو الآن يُعَذّب ، إنه لن يَتَحَمَّل التعذيب سيموت هناك

قالتها ، ثمَّ بكت ، فقال الحاج فتحي ، متأثِّرًا :

-إن شاء الله ، سيخرج منها سليم ، ولا تحملى همّا ، ارمى حمولك على الله ، وإن شاء الله ستُحَلّ من عنده .

-ونعم بالله ، لكن أنت تعرف أمن الدولة أكثر منّي .

-ربنا موجود ، أَلَسْتِ مؤمنة بالله؟

-بلى .

-إذن ، لا تحملى همّا مادام الله موجود .

توقّفت عن البكاء وسكتت،فقال الحاج فتحي بتوسُّل :

-ياست أم محمود،لي طلب عندك وأريدك أن تُنَفّذيه دون اعتراض .

-اؤمر .

-لا أريدك أن تظلّي في شقتك أنت وعيالك ، أريدك أن تأتي إلى هنا وتعيشي في بيتكم بجوارنا ، لكي أطمئنَّ عليكم .

-لا تقلق علينا،إن أشرف ابني رجل وسيقف معى مكان شقيقه .

-المسألة ليست كما تظنين يا ست أمّ محمود،الوضع خطير وأمن الدولة لن يسكت ومن الممكن أن يأتوا إليكم بعد منتصف الليل وللأسف قد يطمعون فيكِ أو في ابنتك،أنا أعرف عنهم الكثير،هم لا يرحمون.ويوجد منهم عديمي

الأخلاق وقد سمعت عنهم أشياءً تُشيِّب الرأس،أرجوكِ لا تجعليني لا أنام؛من الخوف عليكم ، أنتم هنا ستكونون بيننا ولو ذهب أحد من أمن الدولة لشقتكم فلن يجد أحدًا ، وسيأتي إلى هنا وكلنا موجودون،وسنذهب معه إلى شقّتك ولن ندعه يأخذك من وسطنا ، ولو حكمت سيكون فيها جناية ومجزرة ، أرجوكِ لا تجعليني خائف عليكم .

كانت كل كلمة ، قالها الحاج فتحي صادقة ونابعة من قلبه، فهو دائمًا يعتبر أفراد عائلته مسؤلين منه،حتى ولو ضايقوه وعَصوا أمره فيسامحهم، ويقول" أسامحهم من أجل عظمة التربة".

– الدور الأول يحتاج لتجهيزات كثيرة ، وشقة محمود بلا أثاث وتحتاج بعض التجهيزات .

–لا تحملي همّا ، اتركي هذه الأمور عليَّ .

–حاضر ، ربنا يخليك لنا .

– سأرسل معكِ زوجتي وأولادي ، ثم سأرسل لكم سيارة نقل بها نجّار من العائلة تنقل غرفة نومك ، وغرفة نوم أشرف ومي،أعطيني مِفتاح البيت ، لكي أرسل للسبَّاك وللكهربائي وأنت من غير مطرود ، اذهبي مع أولادي وزوجتي ، واجمعى الأشياء التي ستحتاجينها، عن إذنكم .

خرج الحاج فتحي،بعد أن أخذ المِفتاح وأمر أولاده بما قرره، وأرسل أحد أبناء العائلة لعلّام ابن عمَّته ؛ ليُحضِر سيارته النقل،وأرسل أحد أفراد العائلة الآخرين للنجار ، ثمَّ خرج وقعد مع رجال العائلة وأمر بغلق بوابة الدوَّار، لكيلا ينتبه أحد لاجتماع العائلة ، ويكون حديث القرية وتكهناها ، ثم قال :

-انتبهوا لما سأقوله جيدًا،ولا يقاطعني أحد، الشيخ جلال الحكيم ، ربنا يأخذه ضحك على عفيفي ابن أختي ، وعمل له غسيل مخ وأقنعه بالسَّفر إلى العراق ؛ ليدافع عنها ضد الأمريكان .

سرت همهمةٌ بين الجميع،وبدت عليهم علامات الذُّهول وعدم التصديق ، فقال الحاج فتحي غاضبًا :

-قلت،أريد أن تنتبهوا لي ، ولا أريد كلامًا .

- حاضر.....قالها أحد الحاضرين .

-وبعد أن سافر للعراق،الحكومة علمت بذلك وراقبته ووجدت أنَّ محمود يساعده من هنا،فقبضت عليه وهو الآن في المعتقل وعفيفي في العراق،لا يعرفون عنه أيَّ شيء وأنتم تعرفون خطورة ذلك علينا جميعًا،ولو شكَّت الحكومة لحظة واحدة في إخلاصنا لها،ستقضي على هيبتنا وسلطتنا في القرية،الحكومة ليس لها عزيز وأهل القرية يتمنَّون الخلاص من

سلطتنا وهيبتنا،وينتظرون الفرصة للقضاء علينا ، وهم لا ينسون أننا كنّا ومازلنا أسيادهم حتى بعد أن اغتنوا ، فلذلك الأمر خطير ، ولابد أن نفعل أشياءً نُعَزِّزُ بها موقفنا .

-الذي تأمر به ، سَنُنَفِّذُه .

-ليس كلام مثل كلّ مرة ، أريد أفعالًا وليس وعودًا ، الأمر مرتبطٌ بنا جميعًا.

-ماستقوله ، سننفذه بلا نقاش .

-أوَّل شيء،لابد أن نضع لافتات تأييد لسيادة الرئيس والحكومة والحزب ، هذه اللافتات نضعها في كل أنحاء القرية .

-لكن ماذا سنقول للناس عن السبب؟

-أيُّ شيء ، وهل ستُدَقِّق الناس في كلامنا ، قولوا أيَّ شيء،قولوا بمناسبة أن الحكومة ستُدخل الصَّرف الصِّحي في القرية.اكذبوا أي كذبة،المهم أن نُظْهِر ولاءنا لسياسة السيد الرئيس،كل ثلاثة بيوت تشترك في لافتة،وبعد ذلك سنرسل فاكسات وخطابات شكر لرياسة الجمهورية،وسنرسل فاكسات لمقر الأمانة العامة للحزب نُعَبِّر فيها عن شكرنا وتأييدنا لموقف الحزب من حرب العراق ومن عملية السلام، لابد أن نُظهر ولاءنا لكيلا نضيع كلُّنا من المجلس المحلي للقرية والمدينة والعُمودية،الحزب يتم غربلته من جديد وأخاف عليكم

قبل منّي،أهل البلد يتمنون فرصة ؛ لينقضوا علينا وتضيع هيبتنا للأبد .

-حاضر ، سننفذ كلّ ماأمرت به .

-الآن ، وليس غدًا .

-حاضر .

-ويوجد شيءٌ آخر مهم .

-ماهو؟

-الشيخ جلال ممنوع حضور دروسه،بلّغوا أولادكم بذلك، وشدّدوا عليهم،ومسجد السُّنّية حذارِ أن يصلي فيه أحد،حتى صلاة الجمعة،قريتنا أصبحت في القائمة السوداء والعيون عليها كثير،أنا أُحَذّر لأني لن أجري وراء أحد في المحاكم دي محاكم عسكرية،وممنوع تربية اللحية،ومن يجد ولده مُطْلِقُها يأمره بحلقها،وإن رفض وأصر فينبّه عليه بعدم مخالطة جماعة السنية، كلنا أصبحنا مُراقبين حتى أنا ، أنتم لا تعرفون شيئًا عن أمن الدولة،أنا رأيت مثل ذلك منذ أربعين عامًا أيّام عبد الناصر، لم يرحموا أحدًا حتى من كان يدفع تبرعات للمسجد كان يسجن ويعذّب ، احذروا ، وربنا يعدي هذه الأيام على خير .

-حاضر .

-اذهبوا الآن ، ونفذوا ما أمرتكم به .

انصرف الجميع وتركوه وحده ، فقام على الفور واتّصل بأخته ؛ ليخبرها بأنه قادمٌ إليها بعد قليل .

ذهول ، وجنون

ما إن علمت من أخيها بما عرفه،أصابها الذّعر والخوف على ابنها و لم تجد ماتفعله غيرَ الذهاب إلى الشيج جلال ؛ لتستوضح منه وتتأكّد ، طلبت من أخيها أن يذهب معها ، فرفض وقال :

-لا أستطيع،لو ذهبت إليه معناها أني أُذِلُّ نفسي له وسأرفع قدره علينا،وسينتشر الخبر في القرية بأني زرته وامن الدولة سيعرف،ومعناه أني مؤيِّدٌ له أو شريكه ، لن يحدث ذلك أبدًا ، حتى لو كان السيف على رقبتي وخلاصي في يده.

-لو كان ولدك ، كنت قلت ذلك .

-لو كان ولدي،ماكنت تركته للشيج جلال مثلك،كم مرة حذرتُك ونهرتيي ووقفتِ ضدي ، وكنتِ تدافعين عنه وتقولين عنه إنه رجل ويعرف مصلحته .

-تُعَيِّرني وأنا في محنة ، تذكر أني أختك وليس لي رجل، زوجي ميت،أنا الآن أشعر بأني يتيمة الأب والأم ، ياليتني مت قبل أن أرى موقفك هذا ، لو كنت غريبة لكنت جريت معي لآخر المشوار حتى تظهر أمامي ويتكلم عنك الغرباء ، لكن أهلك لا تقف معهم .

تركته،ودخلت لغرفتها وغيرت ملابسها وارتدت جلبابها الأسود،ونادت علي ابنها الكبير وذهبت معه إلى بيت الشيخ الذي يقع في آخر القرية بجوار المركز الإسلامي،بينما نزل الحاج فتحي ، وذهب لبيته وقال في سرِّه :

-سامحيني يا أختي ، إنهم أربعون عامًا من العمل السياسي لا أريدهم أن يضيعوا هباءً ، ثمَّ إن ذهابي معك لن يقدم ولن يؤخر، إن شاء الله سأصالحك وسأسترضيك،ولن أهون عليكِ، أنا شقيقك الكبير، يارب أَرحني من هذا الهم .

طرقت باب الشيخ بعنف،كان الوقت متأخرًا قد جاوز التاسعة،والشيخ معتاد على النوم بعد صلاة العشاء مباشرة ؛ ليستيقظ في الثلث الأخير من الليل ليقوم الليل ويختم القرءان ويستعد لصلاة الفجر،لم يفتح أحد فواصلت الطرق على الباب، حتى جاءها صوت الشيخ من الداخل :

-من الطارق؟

-أنا ياشيخ جلال ، أمُّ عفيفي .

-حاضر ، دقيقةٌ من فضلك .

فتح الباب،وأدخلهم في حجرة الضيوف واستأذن منهم وعاد بعد خمس دقائق،كان قد غسل فيهم وجهه وأيقظ زوجته؛لِتُعِدَّ الشاي .

قعد أمامهم ورحَّب بهم،لكنه كان متوجسًا خيفة من منظرهم ، فقال في ثبات :

-خير يا حاجة .

-أين ابني عفيفي ، أجبني بلا لف ولا دوران .

-ابنك في العراق ، يجاهد من أجل الإسلام .

قالها في ثبات وثقة ، وبلا خوف.

-إذن ، كلام أخي صحيح .

- أيُّ كلام .

- إن ابني أصبح إرهابيًا ، وابن أخي يساعده في مصر .

- لا أعرف شيئًا عن ابن أخيكِ ، كل علاقتي بابنك .

- لقد ضيَّعته ، وألقيت به في النار،وأضعت ابن أخي هنا .

-لا لم يضع ، هو اختار أن يدافع عن دينه وشرفه،وأنا ساعدته لكني لا أعرف شيئًا عن ابن أخيك،من ابن أخيكِ الذى تتكلمين عنه ؟

-ابن المرحوم السيد على ، لقد قبضوا عليه اليوم ، ووجدوا عنده كتبًا متطرفة وخطابات من عفيفي ، وكان دائمًا يُسَلِّمني خطاباته وأمواله .

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

-وابني الذي ضيَّعته .

-أنا لم أضيعه ، هو أراد أن يجاهد وأنا ساعدته .

-إذا كنت ترى أنَّ مافعله صح ، لماذا لم تجاهد معه؟

-إن صِحَّتي لا تستطيع أن تحمل السلاح وتحارب ،لو كنت أقدر لذهبت قبله.

قطع كلامهم ، دخول زوجة الشيخ وهي تحمل صينية عليها براد شاي وأكواب صغيرة ، كعادة أهل القرية ، أخذ شقيق عفيفي الصينية ، ووضع الصينية على منضدة أمامهم .

صبَّ الشيخ جلال الشاي ، وقدمه لهم وقال:

- تفضلا .

قالت أم عفيفي ، بضراعة :

-أريد أن أطلب منك طلبًا ، وأريدك أن تُنَفِّذه لي .

-تفضلي .

-بلِّغه ، بأني سأموت حسرة عليه ، واطلب منه أن يرجع .

-أنا أعرفه ، إنه لن يوافق على العودة .

-اطلب منه ذلك من أجل الله ، لا من أجل أم يتقطَّع قلبُها من أجل ولدها .

-حاضر ، إذا كلمني سأقول له ذلك .

-إن مات أو تعرض لأذى ، لن أسامحك وسيكون دمه في رقبتك .

-إن شاء الله خيرًا ، عفيفي مثل ابني،وأعتبره عوضًا عن ابني الذي استُشْهِد في البوسنة .

-أعرف ذلك ، وهو يحبُّك مثل والده ، والله آخر شيء قاله لي قبل أن يسافر،إذا كنت أحبّه بصدق فلا أغضبك،مهما حدث .

-ربنا يديم المعروف ، إننا كلنا مسلمون ، وأشقاء .

-صح . لا تنسَ كلامي يا مولانا،إذا كلمك،اطلب منه العودة واطلب منه أن يُكلّمني،لقد انكشف السِّر وعرف الجميع مكانه ، عن إذنك وآسفة ؛ لأنِّي أيقظتك من النوم ، هيَّا بنا يا سيد عن إذنك.

-مع السلامة

مازال الوفاء موجودًا

اجتمع رئيس مجلس الإدارة مع مجلس الإدارة،ومع مديرة الشركة ومع عماد ونرمين في غرفة الاجتماعات،وكان معهم المحاسب القانونى للشَّركة،وذلك لبحث مشكلة القبض على محمود ، وذلك بعد يوم واحد من القبض عليه.

انتهى الاجتماع بعد ساعتين من الشدِّ والجذب،وصدر عنه قرارات لم يوافق عليها أغلبُ المجلس،لكنهم وافقوا بعد ضغط وإلحاح من رئيس مجلس الإدارة ، وقرروا على مضض ما يلى :

● اعتبار محمود في إجازة مدفوعة الأجر، لمدة ثلاثة أشهر ، وبعد هذه المدَّة يتم تعيين رئيس حسابات جديد .

● يقوم عماد ونرمين بمهام محمود،ويقومون بمراجعة حسابات الفروع تحت إشراف مكتب المحاسبة،ويتم صرفُ مكافأة لهم على ذلك .

● يُنتَدب محاسب من مكتب المحاسبة ليومٍ واحد في الأسبوع ؛ ليتابع سير العمل .

● التنبيه على الموظَّفين،بعدم التحدث في مشكلة محمود مع أيٍّ شخص داخل الشركة ، أو خارجها .

● إذا سأل عنه أحد العملاء،يتم إبلاغه بأنه في إجازة مرضية .

● إذا استدعت الشرطة أو النِّيابة أحدًا من الموظفين،لا يذهب إلا مع محامي الشركة .

● يتم الرجوع مباشرة إلى رئيس مجلس الإدارة ، فيما يتعلق بأيٍّ شيء خاص بمحمود .

● عدم التحدُّث مع أحد من الموظفين ، بما دار في هذا الاجتماع .

● في حالة إحالة محمود للمحاكمة ، يتم توكيل محام ؛ للدفاع عنه ويتم دفع أجر المحامي خصما من أرباح رئيس مجلس الإدارة .

● في حالة صدور حكم قضائي ضد محمود ، يتم فصله من الشركة مع دفع مكافأة نهاية الخدمة له حسب اللوائح والقوانين.

اغتاظت مديرة الشركة من هذه القرارات ، وكانت تتمنَّى أن يُفصل محمود ، وكانت تُؤَجِّج النار داخل الاجتماع ؛ لأنها تكره أن ترى أحدًا في الشركة محبوبًا من الموظفين والكل ملتف حوله ، وكانت تردِّد دائمًا أن رئيس الحسابات لا بد أن يكون مكروهًا،لكيلا يتعاطف أو يتآمر مع الموظفين ضد مصلحة

الشركة ، لكن محمود منذ أن جاء إلى الشركة محاسبًا صغيرا ، هدم كلَّ هذه المبادىء التى أرستها مع غيره وعاندها،وأصرَّ على طريقته وهى الحب والإخلاص والأمانة مع الجميع، فأحبه معظم موظفى الشركة بما فيهم رئيس مجلس الإدارة،الذى كان يحبُّه ويضحك معه ويتعمَّد مضايقته ، ليرى رد فعله الطفولى ويضحك عليه وحينما مشى رئيس الحسابات منذ عامين فجأة، قام رئيس مجلس الإدارة بتعينه رئيسًا للحسابات،رغم معارضة الجميع لصغر سنه،لكنَّه أصر وراهن عليه ونجح في الرهان، ومنذ هذه اللحظة كرهته مديرة الشركة لأنه أصبح منافسًا قويًا لها فى الشركة،وأخذت تتحيَّن الفرصة للتخلص منه لكنها لم تقدر حتى جاءتها الفرصة على طبق من ذهب،لكن رئيس مجلس الإدارة ضيَّعها عليها فخرجت مدحورة من الاجتماع وقالت وهى قاعدة في مكتبها تحدث نفسها وهى تدخن السجائر الأجنبية :

- تدافع عنه ؛ لأنه فلاح مربوع مثلك،إن شاء الله سيأخذ مؤبد وأرتاح منه للأبد ولن يتبقى أمامى أحد من الحرس القديم غير يونس ، الذى يعرف كلَّ شيء عنى منذ أن جئت إلى هنا صغيرة وضعيفة وفقيرة منذ عشرين عامًا .

سامحني يا صديق العمر

بعد أن علم من الشيخ الضاري بما حدث لأبي داوود، تركه وقعد بمفرده في حجرته ، وأخذ يدعو لأبي داوود بالفرج، ثم بعد ذلك أخذ يتذكر آخر لقاء بينهما ، عندما قال له أبو داوود :

-جهاد إيه ونضال إيه أنا همي أن أتزوج امرأة جميلة ومتدينة، أدعو للمجاهديين نعم،لكن أحارب معهم لا،أنا أريد أن أعيش وأستمتع بحياتي .

مسح دموعه ،وقال :

-سامحني يا محمود،لقد دمَّرت حياتك دون قصد،لقد كنت حريصًا على عدم إيذائك لكي آذينك ، سامحني يا صديقي .

دخل عليه صديقه طارق الرشيدى ، فوجد الدموع في عينيه فاقترب منه وقال :

-مابك؟

-لقد قبضوا على صديقي محمود .

-وكيف عرفت؟

-الشيخ حاتم الضاري قال لي ذلك،إخواننا في مصر أبلغوه بخبر القبض على مندوبنا وعليه ، أنا الذي ضيَّعته،يا حبيبي يا محمود .

-لا تجزع هكذا ، إن شاء الله ، لن يُمَسَّ بسوء .

-إنك لا تعرف مايحدث في معتقلاتنا،إن ما يحدث فيها أكثر ماكان يحدث في معتقلات صدَّام أو في سجون الأمريكان ، الموت أهون له من التعذيب .

قال في ضيق :

-انت تقول هذا الكلام عن بلدك ، وأبو شهاب يقول نفس الكلام عن بلده وأبو عدنان يقول نفس الكلام عن بلده، وبقية إخواننا يقولون نفس الكلام عن بلادهم ، والكل يحكي عن فظائع رهيبة تحدث في بلادهم ،سأجن أين العدل والرحمة التى نتباهى بهما أمام العالم ؟ أين تعاليم ديننا التى نتباهى بها ونعاير بها غير المسلمين؟ لماذا نفعل هكذا مع أبنائنا؟ رُحماك يا ربي .

-وهل يؤمنون بأيِّ دين! ، إنَّ دينهم الحكم ، إنهم يبطشون بنا ويتآمرون مع أعدائنا علينا،لكي يستمرُّوا في حكمهم ونهبهم، إنهم صناعة المستعمرين وورثتهم الشرعيين .

-نعم يبطش بعضنا البعض،بدلًا من أن نبطش بأعداء أمَّتنا، لقد أصبح العدوُّ منَّا ، وليس غريبًا عنَّا .

-لا يهمني كلٌ هذه الأشياء،المهم عندي محمود،لقد جعلته يتعذّب بسببي،لقد قلبتُ حُلمه إلى كابوس،لقد دمرتُ حياته، فهو ليس له أي دخل بالسياسة و لم يتعوّد على الشقاء،وأهلي سيعذّبوهم بسببي بعد أن انكشف سِرّي.

-لا تخف إن شاء الله خيرًا .

-سامحني يا محمود ، أتمنّى أن تكون بخير أنت وأهلي، يارب كن معهم ولا تتخلٌ عنهم،إنهم عبادك المخلصين،أين أنت يا محمود الآن؟

-أرجوك تمالك،الأمريكان على الأبواب،إنهم يطلبون أن نُسَلّمكم لهم،ليس لدينا وقت،الحصار سيطول تمالك وسيحلها الله من عنده .

أبو داوود يتجرَّع العذاب والهوان.

(١)

كعادة مباحث أمن الدولة دائمًا،في ابتكار طرق تعذيب مختلفة تناسب كلَّ مسجون على حدى،ابتكرت طريقة خاصة لأبي داوود .

بعد أن استقبلوه بالسبِّ والصفع والركل،تركوه في غرفة بمفرده لمدة يومين كاملين ، قعد خلالهما خائفًا ومذعورًا .

من حين لآخر يسمع أصوات صراخ نساء ورجال،وبكاء أطفال،وأصوات جَلْد واستغاثات،شعر خلالها بالذُّعر والرعب والرغبة في البكاء،لكنه تماسك وأخذ يدعو الله بالنجاة،وأخذ يُطمئن نفسه،وقال في سِرِّه إن هذه الأشياء مجرد حرب نفسية، لتحطيم معنوياته كما قرأ عنها في كتابي (سنة أُولى سجن، والبوابة السوداء)

مر اليومان وكأنَّهم دهر وهو على هذا الحال،ثم بدأ التحقيق معه بعد أن استوى من التعب والخوف والقلق .

قعد أمام المحقِّق معصوب العينين ، يجيب على أسئلته الكثيرة والتي تناولت تقريبًا كلَّ شيء في حياته ، ثم بعد ذلك سُئِل عن علاقته بعفيفي وبتنظيم القاعدة والإرهاب وعن الأشخاص

الذين كانوا يأتون إليه في شركته ، أسماءهم وعناوينهم وأرقام هواتفهم ، وحينما أجابهم بالحقيقة التي يعرفها ، وأنه لا يعرف عنهم أيَّ شيء غير موضوع الخطابات والاسطوانات والأموال التي يُسَلِّمها لأهل عفيفي، لم يقتنعوا بإجابته و لم يصدقوه، وقرَّروا تعذيبه .

أوثقوا قدميه بحبل غليظ،ثم علقوه في السقف وجعلوه يتدلَّى كالذبيحة ووضعوا أساورَ حديدية في كل يد،وعلي الطرف الآخر من كل أسورة علَّقوا أسطوانة غاز فارغة ، وتركوه يعيش مع نفسه .

مرَّت بضع دقائق،لم يشعر فيها بأيِّ شيء غير صداع خفيف ، ثم بدأ الدم يتجمع في رأسه،وبدء يشعر بصداع رهيب وألم شديد في مفاصل كَتِفه فقد شعر أن ذراعيه سينفصلان عن جسده ، فأخذ يصرخَ بشدَّة ويستنجد بهم :

-رأسي سينفجر،ذراعي ستنخلع،اتركوني وأُقَبِّل حذاءكم .

- لا نريد منك أن تُقَبِّل أحذيتنا،إننا لسنا كفرة،نحن مؤمنون بالله ، قل الحقيقة فقط .

-أقسم بالله ، لا أعرف أيَّ شيء غير الذي قلته لكم .

- والكتب التي وجدناها في مترلك .

- أقسم بالله ، لقد اشتريتهم للقراءة فقط .

- وأبو داوود أليس لقبك؟ هل تنكره ؟

- أقسم بالله،هذا لقبٌ أطلقه عليَّ صديقي عز؛لأني أعرف أشياءً كثيرة مثل داوود الإنطاكي ، فلقبني بذلك .

- هل تريدنا نصدق كلَّ هذه الأكاذيب؟

- أقسم بالله ، هذه هي الحقيقة .

-وما هي أسماء وعناوين،وأرقام هواتف من كانوا يأتون إليك؟

-أقسم بالله لا أعرف،هم الذين يتَّصلون بى، حينما يريدون مني شيئًا ، أنا لم أتصل بهم أبدًا .

- أنت حر، سنتركك هكذا ، حتى ينفجر رأسك وينخلع ذراعاك .

-أقسم بالله ، لا أعرف شيئًا غير الذي قلته .

أخذ يصرخ من شدة الألم،وزبانية التعذيب تضحك وتسخر منه ، وظل يصرخ حتى فقد النطق،ولم يشعر بعد ذلك بشيء، فقد أغمي عليه من شدَّة الألم .

(٢)

استمرُّوا في تعذيبه بكل الطرق لمدة شهر،ثم قرروا أن يفرجوا عنه بعد أن أتتهم التعليمات من القيادات العليا ، وبعد أن تأكدوا أنه ليس له شأن بالسياسة غير موضوع عفيفي .

أخذوه وأقعدوه أمام المحقق معصوب العينين ، وكانت ثيابه متَّسخة وذقنه طويلة،وملامحه تغيرت من كثرة التعذيب وقلة النوم وقلة الطعام،وتشعر حينما تراه بأنه قد كبر عشرين عامًا، قال له المحقق في لهجة بها سخرية :

- افرح سيتم الإفراج عنك اليوم،هل تعرف من الذي توسَّط للإفراج عنك؟

-لا ، لكن المهم أن أخرج من هنا .

-إنه الملحق السياسي في السفارة الأمريكية .

- أنا لا أعرف أحدًا فيها ولا عمري ذهبت للسفارة ، ولم يكن لي علاقة بالأجانب أبدًا .

- لا يهم ، المهم أنَّك ازددت غموضًا لدينا،ولن نتركك بلا مراقبة مدى الحياة،ولو فكَّرت في السفر، أوفكَّرت في تغيير إقامتك سنعرف ، ولو طلبت تغيير رقم تليفونك سنعرف، وحذارِ أن تظن أنَّ الأمريكان سيحموك منَّا هي فترة وسينتهي حكم بوش ، وتعود الأمور كما كانت .

- لا أعرف شيئًا عمَّا تقول ، ولستُ غامضًا كما تقول.

-انكر كما تشاء،لا يهم،إننا سنفرج عنك ، لكن أحبُّ أن أقول لك شيئًا بعيدًا عن قضيتك .

-تفضَّل .

-أنا أحتقرك من كلِّ قلبي،وأحترم صديقك عفيفي ، بالرغم من أنه لو وقع تحت يدي ، لن أرحمه .

-لماذا ؟

-لأنه له مبدأ ويدافع عنه،وواضح،آمن بفكرة الجهاد فضحَّى بكلِّ شيء من أجلها،أما أنت فعميل وخائن تلعب على الحبلين ، تتظاهر بأنك ضد الأمريكان في العلن وتساعدهم في الخفاء وتخدع الإرهابيين،وتقنعهم بأنك معهم،ولكنك تعمل ضدهم وتعمل مع الأمريكان ، ليس لك موقفٌ ثابت ولاءك لمصلحتك فقط ولمن ينتصر ،أما صديقك فهو شريف ، إياك أن تظن أننا في أمن الدولة بلا قلب أو بلا دين ، أو أننا لا نعرف غير التعذيب ، لا نحن متعاطفون مع المجاهدين ضد الأمريكان ، لكن لابدَّ أن نقف ضدهم ، لأنهم إذا انتهوا من الأمريكان سيوجِّهُون بنادقهم نحونا ، لذلك نحاربهم بالرغم أننا نحترمهم ، أما أنت فكلنا نكرهك ؛ لأنك بلا مبدأ ومخادع وجاسوس .

-أقسم بالله ، لا أعرف أي شيء مما تقوله.

-احلف كما تشاء،فلن نصدقك،إننا سنفرج عنك،لكن في أي لحظة سنقبض عليك ولآخر مرة أقول لك إذا عرفت أي شيء ، اتصل بنا على الأرقام التي أعطيناها لك عسى ذلك أن يشفع لك عندنا،ونحن من حين لآخر سنستدعيك،إذا اشتقنا لرؤياك.

-حاضر .

ضغط على زر مكتبه ، فدخل أحد الجنود وألقى التحية ، فأمره أن يأخذه ويفرج عنه فجذبه من ذراعه ، وأخرجه من المكتب و لم ينسَ المحقق أن يشيعه قبل أن يترك المكتب بكلمة وداع ، فقال له وهو يضحك ساخرًا :

-سلام يا أبو داوود المصري ، يا خائن .

(٣)

هدأت السيارة التي تحمل أرقامًا ملكية من سرعتها، وفتح أحد الجنود الذين يرتدون ملابس ملكية أحد الأبواب ، وألقوه من السيارة بجانب الطريق وكان معصوب العينين ، وليس معه نقود وكان الوقت بعد منتصف الليل .

فكَّ العصابة التي على عينيه ونظر حوله ، ولم يستطع تحديد مكانه بالضبط أين هو ؟وما اسم الطريق؟،فقد كان الطريق مُقْفرًا ولايوجد به أيُّ علامة إرشادية،لقد رموه في موقع مجهول بعد أن سارت السيارة كثيرًا، وصعدت وهبطت،وألقت به في هذا المكان .

قعد على جانب الطريق ينتظر سيارة قادمة،وأخذ يدعو بصوت عال وكان صوته مختنقا بالعَبَرات ، وقال :

-يارب إني أعلم أني أعصاك،لكني لا أجد سواك الذي يغفر ذنبي ويقف معي، يارب بحق زواج إسراء صديقة أختي من أيمن زميلي ، والذي توسَّطت بينهم وكنت لا أريد غير إدخال السَّعادة عليهم فقط،بعد أن عرفت من أختي أن صديقتها كانت تبكي بحرقة؛ خوفًا من العنوسة ففكرت في زميلي وزوَّجتهم لأدخل السعادة في قلبها؛لأنها يتيمة وكان هذا العمل

خالصًا لوجهك الكريم،يارب ساعدني في محنتي بحق هذا العمل الخالص من أجلك ، و لم أكن أبغي مصلحة من ورائه .

شعر لأول مرة بأنه صادقٌ جدا مع ربِّه في بكائه ودعائه، تنحَّى جانبًا وأراد أن يتيمَّم ليصلي لله ، لكنه لم يعرف كيفية التيمم ، فقال وهو يُؤَنِّب نفسه :

-سحقًا لي ، أعرف أمور الدنيا بتفاهتها ولا أعرف أمور ديني ، والله لو عدت سالمًا ، سأشتري كتاب "فقه السنة" ولن أتركه ، وسأحفظه عن ظهر قلب.

تذكر كلمات الرجل الوقور ، الذى قابله وقعد معه في وسط البلد ، حينما أخذ نصيحته بخصوص موضوع لمياء .

سجد على الأرض،وأخذ يبكي ويدعو، ثم قعد ينتظر وهو في قمة الخوف ، ثم نظر إلى السماء ، وقال :

-يارب أنت موجود بالأمس،واليوم وغدًا،وليس لديَّ أحد ألجأ إليه غيرك ، فساعدني ياربٌ في محنتي.

أخذ يقرأ القرآن بصوت مرتفع؛ليطمئن نفسه ، مرت نصف ساعة وهو على نفس الحال .

أخيرًا ظهرت سيارة نقل ، أشار إليها فوقفت فجرى نحوها، وقال للسائق ، الذي شك فيه وخاف من هيئته الرثه وملامحه المخيفة :

-أنا لست مجرمًا،أنا ضللت طريقي وهذه بطاقتي وبها وظيفتي.

أخذ منه السائق البطاقة ، وتأكَّد من البيانات ، ثمَّ قال له:

-اركب .

ركب بجواره وشكره ، فقال له السَّائق ذو الملامح الطيبة:

-من الذي ألقى بك في هذا المكان المهجور،إننا في طريق الواحات ، وأنت من قليوب .

حكى له عن كلِّ شيء بصدق،فرقَّ السائق لحاله،وقدم له طعامًا وماء وقال :

-لا تندم على خير فعلته، هذه هي بلدنا، تقسو على أبنائها، وتعطف على الأغراب،أكيد يوجد أحد قد بلَّغ عنك، حينما تصل إلى بيتك اقعد مع نفسك ، وتذكر ماذا قلت؟ ولمن قلت؟ ، أنا ذاهب إلى ميدان الرماية ، سأوصلك إلى هناك وربنا يسهل طريقك،كُل ، ثم نَمْ ولا تقلق،وحينما نصل سأوقظك .

استسلم أبو داوود للنوم،واستيقظ على ضوء الشمس، شكر السائق وأخذ ينظر من النافذة دون أن يتكلم .

أخذ يفكِّر في أمه وفي أخته الكبيرة المتزوجة و في أخته الصغرى وشقيقه ، شعر بحنين نحوهم ، تمنَّى أن يصل ويرمي نفسه في أحضانهم ، ويبكي بحرقة .

وصلوا إلى ميدان الرماية فقال السائق:

-أنا .وصلت،انزل واركب من هنا إلى شارع الهرم،ثم اركب سيارة إلى ميدان المؤسسة ، واركب بعد ذلك أي سيارة إلى قليوب ، حذارِ أن تركب المترو ، من الممكن أن يقبضوا عليك تحري .

شكره ، وهمَّ بفتح الباب ، فاستوقفه السائق وأخرج من جيبه خمسة جنيهات فكة وخمسين جنيهًا صحيحة وقدمها له ، فنظر إليه محمود وصعبت عليه نفسه فبكي ، فربَّت السائق على كتفه ، وقال :

-يابنيَّ ، كلنا معرضون لهذه الظروف ، ألسنا مسلمون؟، ولابد أن نساعد بعض ، خذ وامسح دموعك أنا مثل أبيك، أي نعم لست على قدر المقام لكن عندي أبناء في سنك .

-لا تقل ذلك،أنت شرف لأيّ ابن ،شكرًا ، وربنا لايرميك في ضيقة .

أخذ منه المال ، وقال وهو ينظر فيهم :

-أحتاج لثلاثة جنيها ات فقط ، هذا كثير .

أعرف ذلك،لكن لا تضمن الظروف،قد تضطر أن تركب تاكسي،امسك ولا تخذلني اللقاء نصيب ، لا تقلق ما عند الله لا يضيع .

شكره ونزل ، وتحرَّك السَّائق بسيارته،وحيَّاه من بعيد فردَّ له التحية،انتظر قليلًا،إلى أن وجد حافلة متجهة للجيزة،ركبها وهو خجلان من نظرة الناس إليه،ركب وقعد جنْب الشباك ونزل في ميدان الجيزة،انتظر حافلة متجهة إلى المؤسسة فلم يجد،قعد على الرَّصيف،وأخذ ينظر في الميدان ويُقَلِّب نظره،فوقعت عيناه على شرفة معلقٌ بها لافتة مكتوب عليها (العلم والإيمان للتجارة والبيع)،ابتسم في سخرية ، وقال:

- صح إنهم للبيع وللتجارة في بلدنا .

جاءت حافلة،فركبها وهو خجلان أيضًا من الناس التي تنظر إليه في ازدراء وقعد جنب النافذة،وأخذ يفكِّر فيما حدث، ويتكهَّن بما أصاب أهله من بعده وموقف الشركة منه والأهل والجيران،وصلت الحافلة لميدان المؤسسة،نزل منها،ثمَّ ركب حافلة متجهة إلى قليوب ، وكانت شبه خالية لأنه لايوجد أحد يعود إلى قليوب في هذا الموعد ، ووصل أخيرًا .

كانت الساعة العاشرة صباحًا حينما وصل،وكان الشارع هادئًا وشبه خال من المارة،والمحلات لم تُفْتَح بعد. لم يرَ أحدًا من الجيران ودخل مسرعًا العمارة وصعد إلى شقته وفتح الباب، ودخل فلم يجد أحدًا،توقع أن تكون أمُّه في السوق وشقيقته في الكلية، دخل الغرف،فتعجَّب حينما لم يجد الأثاث- الذي

ذهب إلى بيته في القرية -،شعر بالخوف ذهب إلى التليفون واتصل بأخته ، وقال بدون سلام ، أو تحية ، وبصوت مُتْعب :

-أنا في البيت ، أين ماما؟ ، وماذا حدث لأخوتي؟

-يا حبيبي يا أخي،الحمد لله على سلامتك،قالتها وهي تبكي .

-أين أمِّي وأخوتي؟

-بخير ، هم في البلد لا تتحرك،سأبلغهم،خمس دقائق وستجدني أمامك .

-حاضر ، مع السَّلامة .

وضع السَّمَّاعة ، وقعد على السرير يفكِّر ، ثم مدَّد من شدة التعب ، وأفاق على طرق الباب،فتح فوجد أخته أمامه ، ألقت بنفسها في حضنه،وأخذت تبكي وتحمد الله على نجاته ، نظرت إليه فذهلت من هيئته ، وطلبت منه أن يستحم ويحلق ذقنه ؛ لكيلا يروه وهو على هذه الحالة ، قال لها :

-لا أستطيع أن أرفع ذراعي إلى أعلى،ذراعاي يؤلماني بشدة،ولا أستطيع أن أحرك الفرشاه ، أوأمسك ماكينة الحلاقة، ولست قادرًا على أي شيء ، أنا سأستحم فقط،وبعد ذلك يحلها ألف حلال .

-اذهب إلى الحمام ، وأنا سأحضر لك الملابس .

طلب منها أن تغسل رأسه؛لأنه لا يستطيع أن يغسل شعره. وضع رأسه تحت صُنبور المياه،وأخذت تغسل له شعره،ثمّ بعد ذلك فكت أزرار قميصه وبنطلونه وخلعتهم وخرجت، فأكمل خلع باقي ملابسه،ونزل تحت الماء وترك جسده تحت الماء الدافىء،وأخذ يزيل الأوساخ بقدر استطاعته ، ثم ارتدى ملابسه الداخلية ، وارتدى جلبابه الواسع ونظر في الساعة ، وقال "لم أصلِّ صلاة الصبح" ، فصلَّى وهو قاعد ، ثم مدد على فراشه .

سمع طرقًا على الباب،فتحت أخته الباب بسرعة،فدخلت أمه وتبعها زوجات أعمامه وعمَّاته وأم عفيفي،حضنته وأخذت تبكي بحرقة وتشكر الله،ثم هالها منظره، فقد كانت عيناه حمراء، وذقنه طويلة وغير مُهَذَّبة،ووجهه أصفرٌ شاحب،وجسده الذي قد نحل ، وشعرت أنه كبر أكثر من عشرين عامًا ، ظل ساكتًا ومتماسكًا وطلب منهم أن يتركوه وحده ؛ لأنه لا يريد شيئًا غير النوم ، تركوه فمدد على سريره ونام ، ولم يشعر بأحد .

استيقظ قبل صلاة المغرب،فوجد أمه وشقيقته وزوج أخته وأبناء أخته،أما الباقي فعادوا إلى القرية،ما عدا أم عفيفي التي صممت أن تبقى؛لتطمئن عليه وتعرف منه كلَّ شيء عن ولدها عفيفي .

لم تنقطع زيارات الأهل والجيران والأصدقاء ، الكل يريد أن يطمئن عليه ، حكى لكلٍّ من جاء عن كل شيء ، وشعر لأول مرة ، بأنه محور اهتمام الناس من حوله وشعر بحنان أمه الذى افتقده منذ وفاة والده بسبب قيامها بدور الأب والأم معا ، فشكر الله على شعوره بهذا العطف والحنان .

عودة محمود

-"أبو داوود ، رجع يا اخوانا". صرخة أطلقها محمد غريب عامل البوفيه،بمجرد أن رأى أبي داوود أمامه في مدخل الشركة، وجرى في أنحاء الشركة ودخل كلَّ المكاتب؛ليبلغهم الخبر ثم جرى نحوه وحضنه وقبَّله ودخل معه إلى مكتبه،وتبعه كلُّ الموظفين ثم مديرة الشركة ، ثم صاحب الشركة ، الكلُّ حيَّاه وسلم عليه وهنأه بسلامة الرجوع،وبعد أن انتهوا من السلامات والترحيبات،طلب منه صاحب الشركة أن يدخل إلى مكتبه ، بعد أن ينتهي من التسليم على موظفي الشركة .

دخل مكتبه ، وشعر بالحنين إليه،طلبت منه نرمين، أن يقعد أمام مكتبه ، وقالت :

-مكتبك يا أبا داوود،لم يقعد عليه أحدٌ منذ أن غبت، المهندس أشرف رفض أن يأتي برئيس حسابات جديد حتى تعود .

قاطعها عماد ،وقال :

-لقد تعاهدنا أنا ونرمين ، على أن ننجز العمل كله ، ولا ندعه يتراكم علينا حتى أننا كنا نسهر ولم يهمُّنا ، ومكتب المحاسبة لم يتأخر علينا من أجلك،كلهم أصدقاؤك ويحبوك وكانوا يأتون مرة كل أسبوع ؛ ليشرفوا على العمل حتى تعود.

قالت نرمين :

-شكلك تعبان جدا ، لماذا جئت و لم تسترح ؟

لمح عدم وجود خاتم الخطوبة في إصبعها ، لكنه لم يتكلم ، وقال :

-شعرت بأنِّي أريد أن أراكم ، فجئت .

-أنرت مكتبك ، إنه أسعد يوم عندي،إن أمي ظلّت تدعو لك في صلاتها هي وجميع أفراد بيتنا ، أنت تعلم أنهم يحبونك ويطمئنون عليَّ ، وأنا أعمل معك .

-الله يكرمهم .... قالها بهدوء .

-الشركة كانت مظلمة وبلا طعم بدونك ، والله يا أستاذ محمود.

-شكرًا يا عماد .

دخل محمَّد وقدَّم له كوب شاي بالنعناع ، وقال :

-شاي بالنعنان ، كما تحب وفي الكوب المفضل عندك ، منذ أن غبت عنا ، أخفيته في دولاب البوفيه ، ولم يشرب منه أحد ، أنا أحبُّك جدًا يا أستاذ محمود.

-الله يكرمك ، ما هي أخبار ابنك سالمين؟

-الحمد لله بخير،أنا سأشتري "سندوتشات فول" من على العربة،التي تحبها وعلي حسابي وإياك أنِ ترفض،لكيلا أحزن، أنت خيرك علينا جميعًا .

-شكرًا يا محمد .

تركهم ، ودخل لصاحب الشركة كما طلب منه ، فسلّم عليه وحضنه ، وقال:

- حاولت أن أساعدك ، لكني لم أستطع .

-أعرف ذلك .

-احكِ لي عن كل شيء .

حكى له عن كلّ شيء بصدق،وبمجرّد أن انتهى من الحكي،قال صاحب الشركة :

-لا يهمُّك أي شيء ، أنت رجل ولم تفعل أي شيء تخجل منه ، المهم لا تجعل هذه الحادثة تؤثر على حياتك ، أريد أن تعود لحياتك وتبتسم،وتضحك بصوتك العالى الذي أغتاظ منه ،وأريدك أن تضايقنى بحلالك وحرامك ، كما كنت تفعل.

ضحكا كلاهما ، ثم قال صاحب الشركة :

-هل تعرف أن الشركاء طلبوا مني أن أفصلك ، وأعين رئيس حسابات جديد ، لكني رفضت ، هل تعرف لماذا؟

-لا .

-لأني أحبك ، لأنَّك تُذَكِّرني بأيام شبابي حينما جئت من قريتي بكبريائي وطهارتي ونقائي،لكني تلوثت في المدينة بعد ذلك ، أما أنت فمازال عندك نفس القيم والمثل التي لم تغيرها ، و لم تشتكِ منك أيُّ موظفة منذ سبع سنوات ولا أي موظف ، حتى الذينَ كانوا يتجسَّسُون عليك لم يذمُّوا فيك،وكانوا يشكرون فيك .

-يتجسَّسون عليَّ! ....قالها في تعجب .

-نعم ، لا تتعجَّب أنا هنا جالس في مكتبي،ولابد أن أعرف كلَّ شيء في شركتي ، لذلك لي عيون خاصة بي ، لا تتعجب أنت لو في مكاني ستفعل مثلي، المهم أنهم جميعًا كانوا يشيدون بأمانتك ، لذلك كنت أحبك وأتحمَّلك حينما يعلو صوتك عليَّ في بعض الأحيان،عرفت لماذا أنا أحبك،لأنك عملة نادرة في هذا الزمان،وتذكرني بشبابي،لذلك صممت على عدم استقدام رئيس حسابات جديد بدلا منك،ولو طالت أيام غيابك لن يهمني،وكنت سأعتبرها إجازة مدفوعة الأجر.

- أشكر حضرتك كثيرًا .

-لا شكر على واجب ، إذا أردت أن تعود للعمل الآن ، ادخل مكتبك واشتغل.

-أريد أسبوعًا ، لقد خرجت منذ ثلاثة أيَّام وأنا تعبانٌ جدًا، لكنِّي جئت من أجل أن أطمئنَّ على موقفي في الشركة ، أنا

سأكشف على جسمي كله،لكي أطمئن،لقد عذّبوني كثيرًا، لكي أعترف على أشخاص لم أعرف عنهم شيئًا .

-ولا يهمك ، إن شاء الله خيرًا ، ألف سلامة ، أنا موافق .

تركه ، وعاد إلى مكتبه فوجد عز صديقه- الذي لم يكن موجودًا عند قدومه- قاعدا في انتظاره،وبمجرد أن رآه ،قام من على الكرسي،وصدم لشكله الذي تغير وجسمه الذي نُحِلْ، ووجهه الذي تقلّص ، فاحتضنه وبكى ، وقال:

-الحمد لله على سلامتك،ورجوعك يا محمود يا صديقي، الحمد لله على عودتك ، يا ليتني كنت مكانك .

-لا تتمنَّ ذلك أبدًا .

-كلُّنا فداك يا أبو داوود .

- لقب "أبو داوود" هذا هو سبب كل المصائب...قالها، وهو يضحك .

- لماذا؟

-أقسمت مائة يمين ، أنك الذي أطلقته عليَّ ؛ لأني مثقف لكنهم كذّبوني ، واعتبروه الاسم الحركي الخاص بي في التنظيم.

-كيف ذلك؟

حكى له عن كلّ شيء ، ثم تناولوا الإفطار مع بعض ، ثم تركهم وأخبرهم بأنه سيحضر للشركة بعد أسبوع ، خرج معه عز إلى باب المصعد ، وفتحه له وودَّعه ، ثم دخل الشركة ، وقال :

-كان الله فى عونك ، الله يجازي من كان السبب في كلّ ما حدث لك من عذاب .

بعد أن غادر الشركة ، نزل إلى وسط البلد واشترى كتاب "فقه السنة" واسطوانات تفسير القرءان للشيخ "الشعراوى" ، ثم عاد لمترله بعد أن صلى العصر في المسجد .

قعد بمفرده بعد صلاة المغرب،وقام بتشغيل اسطوانات تفسير القرءان، وأخذ يستمع لتفسير سورة الأعراف،فقال بعد أن استمع للتفسير :

-فهمت الآن ما كان يقصده عفيفي ، أنا من أهل الأعراف الذين لم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار أي تساوت حسناتهم مع سيئاتهم ، ويطمعون في رحمة الله ويتنازع عليهم أهل الجنة وأهل النار، كلُّ واحدٌ منهم يريد أن يجذبه معه ، وهم خائفون من دخول النار ويتمنَّون العفو من الله ودخول الجنة ، صح ، لقد حلَّلني صديقي صح،الآن فهمت ما كان يقصده عز، حينما سخر مني ، وقال :

-إنك ، لن ترد على جنة ، ولا على نار .

-لماذا؟

-لأنك تعرف كلّ شيء عن الفساد بكل أنواعه ، والذي لا يعرفك يظنُّك من أكبر الفاسدين،ولكنك لا تفعل أي شيء منه،وفي نفس الوقت أيضًا ، تعرف معلومات كثيرة عن الدِّين، وبك صفات كثيرة حميدة،ولا تفعل المعاصي مثلنا،لكنك في نفس الوقت غير مواظب على شعائر الدين،ولست من الصَّالحين .

قال بعد أن أغلق الجهاز :

- هل معقول أنِّي هكذا ، كما يقول عفيفى وعز ، وهل يرون بهذه الصورة،وأنا لا أعرف ولا أرى حقيقتى ، وأنا الذى أُحَلِّل كلّ الناس ، أنا أريد أن أرى حقيقتى ، أنا أريد أن أغيِّر نفسى،أنا أريد أن أكون مرتاح البال،لا بد أن أبحث عن أمراض نفسى وأعالجها، لا بد أن أكون من أهل اليمين لا من أهل الشمال،أنا أستحق أن أكون من أهل اليمين ، لقد عرَّضني الله لهذه المحنة ؛ لكي أراجع حياتي وأغيِّرها ، نعم ، الله أراد أن يهديني ، فعرَّضني لهذه المحنة ؛ لكي ارجع له واغير حياتي .

جاءت في ذهنه كلمات الرجل الوقور الذي قابله في وسط البلد بعد موضوع لمياء "إنَّ الله لا يترك عبده المؤمن يقع في

الحفرة دون أن ينبِّهه ، ويكون التنبيه حسْب درجة إيمانه أو عمله ، وعلى الشخص أن يتنبّه لكلّ ما يحدث له ، ويحلله ."

-صح ، هذا هو التنبيه . لقد أرسل الله لي من ينقذني من الوقوع في الحفرة العميقة ، حسب عملي ، وأنا لن أفيق إلّا إذا تعرضت لصدمة عنيفة تغيِّر حياتي وتجعلني من أهل اليمين ، وأنا تعرَّضت لهذه الصدمة ولا بد أن أتغير للأفضل ، يا رب ساعدني.

مصالحة ومصارحة

طرق باب الْغرفه ودخل،دُهش محمود،حينما رآه واقفًا أمامه، أغلق الكتاب الذى كان يقرأُ فيه،وقام وعانقه بشده، وقعدا على السرير مثل زمان وكأن ليس بينهم أي خلاف، أو عداوة ، قال حسين بلهجة بها ودّ وحب :

-الحمد لله على رجوعك بالسلامه ، لقد عرفت بالأمس .

-الله يخليك..كيف حالك؟

-الحمد لله أنا بخير ، المهم أنت يا صديقي .

-الحمد لله على كلِّ حال،أصبحتُ إرهابيًا في نظر الجميع،وخائنًا وعميلًا في نظر أمن الدولة،وأنتظر الشماته والبعد عني من الجميع ، وأنتظر القبض عليَّ من أمن الدولة في أي وقت ، وفى أيِّ لحظة .

-ماذا حدث ؟ إحكي لي ، أريد أن أعرف بالتَّفصيل ، وما هيٍ حكاية عفيفي التي سمعتها من أمك،إحكي ولا تُخْفِ عنِّي شيئا .

حكى له بالتَّفصيل عن كلِّ شيء،وحسين منصتٌ باهتمام، حتى انتهى من القص ، فقال حسين معاتبًا :

-كلُّ هذا يحدث ، ولا تقول لي أنت ولا عفيفى ، ألستُ صديقًا لكما .

-بلى ، لكن عفيفي خاف أن تقول لأصدقائك الأجانب بدون قصد ، وأنا لم أقل لك ؛ لأني لم أعرف عن سفره إلى العراق إلا قبل السفر بيوم واحد ، واحترمت رغبته في ذلك ، لذلك كنتُ مُصِر على توديعك له في الصباح ؛ لأني متأكد من عدم رجوعه إلى هنا مرة أخرى.

-كلٌ هذا يحدث ، وأنا نائم ، ولا أدري بما يدور حولي .

-أنت الذي ابتعدت عنَّا وأهملتنا،وأصبحت حياتك مقتصرة على الجلوس،والحضور في حفلات الأجانب والسفارات الأجنبية .

-معك حق ، أنا مخطيء ، حقّك عليَّ ، وسامحني .

-أنت تعرفنى أكثر من نفسى،أنا مستحيل أن أحمل لك كرهًا،أو حقدًا عليك، دل الذى حدث هو أننى شعرت بأننى أصبحت درجة ثانية ؛ وأنت تع ف أنّني ، أحب أن أُعامَل بمثل ما أُعَامِل .

-سامحنى والله ، أنت في قلبى وعقلى دائمًا ، وأعتبرك مرآة لي أرى فيها عيوبى كلها ، وأضحاك أمامي دائمًا .

ضحك ، وقال :

-قد تكون هذه المحنة سببا في رجوعنا لبعض مرة أخرى .

-إن شاء الله ، لن نفترق وحذارِ أن تبتعد عنِّي ، حتى لو أنا الذى ابتعدت .

-حاضر .

-وانسَ كلَّ الماضى،ولا تجعل هذه الحادثة تؤثر فيك، وانظر دائمًا للأمام ودعك من السياسة وأحوال البلد،وعش حياتك واستمتع بها،لقد جفَّ حلقى من كثرة إقناعك بجمال الحياة في الغرب .

-بمناسبة الغرب ، يوجد شيء محيرني ، ولا أجد له تفسيرًا .

- ما هو ؟

-كلام ضابط أمن الدولة لي عند خروجي من هناك .

-ماذا قال؟!

-قال إن السفارة الأمريكية هي التي توسطت لديهم ؛ للإفراج عني،وأنني أصبحت في نظرهم عميلًا للأمريكان وخائنًا للعراقيين،أنا سأجن أنا لم أعد أفهم أيَّ شئ،من الذى أبلغ السفارة الأمريكية بخبر القبض عليَّ؟ .

-أنا الذي توسطت لك لديهم؛لكى يتدخَّلوا للإفراج عنك.

-أنت!.. قالها في دهشة.

-نعم،لماذا تتعجب هكذا؟ أنا لست بهذا السوء كما تظن ، أبيع كل الناس إلا أنت يامحمود،أنت لا تعرف مقدار حبِّي لك.

-أنا خمَّنت ذلك،لكنى استبعدت ذلك،وقلت مستحيل أن تتدخل في مسألة شائكة مثل هذه .

-أعرف أنها مسألة شائكة،لكنك شقيقي،ولست صديقًا لي،شقيقي الذي أتعرَّى أمامه ,أكشف جميع عيوبى أمامه ، ولا يهمنى،هل تشك لحظة واحدة في حبِّي لك؟أنا إنسان،ولستُ جمادًا .

- أعرف ، لكنِّي لم أتوقع دلك ، إن أمى لم تقل لى شيئًا .

-أنا الذى طلبت منها ذلك ، بعد أن توسّطت لك .

-لماذا ؟

- لكيلا تتضايق،وتشعر بأننى صاحب فضل عليك،وأنت دائمًا تحبُّ أن تكون صاحب فضل على كلِّ من حولك، وخاصة بعد أن انقطعت علاقتنا ببعض .

-أنا كنت أظن أنَّ عمِّي فتحي هو الذى توسَّط لي عندهم، وكنت مندهشًا،وكنت أسأل نفسى كيف عرف موظّفي السفارة؟ كل من جاء إليَّ لزيارتى ، قال لي هذا الكلام ، وهو

ذات نفسه قال هذا الكلام ، وقال إن الحزب هو الذى توسَّط للسَّفارة ؛ ليفرجوا عنِّي .

- أنا الذّي توسَّطت لك،لا تشغل بالك بهذه التفاهات، المهم عندي أنك خرجت بالسلامة.

-وكيف توسَّطت لي ؟

-أنت تعرف أنِّي أصبحت صديقًا مُقَرَّبًا لأعضاء السفارتين البريطانية والأمريكية ، ولي صديق أثق به جدًا ، وَيَشْغَلُ وظيفة الملحق السياسى للسِّفارة الأمريكية ، فكلمته بعد تردُّد .

-بعد تردُّد .

-نعم،لن أخفي عليك،لقد تردَّدْت في باديء الأمر وخفت على مستقبلي السِّياسى،وخفت أن أُوضع في القائمة السوداء وتضيع كلُّ أحلامى،لكنِّي حسمت أمرى بعد تردُّد،وتخيَّلتك وأنت تُعَذَّب وتصرخ ، وتستنجد بى وبعفيفى،فأقسمت على أن أفعل لك أيَّ شيء دون تفكير،فذهبت لمايكل صديقي وحكيت له عنك وعن مشكلتك،وأقسمت له أنك بريء ؛ لأنني أعرفك جيدًا وأن أى شخص في مكانك سيفعل ما فعلته، وليس معنى أن يكون لي صديق يحارب في العراق،أنني إرهابي مثله ودلّلْتُ على رأيي،وقلت له إن الأمريكان يحاربون في العراق ويقتلون أبرياءً هناك،ولا يتعرَّض أيُّ أمريكي هنا

للأذى،وقد يَقْتُل جندي أمريكي مواطنًا عراقيًا بريئا في العراق، وشقيقه يعمل هنا في مصر ، ولا نعتبره قاتلًا مثل شقيقه،ليس ذنبنا أننا نؤمن بأفكار مختلفة مادمنا لا نؤذى أحدًا،فاقتنع بكلامي وتوسَّط لك،وأفرجوا عنك بعد أن وجدوك بلا نشاط سياسي خطير عليهم ، هذا كل ما حدث .

-ألم تخف على مستقبلك؟

-لقد قلت لك ، لم أبالِ بأيِّ شيء غير خروجك من المعتقل وأن أراك سليمًا ، لم يعد غيرك صديقى ، عفيفى مصيره الموت أو الأسر أو الغربة إلى الأبد ، وأمَّا الباقي فهم إما منافقون يريدون التقرب مني ، أو معارف أعرفهم ليساعدونى في حياتى، أما أنت فصديقي المخلص الذى لن أجد مثلك مرة أخرى .

-أنا لا أعرف ،كيف أشكرك ؟

-لا شكر على واجب ، لو أردت شكري حقًا،فأحضر لي زجاجة مياه غازية مثلجة،هل ما زلت تشربها؟ أم قاطعتها؛ لأنها من عند الأعداء ، أم أنك أصبحت بخيلًا ونسيت كرم الضيافة، أين كرم الضيافة يا إرهابي وأين والدتك هل نستنى؟

ضحك محمود ، وقال :

-أكيد مشغولة بالضيوف الكثيرين الذين يأتون ؛ ليهنِّئونى على سلامة الخروج.

-هنيئًا لك ، لقد أصبحت شخصية معروفة في الكفر وفى قليوب ، والكل يريد أن يعرفك ويسلم عليك ، لقد أصبحت إرهابيًا شهيرًا ،أصبحت أشهر من بن لادن .

-اسخر كما تشاء ، دقيقة ، وسأرجع لك .

خرج وأغلق الباب خلفه ، فنظر حسين إلى المكتبة العامرة بالكتب ، وقال ساخرًا :

-أنتم الذين أضعتموه ، لوسمع كلامي وباعكم في السوق، لربح كثيرًا لكنه عنيد ويحب الفقر .

عاد وهو يحمل صينية عليها زجاجتين مياه غازية ، ووضعها بينهما على السرير ، وقال :

-تفضل .

تناول الزجاجة وشربها على مرَّتين ، ثم أخذ زجاجة محمود وشربها ، وقال ضاحكًا :

-أنا عطشان من كثرة الكلام ، اذهب وافتح لك زجاجة أخرى .

-بالهناء والشفاء،أنا أكرِّر مرة أخرى شكرى العظيم لك .

-سأقوم،وسأتركك إذا تكلمت في هذا الموضوع مرة أخرى، يا ليتك تغيّر فكرتك عن الغرب وعن الأمريكان .

- لا لن أغيِّر رأيي ، هل تعرف أنَّك جعلتنى في نظر أمن الدولة عميل أمريكي وجاسوسًا على المقاومة ؟

-عدت للكلام الذى لا أحبُّه ، أن تكون في نظرهم عميل أمريكي أحسن من أن تكون في نظرهم عضوًا في تنظيم القاعدة،العمالة للأمريكان أصبحت الآن فخرًا،الكل يستجدي أمريكا لتقبله معها .

- مثلك تمامًا .

-عدنا لقلة الأدب مرة أخرى ، أرجوك غيِّر الموضوع ، هل تشك في أحد من معارفك ، أو أصدقائك أو أقاربك ، وتظن أنه بلَّغ عنك ؟

- لا .

-هل قلت لأحد عن موضوع عفيفي ؟

-نعم ، لقد قلت لعز ولنرمين ، ولعمٍّ يونس .

قال حسين غاضبًا :

-قلت لكلٍّ هؤلاء ، و لم تقل لى .

-لقد كنت بعيدًا عني ، وخفت من صلتك بالأجانب ، وخفت أن تضعف أمامهم .

-أكيد واحد من هؤلاء الثلاثة .

-مستحيل ، إنهم أصدقائي ويحبوني ، ولا يمكن أن يبلّغوا عني ، مستحيل ولو كانوا فعلوا ذلك لقبضوا عليَّ من زمان ، إنهم يعرفون كلَّ شيء منذ بداية الحرب ، منذ أكثر من تسعة أشهر.

-قد يكونوا أوقعوا بك عن غير قصد .

-- كيف ؟

-إذا خرج السِرُّ عن اثنين ،لم يعد سرًا،من الممكن أن يكونوا قد تكلّموا أمام أحد بدون قصد ، وهذا الشخص له صلةٌ بأمن الدولة ، وأنت تعرف الشعب المصري يحبُّ الكلام ، ويحب يخدم .

-ما حدث قد حدث ، الحمد لله أنك قد جئت،أنا أريدك في أمر هام يخص حياتي كلّها .

-قل ، هل ستجاهد مع عفيفى ؛ لتنتقم من الذين عذّبوك مثلما يحدث في الأفلام ، وتريدنى أن أساعدك على الهرب من مصر وأُمِدُّك بالسلاح الأمريكي؟،قل أنا تحت أمرك ، قل ولا تخجل .

-أنا لا أضحك،أريد أن أسألك سؤالًا،وأريد منك الإجابة عليه بكلِّ صراحة؟

-سَلْ كما تشاء .

-ما رأيك في ؟

-بدون إجابة ، أنت تعرف رأيي فيك ، ولولا حبِّي لك لما عرضت مستقبلى للخطر .

-لا أقصد ذلك ، أنا أريد أن أُقيِّم حياتى ؛ لأصلح من نفسى ، ولأغيرها ، تجربة المعتقل جعلتنى أفيق وأراجع نفسي ، أنا أسألك لأنك صديقي الذى لا أخجل أمامه،أنا أريد أن أعرف حقيقتي ، ورأيك في بكل صراحة .

-وبدون أن تغضب .

-لن أغضب ، أعِدُك بذلك .

- أنت تمتاز بالطِّيبة وحب الآخرين والتفاني في خدمتهم والنصح لهم بكل صدق ولا تفعل معاصي كثيرة مثلى ، ولا تعرف بنات ولا تسهر ، ولا تقعد على المقاهي حتى الصباح ، ولم تؤذِ أحدا من قبل ، وصادق وصريح مع الآخرين ، وهذا ما يجعلَ معظم الناس تحبُّك وتصادقك ، أما عيوبك -وأنت الذى طلبت منِّي أن أقول لك بكلِّ صراحة- فأبرزها : أنك يائس ومتشائم وترى الحياة كلها سوداء ، وتقف في مكانك ، ولا تريد أن تغيِّر حياتك وتجعلها للأحسن ، وتَشْغل بالك بمن حولك ، وتنسى نفسك ، ولا تريد أن تتقدَّم خطوة واحدة للأمام ، وتتعلَّل بالظروف ورضيت أن تكون مجرد موظف في شركة ، بالرغم أنك تمتلك إمكانيات أعلى منِّي ، فأنت شديد

الذكاء وسريع الفهم ، وقادر على تعليم نفسك بنفسك ، ومثقف جدا وسلوكك يتلاءم مع سلوك عالم أو قاضى كما قلت لك من قبل ، لكنك لا تستغلّ كل هذه الميزات ، وتضيع وقتك في القراءة والثقافة ، ولا تستفيد منهم بشىء ولا تُدرّ عليك الثقافة ، أي عائد ماديّ أو معنوى .

- وهل الإنسان يتثقف ؛ لكى يحصل على مال نظير ثقافته، إن الثقافة غذاءٌ للروح وللنفس ، وليس للبطن .

-أعرف ذلك ، لكن الواحد يتثقف بعد أن يكون قد وصل لدرجة عالية في علمه وتخصصه ، لا أن يترك علمه الذى يعمل به ويأكل منه عيشًا ، ويكون ضعيفًا فيه ، ويقرأ ويتثقف في أشياء لا تدر عليه بأى شيء،أنا مثلا أعترف بأنّني غير مثقف، وأسرق أفكارك وآراءك،وأتكلّم بها في الاجتماعات والندوات، لكنّنى على درجة عالية من الفهم والعلم،لتخصصى في القانون وفى اللغة ، ودائمًا أحصل على دورات في اللغة وفى القانون ، وأنت الذي أشرت عليّ بذلك ، صح أم خطأ .

-صح .

-نصحتك ألف مرة ، بأن تحبَّ المحاسبة وتحصل فيها على دورات؛لتقوّي نفسك،لكنك لا تسمع كلامى ، حتى أصبحت محاسبًا عاديًا وفى شركة عادية ، تتقاضى راتبًا قليلًا ولا تستطيع أن تحقق أحلامك،وقد سبقك الأقلّ منك علمًا وسلوكا

وخبرة،وركبوا سيارات،وتزوجوا وأنجبوا،وأنت دافن نفسك في عمل لا يعود عليك بأى عائد غير وجع القلب،ومضيع مالك على شراء كتب لا تفيدك بشيء،وأصبحت وحيدًا وحزينًا ويائسًا وناقمًا على كلّ شيء،وأصبحت واقفًا في مكانك ، والكلّ يجري من حولك وأنت لا تشعر،الفرق بيني وبينك أنّي مثلك أرى الحياة سوداء ، لكنّي أحاول أن أغيّرها للأحسن حتى ولو كنت أغيّرها للخطأ،لكنّي أحاول، أما أنت فواقف لا تتحرك،تسُب فقط،ولا تفعل أيَّ شيء ، ومؤمن دائمًا بنظرية المؤامرة والظروف المعاكسة .

-أنت تعرف،أنّي لا أحب المحاسبة ، وكنت أتمنّى أن أصبح أديبًا .

-لن أقول لك كلام شعارات ، كما تقول أنت دائمًا ، لكن سأقول لك شيئًا واحدًا ، إختر شيئًا واحدًا فقط ، وصمِّم عليه وحارب الدنيا كلها من أجل تحقيقه ، حتى ولو طال بك الزمان،المهم أن تصمِّم عليه ولا يهمُّك أحد،ركّز في شيء واحد؛لتتفوق فيه، أنت تحب الأدب والحاسب الآلى ، وتعمل بمهنة المحاسبة ، ثلاثة اتجاهات مختلفة ، اختر اتجاه واحد و سِرْ فيه وتفوق فيه ، أنت محاسب ولك خبرة ، لماذا لا تتفوق في المحاسبة وتدعم خبرتك بدورات ولغة،وحينما تقف على قدميك ، مارس هواية الأدب مرة أخرى ، جرِّب النجاح ولو مرة واحدة،إذا ذقت طعمه،ستتغير نظرتك للحياة،اسمع كلامى

ولو مرة واحدة ، لقد سمعت كلامك وتغير حالى كما ترى ، جرِّب ولن تخسر إذا نجحت في المحاسبة ستحبُّها ، وستغيِّر رأيك فيها ، حينما تجدها تحقق لك أحلامك ، أنا مثلك لا أحبُّ القانون،أحبُّ كرة اليد،لكنَّني أَحْبَبْتُ القانون ، حينما وجدت أنه يحقِّقُ لي أحلامى ، لقد وهبنى المال والسلطة والاحترام والهيبة ، فلماذا لا أحبه؟! ، وفى نفس الوقت ألعب بين الحين والآخر كرة اليد التي أعشقها ، الهواية لا تتعارض مع العمل ، تفوق في المحاسبة ومارس هوايتك في نفس الوقت ، جرِّب ولن تخسر ، اشترى كتب محاسبة حديثة ، وخذ دورات لغة ، واقرأ في موسوعة اللغة التى أحضرتها لك ، وقوِّ نفسك .

-لقد سُرِقَت .

-سُرِقت! من الذي سرقها ؟

-طمع فيها ضابط أمن الدولة،كما طمع في قلمي الحبر وساعتى الذهبية ومصحفي،وكتبى السِّياسية ، لقد أقسم كلُّ من في البيت أنَّ هذه الأشياء اختفت بعد القبض عليَّ .

-يا أبناء اللئام،إنهم يفعلون نفس الأشياء التى يفعلها الأمريكان في العراق حينما يفتِّشون البيوت، بحثا عن إرهابيين.

-نعم،إنهم لا يختلفون عنهم كثيرا،الفرق فقط أنهم أجانب ، والحمد لله أنك اعترفت بأنهم لصوص .

-ولا يهمك،سأحضر لك غيرهم ، لكن أهمُّ شيء أن تبدأ ولا تتكاسل ، ولا تتراجع .

-حاضر ، وماذا أيضًا تراه عيبًا فيّ .

-أراك تضايقت ، لا أريد أن تغضب منِّي .

-لن أغضب ، أنا قلتُ لك أريد أن أرى حقيقتى بلا أى رِتُوش ، ولن يقولها غيرك .

- يوجد عيبٌ خطير، لا تأخذ بالك منه .

-ماهو؟ .

- عيبك،أن ليس لك مبدء تُصِرُّ عليه،وتدافع عنه ، وتواجه الناس بدفاعك عنه و..

غضب محمود ، وقال مقاطعًا :

-ماذا تقصد ؟ هل أنا بلا مبدأ ؟

-لا تسيء فهم كلامى،أنا سأشرح لك ما أقصده،ما رأيك في عيد الحب ؟

-بدعة ، وتقليد أعمى للغرب .

-وماذا كنت تفعل حينما يأتي عيد الحب ؟

-كنت أشترى هدية ، وأقدمها لخطيبتى .

-وما كان شعورك ، حينما كنت تشترى هذه الهدية ؟

-كنت أشعر بالضِّيق ؛ لأنى أراه عيدًا لا معنى له ، لكنِّي كنت أحتفل به وأنا مغتاظ ، وذلك نتيجة الضغوط التي من حولي .

-هذا ما أقصده ، إنك تعرف أن الفعل الذى تفعله خطأ ، ومع ذلك تفعله وأنت مغتاظ،ولا تعترض ولا تُصِرُّ على رأيك ولا تجاهر به،فعفيفى مثلًا كان لا يشتري أي هدية ، ويجاهر برفضه لهذه الأعياد ولا يهمُّه أحد ، مادام هو مقتنعًا بذلك ، وكان مرتاح النفس،وأنا عكسه لا أرى في هذه الأعياد أي شيء حرام،وأشارك فيها وأنا سعيد،أما أنت فتقول مثل عفيفي لكنك تفعل عكس ما تقول فتشعر بالتناقض والضيق ولا تشعر براحة عفيفي ولا بسعادتي،كن أحدنا إما أن تكون مثل عفيفي وترفض هذه الأشياء عن اقتناع ويقين ، وإما أن تكون مثلي تقبلها وتفعلها وأنت سعيد ، أنت مذبذبٌ بيننا ترفض الخطأ وتفعله،وتعرف الصواب ولا تفعله ، وتعيش دائما وأنت حزين وغير راض عن نفسك.

تذكر كلام عفيفي ، وقال :

-نفس الكلام الذى قاله لي عفيفي .

-ماذا قال ؟

-قال : إننى مثل أهل الأعراف .

-لا أفهم ، وضِّح ما تقصده .

-أي أنَّني مثل الذين لم يدخلوا الجنة ولا النار ، منتظرين رحمة الله ؛ لتنجيهم من النار وتدخلهم الجنة .

-صح،هذا ما أقصده ،كن أحد الاثنين لترتاح ، وأنا طبعا أراك تصلح لأن تكون من أهل اليمين،سلوكك ومبادئك وتفكيرك يؤهلوك لذلك .

- معك حق .

شعر بأنه تعرَّى أمام صديقه ، وشعر بأنَّه في موضع التلميذ، وليس في موضع الأستاذ كعادته ، فغضب وانتفض من حالة الدفاع والاستماع إلى حالة الهجوم ، وقال غاضبًا :

- وهل أنت الذى صح ، أنت كلُّ حياتك خطأ وتفكيرك خطأ ، أنت مثل أحد المسافرين بالقطار ، قطعت تذكرة درجة ثالثة إلى الاسكندرية وركبت قطارًا متجهًا لأسوان ، وقعدت فيه وأنت تعلم أنه ليس القطار الذى ستركبه،لكنك ركبته وقعدت فيه ؛ لأنك وجدته قطار درجة أولى ومكيَّف ، وحينما تحرَّك ، ظللت فيه ولم تنزل وأقنعت نفسك بأنه القطار الذي تريده ؛ لتستمتع بالركوب فيه .

قال حسين ضاحكًا :

- وأنت أيضًا مثلى ستركب هذا القطار وفي العربة المجاورة لي ، وأنت تعرف أنه ليس قطارك ، لكنك ستسبُّ وتلعن كلَّ

شيء ، وسترمي التهمة على الموجودين على الرصيف ؛ لأهم لم يبلّغوك بمكان قطارك الصحيح ، وستظلُّ في القطار حتى نهاية الرحلة ، ولن تنزل في أى محطة لتركب القطار الصحيح وطوال الطريق ستسب وستلعن ، ولن تستمتع بالتكييف ولا بالمناظر الخلاّبة الموجودة على جانبي الطريق مثلى ، هذا هو الفرق بيني وبينك ، لكنَّ عفيفي كان سيبحث عن قطاره المتواضع حتى يجده ويقف فيه وسط الزِّحام ، وطوال الطريق سيحمد الله على نعمة الصحة والمال والمواصلات ، هذا هو الفرق بيننا .

- معك حق ، ليتني كنتُ مثل عفيفى.

-وأنا أيضا ، إياك أن تزعل منِّي ، أنت الذي طلبت منِّي أن أصارحك بالحقيقة.

-الحقيقة دائما مرة ، لم أكن أتصوّر أنّني بهذا السوء.

-آسف لم أكن أقصد مضايقتك

-ولا يهمك أنا الذي طلبت منك ذلك لأتغيَّر ، وإن شاء الله سأتغيَّر للأحسن.

أبو داوود يتعرَّى أمام نفسه

بعد أن تركه حسين،قعد على السرير وأخذ يسترجع كلامهم مع بعض ، شعر بالضِّيق ، فقام ومشى فى الغرفة وأخذ يسُبُّ حسين بصوت منخفض :

-أنا يائس ، أنا فاشل ، أنا بلا مبدأ ، هذا رأيك فيّ يا عدو وطنك ، أنت الذي تتكلم عن المباديء يا عديم المباديء ، أنت الذي تنصحني ، وأنا الذي أنصحك طوال عمري ، أنا الذى أخطأت حينما طلبت منك أن تنصحني ، أنا أكرهك وأكره نفسي .

قعد علي السرير،وأخذ يستغفر الله كثيرًا ، ثم هدأت نفسه، خرج وتوضأ ، ثم صلَّى العشاء ، وعاد وقعد أمام مكتبه ، وأخرج مجموعة أوراق من درج المكتب وقلم ، وأخذ يسترجع الأحداث المهمة في حياته ، والأقوال التي يردِّدُها أمام الحاضرين ويعجبون بها ، والأفعال التي يفعلها كل يوم ، وكان صادقًا مع نفسه جدًا ، فكتب مايلي :

-أنا أقول ، أنا أريد زوجة تكون بنت ناس طيبين ، ولا يهمني أين تعيش؟ ، المهم أن تكون مقبولة بالنسبة لي ، ولكني كاذب لأني أريد أن أتزوَّج من القاهرة ؛ لأتباهى بذلك أمام

الناس ، ولكيلا أتساوى مع الآخرين وشرط عندي الجمال قبل كل شيء .

أما بالنسبة لعباداتي : فأنا لا أصلي الفجر أبدا حاضرًا ، دائمًا ما أصلّيه صبحًا بالرغم أني أستيقظ مبكرًا وأصلّي الظهر والعصر في العمل ، وأواظب عليهما ، لكني أصلّي الظهر قبل أذان العصر مباشرة ، وحينما أغادر العمل أسمع أذان المغرب في الشارع ولا أصلّيه في المسجد ، وأحيانًا يضيع عليَّ ، أما العشاء فكثيرًا ما تضيع عليَّ ولا أصلّيها ، لذلك لا أشعر بالسَّعادة التي يحكون عنها المواظبون على أداء الصَّلاة ، ودائمًا أشعر بانقباض في صدري حينما أستيقظ ، ودائمًا حزين ومتضايق ويائس ، ووجهي -دائمًا ما تقول عنه أمي إنَّه - حزين وذابل.

وبالنسبة للقرآن : فلا أختمه إلا نادرًا ، بالرغم أنِّي أضع نسخة مجزَّأة ، -اشتريتها لذلك -في حقيبتي ، حتى في رمضان بالكاد أختمه مرة واحدة ، ولا أصلّي التراويح ، وإن صلّيتها أختار مسجدًا قريبًا ، بشرط أن يكون الإمام فيه لا يطيل،ولا أواظب عليها طوال الشهر ، أقصى شيء أصلّيها لمدة أسبوعين، وأضيع الشهر في مشاهدة المسلسلات والبرامج،لذلك لا أشعر بأنِّي قد خرجت من هذا الشهر الكريم بتغيير ، وعمري ما تمنَّيت أن أموت شهيدًا ، ولم يخطر علي بالي أن أجاهد أبدًا.

بالنسبة لعملي:فأنا أقول أنِّي أحب الشركة ؛ لأني تعوَّدت عليهم وتعودوا علي ، ولن أتركها بالرغم أن راتبي فيها قليل، وهذا أيضًا كذب،لأنِّي أعرف مستوايا وخبرتي المحدودة ، ولن أستطيع أن أجد مكانًا أعلى فاستسلمت لهذه الشركة ، بالرغم من ضيق ذات اليد بها،وأعلم أن سعري في سوق العمالة قليل.

أما علاقتي بزملائي : فلا أؤذي أحدًا منهم ، ولا أتردَّد في خدمتهم ، وعمري ما كرهت أحدًا،وأسعد إذا ساعدت أحدًا، ولكني أنتقدهم دائمًا وأكشف عيوبهم أمام الجميع وأمامهم، كأنِّي خبيرٌ في النفس البشرية ، وافرح إذا وافقوني علي رأيي، بالرغم أني أغضب إذا انتقدني أحد ، لأني أظن أني أعلم منهم جميعًا وأكثرهم إيمانًا . ولا أرتكب معاصي مثلهم ، وعمري ما نهرت أحدًا على ارتكابه للمعصية ، وأقول ليس لي شأن ، لهم دينهم ولي دين !.

أمابالنسبة لخطوباتي السابقة : فتوجد أشياءٌ لا يعرفها أحد إلا أنا،وقد أخفيتها حتى عن أقرب الناس لي،وهذه الأشياء أخفيها ، ولا أريد أن يعرفها غيري .

آخر شيء هو : علاقتي بصلة رحمي وبأمي وأخوتي وباقي أقاربي،فأنا لا أشاركهم في أيِّ شيء لا في الفرح ولا في الحزن، أذهب بالكاد للتعزية وبالكاد للفرح،وأتعلَّل دائمًا بأني مشغول بالقراءة والعمل ، بالرغم أن لديَّ وقتٌ كثير أضيعه في مشاهدة

التلفاز ، أو النوم ، أو السير وحيدًا في الشوارع كالهائم على وجهه والجلوس بمفردي حزين في الحدائق العامة ؛ لأني لا أجد أحدًا يقعد أو يخرج معي ، لأن الكل قد انشغل بحاله وبحياته ، لذلك أشعر بأنّي وحيدًا وكأنّي في غربة ولا أعرف أحدًا .

بعد أن انتهى من كتابة كلّ هذه الاعترافات،طوى الأوراق ووضعها في الدرج ، ثم قعد علي السرير ، وقال لنفسه:

-معقول كلُّ هذه الصفات السيئة في ، لا بد أن أتغيَّر ؛ لأصبح إنسانًا سَوِيّ و أشعر بالراحة وبالسعادة ، أين أنت يا عفيفي؟ لو كنت معي لأخذتني من يدي وذهبت معي للشيخ جلال ، ليس مهمًا ، عفيفي ذهب إليه وكان لا يعرفه، وتحوَّل بفضله إلى إنسان آخر ، إن شاء الله سأذهب إليه وأطلب منه النصيحة لأصبح من أهل اليمين.

حياة جديدة .. بمبادئ جديدة

منذ أن عاد محمود للعمل،والكل لاحظ أنَّه أصبح إنسانًا آخر ، فلم يعد يتكلَّم كثيرًا ، ولم يعد يسخر أو يضحك على أحد ، وأصبح كلُّ همِّه أن ينجز عمله ، وأن يعلم نرمين وعماد كل العمل ، حتى أنهم تعجَّبوا من ذلك ، فسأله عماد ذات مرة:

- هل ستترك العمل يا أستاذ محمود؟

-لا ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

-لأنك تعلُّمنا كل العمل،وتنبه علينا بعدم النسيان، وشكلك يوحي بذلك .

-أنا أريد أن أعلِّمكم كل العمل،تحسبًا لأي ظرف طارق، أريد أن أطمئنَّ على العمل في وجودي وفي غيابي .

ومن الأشياء التي لاحظها زملاؤه عليه:حرصه علي صلاة الظهر والعصر جماعة في العمل ، وتشديده علي أصدقائه بعدم تركهم للصلاة ، وتهديده لهم بعدم مصاحبتهم إذا لم يصلُّوا .

ومن الأشياء التي لاحظوها أيضًا : خوفه وفزعه من رنين الهاتف ، لدرجة أنَّه يتردَّد كثيرًا قبل أن يرد ، وأحيانًا يجعل نرمين ترد بدلًا منه وتستفسر عن صاحب المكالمة أولًا ، ثمَّ بعد ذلك تُحَوِّله لمحمود ، وإذا جاءه ضيف أو عميل بدون موعد

سابق،يشعر بخوف وقلق،حينما يخرج لمقابلته في صالة الاستقبال.

أمّا في البيت:فقد لاحظوا أنه أصبح مواظبًا علي صلاة المغرب والعشاء في المسجد وعلي تلاوة القرءان قبل النوم ، وقد لاحظوا أيضًا فزعه وقيامه من النوم مفزوعًا إذا سمع جرس الباب ، أو إذا سمع صوت طرق على الباب ، وقد نبهت أمُّه علي أخيه بعدم الضغط علي الجرس ، أو عدم طرق الباب بشدَّة .

أصبحت حياته تسير علي هذه الوتيره عمل ، صلاة بانتظام، قراءة قرءان وبدأ الشعور الذي كان يستيقظ عليه يتلاشي تدريجيًا،وأصبح يستيقظ منشرح الصدر ومتفائلًا ، ويشعر بطعم النوم وبصحة في جسده .

خاف أن يسير علي هذا المنوال فترة ، ثم يعود كعادته إلى سابق عهده ، فقرَّر زيارة الشيخ جلال بعد صلاة الجمعة .

ذهب إلى القرية بعد صلاة الجمعة ، ومشى في شوارعها ولاحظ كثرة اللافتات التي تؤيد الحزب الوطني والرئيس مبارك،ابتسم وأكمل سيره حتى وصل لدوار الحاج فتحي، فوجده قاعدا في صدر المجلس وحوله رجال العائلة،ألقى عليهم السلام ، ودخل .

قام الحاج فتحي ، ورحَّب به وأقعده جنبه ، وقال :

-منذ فترة ،لم تأتِ لقريتنا .

-حضرتك عارف العمل ومشاغله ، وقد تراكم عليَّ العمل حينما كنت في المعتقل .

-ربنا يعينك .

- ويعين الجميع .

شرب الشاي ، واستأذن ، فقال الحاج فتحي :

-لن تمشي قبل أن تتغدى معنا .

-اعفيني،أنا مستعجل وأريد أن أزور أعمامي كلِّهم،وقبر أبي ، وعمَّتي أم عفيفي .

-هل أرسل عفيفي خطابًا لها .

ضحك محمود ، وقال :

-منذ أن قُبض عليَّ،وانكشف السر ، أصبحت العلاقة بين عفيفي وأمِّه مباشرة ، بدون وسيط وأنت تعلم أنه يكلِّمها بين الحين والآخر .

-كنت أريد أن أطمئنَّ فقط .

تركهم وذهب لبيت عفيفي،وقعد مع أمِّه وشقيقته ربع ساعة،ثم ذهب لبيوت أعمامه ، وقعد مع كلِّ واحد منهم عشر دقائق ، ثم قال لعمِّه الصَّغير حينما قام ، ليمشي :

-أنا مستعجل ،سأذهب للمقابر، ثمَّ سأعود لبيتي ؛ لأن أمي لا تأكل من غيري .

-سأرسل معك أحدًا من أبناء أعمامك .

-شكرًا يا عمي ، أنا أعرف الطريق .

تركه،وذهب إلي المقابر ثم إلى بيت الشيخ جلال بعد أن دلّه الناس عليه،وطرق الباب وكان الوقت بعد صلاة العصر بساعة.

فتح له أحدُ أحفاد الشيخ جلال،وأدخله الي حجرة الضيوف وأقعده ، وقال :

-أهلًا وسهلًا بك ، حضرتك ماذا تحبُّ أن تشرب ؟

-شكرًا .

-لا يصح ، إكرام الضيف من شعائر ديننا .

-أشرب شاي ، شاي مضبوط .

-حاضر .

أخذ يستجمع قواه . وأخذ يرتِّب أفكاره ، وأخذ يراجع ما سيقوله للشيخ جلال ، حينما يحضر.

دخل الشيخ جلال ، ورحّب به وقعد أمامه ، وقال :

-أهلًا . وسهلًا بك ، أنرت البيت .

شعر محمود بمهابة الشيخ جلال ، فقال في سرِّه :

-معك حق يا عفيفي ، إنه مُهاب الطَّلعة ، ثم قال:

-ربنا يعزّك ويكرمك .

-أي خدمة ؟.

-أنا محمود صديق عفيفي ، والذي قُبِض عليَّ منذ شهرين .

غمرت السعادة وجه الشيخ جلال،وقام وسلَّم عليه مرة أخرى ، وقال:

-أهلًا بك وبكلِّ من يأتي من طرف ولدي عفيفي،أهلًا وسهلًا ، اؤمر .

- الأمر لله وحده،أنا جئت لفضيلتك ؛ لأستشيرك في أمور تخصُّ حياتي كلَّها.

-قل ، وأنا بإذن الله سأساعدك ، ولا تخجل مني أنا في منزلة أبيك .

حكى محمود عن حياته قبل الاعتقال،وعن حياته الحالية وخوفه من رجوعه لحياته السابقة ، وخوفه من أن يعتقلوه مرة أخرى ، وعن رغبته في أن يكون من أهل اليمين .

بعد أن انتهى من كلامه ، قال الشيخ :

-يا ولدي،إن الشَّدائد تصنع الرجال،ورُبَّ ضارة نافعة ، وعليك أن تَثْبُتْ،ولا تحزن ولا تبكِ ، أو تتحسَّر على مافاتك ، سِرْ في الطريق الذي بدأته ولا تخشَ في الحق لومة لائم .

-أخشى أن أضعف ، وأعود لحياتي السابقة من يأس وحزن وضياع ؛ لذلك جئت لفضيلتك ، لتنصحني .

-عليك يا ولدي بشيئين .

-ما هما ؟

-الزوجة الصالحة ، والصحبة المؤمنة .

-وكيف أجدهم ؟

-صلِّ الفجر في أي مسجد به أناسٌ من السلف الصالح ، هؤلاء يُشَجِّعون بعضهم ، ويَشُدُّون من أذر بعض ، صلِّ الفجر معهم بانتظام ، وصادقهم .

-لكني لا أعرفهم ، وقد لا يقبلوني .

-إن واظبت علي صلاة الفجر،ستجدهم يتقرَّبون إليك ويسعون نحوك ، وإن غبت عنهم سيبحثون عنك حتى يجدوك، إنَّ أشرف وأنقى صحبة هي صحبة المداومين علي صلاة الفجر؛ لأنها تكون خالية من النفاق ومن المصلحة،وبعد ذلك، واظب علي حضور درس مابين المغرب والعشاء في أي مسجد، ويوم الخميس من كل أسبوع صلِّ المغرب في مسجد الجمعية الشرعية ، واستمع لدرسي لعلك تستفيد ، وبالمرة تزور أقاربك وتصل رحمك .

-موافق هذا عن الصحبة الطيبة وماذا عن الزوجة الصالحة كيف سأجدها؟ أنا لا أعرف أحد غير الذين أراهم حولي ، وأنا جرَّبت وتعبت ، ولا أريد أن أقع في نفس الحفرة مرة أخرى .

-لا تشغل بالك بذلك،أنا بإذن الله سأختار لك زوجة مؤمنة ومتعلمة ، وستعينك علي دينك ودنياك ، وستشكرني بعدها طوال العمر ، بإذن الله .

-ربنا ينعم عليك بالصِّحة والإيمان ، ويجعلك دائمًا سندًا للمحتاجين لكن...

بدى الخجل على محمود ، فقال الشيخ :

-ماذا تريد أن تقوله ، وتخجل منه ؟

-لي طلب ، لكن أرجوك لا تفهمني غلط .

-اطلب ، ولا تخجل .

-فضيلتك تعرف أن المغريات كثيرة ، وأنا شاب وأشاهد هذه المغريات في كلِّ مكان ، وأريد أن أتزوَّج من زوجة لا تجعلني أنظر للحرام .

- تريدها جميلة؟

سكت محمود ، ثمَّ قال وقد احمر وجهه :

-فضيلتك تعرف أن المغريات كثيرة ، وأنا أريد أن أصون نفسي،أنا لا أقصد أن تكون فارهة الجمال،لكن ما أطلبه هو أن تكون حسنة الوجه ، أي أن تكون مقبولة بالنسبة لي، والجمال مسألةٌ نسبية تختلف من شخص لآخر .

-ما تطلبه ليس عيبًا ولا حرامًا، بل بالعكس ، أنت صادق مع نفسك،غيرك ضحك على نفسه ، وقال أهمُّ شيء أن تكون متدينة ، وتزوج دون أن ينظر لأيِّ شيء آخر ، وعاش حياة تعيسة ؛ لأنه ظن أن الدِّين قد يعوِّضه عن عدم حبِّه ، أو قبوله لزوجته ، فعاش حياة تعيسة وظلم من تزوجها.

- هذا ما أقصده،أنا أريدها متدينة ومتعلمة ومقبولة بالنسبة لي .

-إن شاء الله خيرًا .

نادى على حفيده ، فجاء ، فقال له :

-أريد ورقة وقلمًا .

خرج، وعاد بالورقة والقلم،فأمره أن يعطيهم لمحمود، وقال:

-اكتب رقم هاتفك واسمك،وحينما أجد طلبك ، سأتَّصل بك بإذن الله .

شكره محمود ، واستأذن وخرج ومشى في شوارع القرية ، وتجنب المرور في الشوارع التي تقع فيها بيوت عائلته ، ثم ركب حافلة وعاد لبيته،بينما الشيخ جلال،قال بعد أن خرج محمود:

-يريدها مؤمنة ، ومتعلمة وجميلة .طلبٌ صعب ،لكنه غير مستحيل بإذن الله.

شارون ينصح أبا داوود

دخل الحاج عبد الحكيم؛ليأخذ الإيجار وكان محمود يلقبه بشارون،لتشابههم في الملامح ، ولبخله الشديد ، ولأكله حقوق من يعمل معه ، وكان يتباهى بذلك بكل وقاحة ، وكان يسخر دائمًا من الجيل الجديد ، ويقول لمحمود حينما يتكلم معه عن أحوال البلاد :

-نحن جيل تربينا علي القحط،والجوع والشدة ، تربَّينا على تموين عبد الناصر لقد تربينا على صابونة الغسيل الصفراء بلا رائحة ، وعلى زيت التموين،ولنا قدرة على التحمُّل،ولسنا ضعافًا مثلكم ، أنتم جيل طري ، تربيتم على الأكل في مطاعم "كنتاكي" و"ماكدونلز"،وعلي "الشامبو" وعلي "الشيبسي" وعلى "الكاراتيه"،ولن تتحمَّلوا أيَّ شدة ، حسني مبارك ربَّاكم على الرَّفاهية ، لكن عبد الناصر ربَّانا على الشِّدة،وعلى الصَّبر،وعلى التحمُّل والادَّخار ، وليس مثلكم تُبَذِّرون وتنفقون كلَّ أموالكم على التفاهات .

كانت هذه آراؤه دائمًا،وكان يحبُّ عبد الناصر و السادات جدًا،لأنه استفاد من عصرهم كثيرا ، ففي عهد عبد الناصر تعلَّم مجانًا ، وحصل على منحة للدراسة في أمريكا ، ثمَّ عاد في بداية عصر السادات ، وعُيِّن في الجامعة ، ثم بعد ذلك سافر إلى

دول الخليج أيام العصر الذهبي للبترول . وعاد بثروة طائلة ، استثمرها في مصر في مشروعات استهلاكية بعيدة كل البعد عن دراسته التي أنفقت الدولة عليها أموالًا طائلة من دم الناس الذي يتعالى عليهم الآن ، وقد درَّت عليه هذه الاستثمارات أموالًا طائلة ، استغلّها في شراء أراضٍ بمساحات ضخمة ، وفي أماكن متميزة في مناطقَ مختلفة ، وبثمنٍ بخس ، ثمّ تركها عدة سنوات إلى أن ارتفع ثمنها ، فباعها بملايين الجنيهات واشترى غيرها،وهكذا حتى أصبح سمسار أراضٍ شهير ، يعرفه سكان المهندسين بالاسم،وترك مهنته الأصليّة وهي التدريس في الجامعة، وأصبح من ذوي الأملاك ، ومع كلّ هذا الغنى ، فإنك تشعر حينما تراه بأنه فقير أو ذليل ، وكان محمود يردِّد دائمًا إن المذلّة والمسكنة غضبٌ من عند الله على عبده الذي لا يشعر بقيمة النعمة التي أنعم بها الله عليه .

المهم بعد أن دخل إلى مكتب محمود بلا استئذان كعادته ، سلّم عليه ، وهاله منظره من شدة التغيير الذي طرأ عليه ، وقال في دهشة بعد أن عانقه :

-الحمد لله على سلامتك ، ماذا حدث؟ لقد كنت قلقًا عليك ، وكنت أدعو لك في صلاتي وقد سألت عنك أكثر من مرة لكني لم أجدك .

حكى له باختصار عمَّا حدث له ، فقال له الحاج مُعَقّبًا :

-السجن للرجال ، ولا يهمك ،الحمد لله على كلّ حال .

-الحمد لله .

عدَّ النقود مرتين كعادته،وهمَّ بالخروج لكنه تراجع ، وقال لمحمود ناصحًا :

-أرجو أن تكون قد تعلَّمت من هذا الدرس جيدًا ، ولا تتدخل مرة أخرى لأناس لا يستحقُّون.

-لا يستحقُّون! ...قالها في دهشة .

-نعم،لا يستحقون لقد خانوا بلادهم،وسلَّموها للأجانب.

-ليس كلُّهم ، يوجد كثيرٌ منهم يقاومون الاحتلال .

-أنت واهم ، إنهم تركوا بلادهم بعد أن خانوها ونهبوها ، وجاؤوا إلى مصر واشتروا بيوتًا وأراضي ، وعاشوا هنا ويمشون في الشوارع بكلِّ فخر وتعال .

-إنها إشاعات يُرَوِّجُها العملاء والخونة ؛ ليجعلونا نكرهُهم، ولا نتعاطف معهم ولا مع المقاومة .

-هل تعرف أن ثمن الشقق والأراضي،قد زاد سعرها إلى ثلاثة اضعاف بسبب العراقيين الذين جاؤوا إلى هنا،ومعهم الأموال التي نهبوها .

-سمعت عن ذلك ، لكني لم أرَ بعيني ، ولم أتأكَّد .

ضحك ساخرًا ، وقال :

-انظر من النافذة،وأنت تُصَدِّق كلامي،وانظر إلى العمارة التي أمامنا .

قام ونظر من النافذة،فاقترب منه الحاج عبد الحكيم ، وقال:

-دقِّقْ في الرجل الذي يقف مع العمال ، والذي يرتدي بنطالًا وقميصًا .

-نعم تبيَّنت ملامحه ، ماله؟

- ألا يُذَكِّرُك بشخص تعرفه جيدًا .

-نعم ...إنه يشبه صدَّام .

-صح .

-هذا عراقي ، هرب هو وأسرته من العراق ، واشترى هذه العمارة وقام بإخراج السكان ، وقام ببناء دورين بعد أن دفع مبالغ للحي ، وقام بفتح شركة ديكورات في الدور الأرضي ، وها هو يقوم بعمل تشطيبات للعمارة علي الطِّراز العراقي ، ويسير رافعًا رأسه مثل صدَّام ، ولا يشعر بخزي أو عار، ولا يهمُّه أحد.

-لقد فهمت الآن سبب الضجيج المنبعث من سطح العمارة لقد رأيت عمال وحديد وأسمنت ، قبل أن يقبضوا عليَّ .

-هل تعرف كم دفع ؛ ليشتري هذه العمارة،وليُخرج السكان .

-لا .

أكثر من خمسة ملايين جنيها ، بالله عليك ، من أين جاء بهم ، وبلاده كانت تحت الحصار منذ أكثر من عشر سنوات ، وكانت اشتراكية ، ولا يوجد قطاع خاص فيها ، لقد هرب من العراق بعد أن نهبها هو وأعوانه من حكومة صدَّام ، ومن أعضاء حزب البعث ، لقد فعل مثلما فعلوا أيام عبد الناصر أيام الاشتراكية ، كانوا يُلَقِّنُونَنا مبادئها ويطبقونها علينا ويعيشون هم في النعيم والقصور ،كانوا يجعلونا نعيش في الفقر والحرب والحصار ، وهم ينهبون تحت ستار (لا صوت يعلو على صوت المعركة) وهذا مثلهم ، كان من مرَدِّدِي الشعارات ؛ ليضحك بها على شعبه ، ليسرق وينهب في الخفاء .

-وكيف عرفت كلّ هذا عنه؟

-أنا هنا منذ أن كانت المهندسين أرضًا زراعية ، وأعرف كلّ دبِّة نملة تمشي هنا ، لقد سألت وعرفت ، وتأكّدت أنهم لا يستحقون أن تفكِّر فيهم ، أو تتعاطف معهم ، من تُعَرِّض نفسك للخطر من أجلهم ، تراهم هنا يستعلون علينا ويرقصون في الملاهي ، وبلادهم تحت الاحتلال .

-ليس لي شأن بهؤلاء الخونة،أنا أدافع ، وأقف مع الشرفاء .

ضحك ، وقال :

- لم تتعلّم بعد من الدرس،ما زلت على عنادك ، وعروبتك وأفكار عبد الناصر التي ضيَّعتنا وضيعتك .

-أنا لست ناصريًا ، ولا عروبيًا ، أنا إسلامي ، وأتعاطف مع أيِّ مسلم مثلي وفي أي مكان،ولن أغيِّر رأيي مهما حدث.

-أنت تعرف أنّني أحبُّك وأعتبرك مثل ابني،وأخاف عليك.

-أعرف ذلك .

-وأتمنّى أن تفيق من هذه الأوهام ، لكيلا تضيع نفسك ، كن في حالك لكي تعرف تعيش ، ودعك من هذه الشِّعارات، لقد شبعنا منها في الستينات ، وكنا مؤمنين بها أكثر من إيماننا بديننا،أنت مازلت صغيرًا والمستقبل أمامك،انسَ وعش حياتك، وتمتَّع بالدنيا وما فيها .

قال بتسليم :

-حاضر ..أعدُك بذلك .

تركه وذهب ، فقال محمود في سرِّه :

-أعرفك جيدًا ، أنت لا تختلف عنه كثيرًا ، هو استفاد من صدَّام ، وأنت استفدت من عبد الناصر والسادات،يا نبَّاش القبور لو كان لك مبدأ لما استغليت من يعمل عندك ، يا نبَّاش القبور ياشارون .

قال هذا الكلام ، ثمّ نظر من النافذة ، وقال ساخرًا :

-معه حق ، إنه يشبه صدّام في جسمه وفي وجهه ، هل يكون صدّام ونحن لا نعرف ، والذي ظهر علي الشاشة هو الشبيه؟ كل شيء جائز ، لكني أتعجّب من هيئته، يمشي رافعًا هامته ، وكأنّه منتصر ولا يشعر بخزي ولا بعار ، بينما نحن مازلنا نُعَيَّر بهزيمة ٦٧ ، بالرغم من أننا انتصرنا بعدها واستردينا كلّ أرضنا ومع ذلك نشعر بداخلنا بمشاعر الهزيمة والإنكسار ، ويعاملنا الغير علي أننا مهزومون ومستضعفون ومنكسرون ، هل نحن نحب المذلة و المسكنة؟ ، أم أنها ضربت علينا وباءًا وغضبًا من الله مثل اليهود، للأسف اليهود الآن يستعلون في الأرض ، ويطغون في كلّ مكان، هل أصبحنا أسوء منهم ؟ لا أعرف ماذا يحدث؟ ، وماذا أقول ؟ أين أنت يا عفيفي ؛ لتجيبني علي كلّ هذه الأسئلة ؟

أبو داوود يفاجيء الجميع

(١)

صرخت أمُّ محمود في وجه ابنها محمود ، حينما أخبرها أنه سيتزوج من طرف الشيخ جلال ، وقالت :

-هل تريد الجنون لي؟

-لماذا؟

-ألم يكفيك ماحدث لك من تحت رأس عفيفي ، والشيخ جلال!؟

-يا أمي ماحدث لي قدر ومكتوب ، وليس لهم ذنب فيما حدث لي ثم إن الذي حدث لي أفاقني وجعلني أرى عيوبي وأخطائي علي حقيقتها ، والحمد لله بدأت في إصلاح عيوبي ، وأول عيب أريد إصلاحه هو تغيير نظرتي عن الزواج ، أنا أريد زوجة مؤمنة صالحة ، أشعر بالأمان معها ، لا بالتعب والهمِّ والغمِّ معها ، أنا جرَّبت مرتين ، وعانيت وخسرت أموالًا كثيرة ، وجرحت كرامتي ، ولست مستعدًا لأن أجرب وأفشل مرة أخرى .

-لكن يا ولدي ، لن تقدرعلى أسلوب حياتها .

ابتسم ، وقال :

-ما هو أسلوب حياتها الذي لن أقدر عليه ؟ صلاتها للفجر، ومواظبتها علي الصَّلاة في مواعيدها ، وصيامها وقيامها للّيل وختمها للقرءان ، ورفضها للنميمة أو الغيبة ، وملابسها الواسعة وعدم تحدُّثها مع غير المحللين لها ، أنا أريد ذلك ، أنت تعرفي أني غيور .

-يا بني ، أنا أسمع أنّ كل شيء عندهم حرام ، وتفكيرهم معقّد ، لقد رأيت بنفسك زوجه عفيفي ، وماذا فعلت به؟

-ماذا فعلت به ، لقد صبرت علي فقره ، ولم تتكلم وعندما مرضت ، شارك أهلها في علاجها ولم يعايروه ، وحينما ماتت أوصت بكلّ شيء له ، ثم أيُّهما أفضل ، أن أتزوج متشددة تخاف الله ، أم مستهترة لا تخشى أحدًا .

-يا ولدي ، إنهم لا يجهِّزون مثلنا ، ولا يساعدون في الجهاز مثلنا.

-تقصدين،أنهم لا يسرفون في التجهيز، يا أمي هم يُيَسِّرون على أنفسهم وعلي غيرهم،هل التخفيف في المطالب أصبح شيئًا معيبًا؟ أيهما أفضل أن أتزوج بأثاث بسيط،لكني سأستخدمه وأعيش بلا دين،أم أشتري أثاثًا فاخرًا لكي أتباهى به أمام الناس الذين لا يعجبهم أيُّ شيء ، وأعيش وأنا عليَّ ديون كثرة ، يا أمِّي نحن جهزنا أختي مثل الآخرين ، وتداينَّا من أجل التباهي

أمام الناس،فماذا حدث ألم تتزوج وتركتنا في الديون ؟ وفي نفس الوقت لم تستخدم كلّ الأشياء التي تداينًّا من أجل شرائها، وأيضًا لم يعجب الناس وأخذوا يُقَلِّلون من قيمتها .

-يا ولدي ، أنا أريد أن أراك سعيدًا .

-إن شاء الله سأكون سعيدًا،ادعي لي بأن تعجبني العروسة .

-ربنا معك،لا بد أن يعرف عمُّك فتحي،وباقي أعمامك .

-سأخبرهم ، لكن بعد أن أرى العروس ، وأوافق عليها بإذن الله ، يارب تعجبني وتكون حلوة ، كما أتمنّى ، يارب أنت تعرف طلبي .

ابتسمت أمُّه و لم تتكلم ، فقال لها محمود :

- أقصد أن تكون مقبولة ، أنا لا أطلب شيئًا حرامًا .

-إن شاء الله ، تحصل على ما تتمنَّاه ، وتكون جميلة وتسعدك .

-يارب يا أمي تكون كما اتمنَّاها.

(٢)

استيقظ علي الرؤية التي يراها من حين لآخر -والتي يتشاءم منها كثيرًا -وكانت تشبه الرؤيات السابقة في معظم أحداثها ، لكنها كانت تختلف عنهم في شيء واحد ، وهو حاله في فناء المدرسه ، فقد كان جالسا في فناء المدرسة يراجع دروسه بسرعة ، ثمّ سمع الطلبة تقول ، إن موعد الامتحان قد حان ، فوضع الأوراق جنب الحائط ، ونظر إلى السماء ودعا ، وقال :

-يارب لقد ذاكرت على قدر استطاعتي ، يارب يكون الامتحان سهلًا وأحل كل الأسئلة ، وأنجح بتفوق .

ثمّ صعد إلى لجنة الامتحان ، وهو واثقٌ من نفسه .

شعر بالراحة ، حينما استيقظ علي هذه الرؤية ، وغادر فراشه وذهب إلى الحمام ، وتوضّأ وصلّى الفجر قبل الشروق ، ثم أكمل بقية طقوسه المعتادة ، ونزل من البيت وذهب إلى عمله .

في تمام الساعة الثانية ظهرًا،استأذن من مديرة الشركة ، ورفض أن يقول لها عن السبب ، فرفضت وقالت :

-المهندس أشرف منع الاستئذان ، لضغط العمل .

-هل لو استأذنت منه ، هل ستتضايقين ؟

-وما الذي سيجعلني أتضايق ؟ جرّب ، وإن وافق استأذن .

تركها وطرق على باب مكتبه ، ودخل فوجده يضع سماعة التليفون ، فقد اتَّصلتِ به المديرة بمجرد أن خرج،قال في أدب:

-أريد أن أستأذن من سيادتك ، مدام جيهان رفضت، وقالت لا يوجد إستئذان

-أنت تعرف أني مانع الاستئذان .

-لكن الأمر مهم ، ولا يحتمل التأخير .

-هل حدثت مشكلة عندك ، أو في البيت ؟

ابتسم ، وقال :

- أريد أن أنزل إلى وسط البلد،لأشتري طبقًا من الحلوى، لأني سأذهب لأرى عروس ، ولا أريد أن أتأخر .

ضحك المدير ضحكة عالية ، وقال :

-ألم تتب من المرَّات السابقة ؟

-شرٌ ، ولابدَّ منه .

-ومن أين العروس هذه المرَّة ؟

-من قرية مجاورة لقريتنا .

تعجب ، وقال :

-وهل التي تعيش في القرية ستكون "استايل"،كما كنت تريد وتحلُم .

-لقد غيَّرتُ رأيي ونظرتي في الزواج ، أنا أريد زوجة مؤمنة تحافظ على اسمي وتحبني ، وتخاف عليَّ ، وتعينني علي الحياة وتحافظ علي ديني .

-أهمُّ شيء أنها تعجبك .

-أهمُّ شيء أن تكون مؤمنة،على فكرة،هي ترتدي خمار، وأبوها شيخ .

بدت عليه الدهشة وعدم التصديق ، وقال :

-أبوها شيخ وتلبس خمار ! .

-نعم .

- الاعتقال غيّر فيك أشياءً كثيرة ، أخشى أن تتطرَّف كما نشاهد في الأفلام!.

-لا تخف ، أنا فقط غيَّرتُ نظرتي للحياة ، وأصبحت أنظر إليها من منظور ديني ، والحمد لله أنا مرتاح البال .

-ربنا معك ، وتكون هي من تبحث عنها .

-إن شاء الله .

تركه ونزل ، لكنه غيَّر رأيه وذهب إلى محل حلوى شهير في المهندسين ، ورفض أن يشتري من وسط البلد ، لأنه تشاءم من جميع المحلاَّت التي تقع في وسط البلد فقد جرَّهم جميعًا ، حينما كان يذهب ليري أيَّ عروس ، وحينما خطب مرتين .

دخل إلى المحل واشترى أغلى طبق حلوى ، وعاد إلى بيته وغير ملابسه وأخذ حمامًا دافئًا ، ثم ارتدي ملابسه وتعطَّر ولمع حذاءه ، وأخذ يدعو الله أن تكون العروس كما يتمناها .

ذهبت معه أمُّه إلى بيت العروس،وكانت هذه هي المرَّة السابعة التي تذهب معه أمُّه لتخطب له حتى تعوَّدت على ذلك، وطرقوا الباب ، ففتح لهم أبوها وأدخله لغرفة الصالون ورحَّب به ، ثم سمع صوت ترحيب من أمِّ العروس لأمِّه التي قعدت مع العروس وأمها في حجرة أخرى .

قعد أمامه وشعر بالرهبة والخوف،وأخذ يتبادل معه التعارف كالمعتاد ، وأخذ يتحدث عن حياته وعمله واعتقاله وخطوباته السابقه ، و لم يتحدث عنها بالتفصيل ، كل الذي قاله :

–لم أتفق في الطِّباع مع الأولى ، أمَّا الثانية فرفضت العيش في القرية ، ورجعت في كلامها و لم يحدث نصيب والحمد لله هدأت نفسه وبدأ يشعر بالثقة ، وأخذ يُمَنِّي نفسه بأن تكون جميلة أو مقبولة بالنسبة له ، ومما شجَّعه على التمنِّي هو دقة ملامح أبيها وبياض بشرته ، فقال في سرِّه :

–إن شاء الله ستكون جميلة مثله .

سمع طرقًا على الباب من بعيد ، فلم يرفع رأسه وظل ناظرًا للأرض ، وسمع صوت حماه وهو يرحب بالقادمين.

دخلت أمها وأمه وخلفهم العروس ، وقعدوا بعد أن رحَّبت به أمُّها التي نظرت لزوجها ، فخرج مستأذنًا .

قعدت العروس على الكرسيّ المجاور له ، بينما أمُّه وأمُّها قعدوا أمامه ، نظر إلى أمّه ، فوجدها سعيدة ، فاطمأن .

قالت أمُّها وهي تضحك :

-الشرع حدد لك ثلاث زيارات ، دقّق النظر لكي لا تقول بعد ذلك ، أننا ضحكنا عليك .

ضحك محمود ونظر إلى العروس وقال بصوت منخفض :

-أهلًا وسهلًا،هل من الممكن أن نتكلم مع بعض بدون كسوف،صوت المرأة ليس عورة ، والشرع حدَّد ثلاث زيارات للتعارف ، ولكي نعرف بعض ، صح أم خطأ .

-صح .

- إذن انظري لي ولا تخجلي منِّي،لكي تتأكّدي من ملامحي، فقد لا يعجبك شكلي ، أنا حريصٌ عليك أكثر مني .

نظرت إليه بخجل ، فاحمر وجهُها ووجهُه ، حينما التقت أعينهما ببعض، شعر بسعادة غامرة وراحة شديدة لم يشعرها من قبل مع غيرها ، فتماسك وقال:

-أنت جميلة جدًا .

-شكرًا .

-أنا لا أبالغ،والله أنت جميلة جدًا،والنُّور أراه في وجهك.

-شكرًا .

-سأقول لك كلمة ، لكن أريدك أن تُصَدِّقيني ، ولا تعتبريني أبالغ ، أوَ أكذب.

-ما هي ؟

-أنا أنتظرك منذ عشر سنوات .

-لا أفهم ما تقصده .

- كنت أبحث عنك ، كأنّي أبحث عن إبرة في بحر .

-شكرا لك .

-أنا لن أخفي عنكِ أيَّ شيء،وسأقول لكِ عن ملخص حياتي .

أخذ يحكي لها عمّا كان يعانيه،وعن خطوباته،وعن اعتقاله، وعن تفكيره الذي تغير،وعن سبب إقدامه على الزواج من سلفيَّة ، وهي تستمع له بتركيز ، بينما هو بين الحين والآخر يُدَقِّقُ النظر في وجهها ، لكيلا ينسى ملامحها بعد ذلك.

في أثناء جلوسه معها ، كانت أمُّها بين الحين والآخر تخرج وتأتي بمشروب ، أو فاكهة أو حلوى ، وتقدِّمهم للجميع ، ثم تكمل حديثها مع أمِّه .

أخذ يحكي لمدة ساعتين متواصلتين ، حكى خلالهما عن كلِّ شيء تقريبًا ، وأخفى بعض الأشياء التي رأى فيها إهانة لكرامته ، بعد أن انتهى ، قال راجيًا:

-أنا أريدك أن توافقي ، ولا تكسري قلبي ، أنا تعبت حتى وجدتك .

-إن شاء الله خيرًا .

-أنا أعلم أنِّي حليق اللحية ، لكني طيب ، وأحبُّ الخير لغيري ، ومحافظٌ على الشعائر الدينية ، وعمري ما تسبَّبت في ضرر لأحد ، وأريد أن أعيش في أمان وراحة بال .

-إن شاء الله خيرًا .

-أنا سأعرض عليك عرض ، وبعدها إن شاء الله ستوافقين

-تفضل .

-اقبلي الزَّواج منِّي ، وأنا سأغسل لك صحون العشاء ، وسأُجهِّز لك الإفطار .

ضحكت من المفاجأة،فظهرت أسنانها وكانت شديدة البياض ، وقالت :

-لماذا صحون العشاء ، وطعام الإفطار؟

-لأنهم خُفاف علي .

ابتسمت ، فقال :

-كنت تائهًا ، ووجدت الطريق الصحيح ، وأنت طريقي الصحيح ، لقد تعبت كثيرًا في هذه الدنيا ، فأرجوكِ لاتخذليني، ووافقي عليّ .

-البنات كثيرات .

-لكن البنت المحترمة عملة نادرة في هذا الزمان .

-إن شاء الله خير ، أنا سأستخير الله وإن شاء الله خيرًا .

-أنا استخرته ، وأشعر بالخير والرَّاحة .

أشار لأمِّه ، فاستأذنا ، وسلَّم علي الشيخ ، وخرجا عائدين لبيتهم ، قالت أمه ، أثناء سيرهم في الطريق :

-أراك سعيدًا ، والفرحة تطلُّ من عينيك .

-الحمد لله .

-لكنِّي أراها أقلَّ جمالًا من السابقات ، فلماذا كلُّ هذه السعادة؟

-حينما قعدتُ أمام أبيها شعرت بالراحة والأمان ، وحينما قعدتُ أمامها ونظرتُ في وجهها شعرت ، وكأنَّ نورا خرج

من وجهها ودخل قلبي ، وشعرت براحة شديدة وصفاء في قلبي لم أشعر بهم من قبل ، لأول مرة أرى البراءة والطّهارة في وجه فتاة ، وشعرت بجمال الأدب والأخلاق .

قالت ساخرة :

-كلٌ هذا شعرته في الساعتين التي قعدهم معها .

-نعم الصدق والبراءة تَنْفُذُ بسرعة بلا حجاب، ثمَّ إنها جميلة، أنا أراها جميلة أي نعم ليست على قدر السَّابقات، لكنها مقبولة بالنسبة لي أنا لا أبحث عن الجمال الفاره ، أنا أريد زوجة لا أنفر من وجهها ، يارب توافق .

-وهل عندك شكٌ أنها سترفض ؟

-جائز ، فقد لا أعجبها .

-أنت دائمًا هكذا تقلّل من نفسك،ألم ترَ الفرحة والسعادة في أعينهم؟

-نعم ، لكنها قد تغيِّر رأيها ، وقد ترفضني لأنِّي حليق اللحية مثلما حدث مع أحد أصدقائي ، ثم إنها طبيبة أطفال ، ولو وافقت سيكون بسبب توصية الشيخ جلال فقط .

-ولأنك محمود ولدي ، أنت غيرُ كلّ الشباب ، أنت أبو داوود المصري.

- صح أبوداوود المصري موظف فقير وشقته في الريف ، وبالكاد يجد ما يستره ، وسيقترض من أجل أن يتزوج .

-اسكت ، ولا تتكلم بهذا الكلام ، لكيلا أغضب وأتركك تعود بمفردك،أنت محاسب في شركة كبيرة،ومستقرٌ في عملك، ومن عائلة ومحترم ، وتتمنَّاك أي بنت في الدنيا ، وكلنا سنقف بجانبك .

-صح .

-أتسخر منِّي ؟

-لا والله ، أنا أؤكد على كلامك ، دعكِ من هذا الكلام ، نسيت أن أسألك عن شيء هام .

-ما هو ؟

-ما لون شعرها ؟ ، هل ناعم أم خشن ؟

قالت ساخرة :

-ولماذا تسأل عن هذه الأشياء،ألا تكفيك البراءة والطهارة، والصفاء والأخلاق الرفيعة؟

ضحك ، وقال :

-ليس من أجلي ، لكن من أجل أن أطمئنَّ على ذريتي .

-ذريتك ! اضحك على عقلي بهذا الكلام .

-أرجوكِ يا أمي أجيبيني ، أنا أريد أن أطمئن ، أنت تعرفين أني لن أرى شعرها إلا بعد الدُّخلة .

-وهل لو كان شعرها غيرُ ناعم وخشن وقصير ، ستتركها

تغيرت ملامحه ، وقال :

-لا ، لكني سأكون حزينًا ، وستكون فرحتي ناقصة ، أنت تعرفين أن الشعر هو تاج المرأة .

ضحكت ، وقالت :

-اطمئن ، شعرها ناعم مثل الحرير ، ولونه بني غامق .

-بجد .

-والله العظيم ، وهل سأكذب عليك .

-يارب توافق ، وتكون من نصيبي .

نظرت إليه في غيظ ، وقالت :

-من يراك سيقول إنك ستخطب ليلى عُلوي ، اسكت ، وإلا سأقسم بألّا أذهب معك مرة أخرى إلى هناك .

-حاضر ، لن أتكلم مرة أخرى .

-إن حصل نصيب ، عمّك فتحي لابدَّ أن يذهب معك ، لأنه كبيرك وكبيرنا ، ولا أستطيع أن أخسره بعد أن وقف معنا في محنتك ، ولا أستطيع أن أشرك أشقّائي ، لأنه عصب ، وهم أغراب .

-لكن أعمامي ، إخوة أبي موجودون .

-لن يحضروا ، مادام عمُّك الكبير موجود .

-لكنه لن يوافق .

-لماذا؟

-لأنه يكره السُّنِّيين ، والشيخ جلال .

-اذهب إليه وأقنعه ، وإن شاء الله سيوافق .

(٣)

كان الحاج فتحي قاعدا كعادته في صدر المجلس يتكلّم في أمور الدُّنيا مع من حوله من رجال العائلة ، حينما دخل عليه محمود ، فقام ورحَّب به وأقعده جنبه على الأريكة التي لا يقعد عليها غيره- تعبيرا عن شدة ترحيبه به- ، وأمر بالشَّاي ، وأخذ يسأله عن أمِّه وعن أخوته ، أجاب محمود وهو يشرب الشاي ، ثم قال بعد أن انتهى من شرب الشاي :

-يا عمِّي ، أنا قرَّرت أن أتزوَّج .

-يا ألف مبروك قالها... هو وباقي أفراد العائلة .

-ومن هي العروس ؟

تردَّد محمود ، ثمَّ قال :

-ابنة الشيخ إسماعيل المصري إمام مسجد الجمعية الشرعية ببهنسا .

هرش في دماغه ، وأخذ يردِّدُ الاسم بصوت منخفض ، وقال:

-تذكرته ، انه ابن عمٍّ أحد أصدقائي المقرَّبين ، ومن الذي دلَّك عليه؟ ، إنك لا تعرف أحدًا في بهنسا .

قال بعد تردُّد :

-الشيخ جلال الحكيم .

احمر وجه الحاج فتحي ، وَسَرَتْ همهمة بين الجالسين ، وقال بغضب :

-ألم تجد غير هذا ؛ لتجعله يختار لك زوجتك ، ألم تتعلَّم من الدرس الذي تعرَّضت له؟ ألم تتَّعظ من عفيفي؟

قال هذا الكلام ثمَّ نظر للجالسين وقال وهو يضرب كف بكف:

-الشيخ جلال لا يكفيه ضياع مستقبل عفيفي ابن أختي ، إنه يريد أن يضيعنا كلنا ، إنه لن يرتاح إلا إذا تخلَّص مِنَّا جمبعا

-وماذنب الشيخ جلال؟ أنا الذي طلبت منه أن يبحث لي عن عروس .

-ألم تجد غيره؟ ألم يعجبك أحدٌ من عائلتنا ، أو من عائلة أمِّك ؟ لماذا تريد أن ترمي نفسك في النار؟

-يا عمي أنا اخترت العروسة التي تناسبني .

-صح هي التي ستناسبك ؛ لأنها ابنة إرهابي ، وأنت إرهابي مثل أبيها، وأمُّك ما رأيها؟

-وافقت على مضض .

-على بركة الله .

قالها بسخرية وسكت. نظر محمود إلى الأرض و لم يتكلم ، وأخذ يفكّر في كيفية الاستئذان.بدى عليه الضّيق وعلى الحاج فتحي الذي قال :

-وماذا تريد مني؟

-أريدك أن تذهب معي إليهم؛لتتفق علي كلّ شيء معهم، حضرتك تعلم أن أبي ميت وأعمامي لن يحضروا معي ، وسيقولون عمّك الكبير موجود وأخوالي سيقولون نفس الكلام

-أنا لن أضع يدي في يد إرهابي يعادي الحكومة ، إذا أردت أن تتزوج عن طريق الشيخ جلال ، فاذهب وابحث لك عن كبير يقف معك ، أنا لن أذهب ولن أحضر أي مناسبة خاصة بك ، كفاني ما فعلته من تقبيل الأيدي من أجل إخراجك من المعتقل

نظر إليه محمود في غيظ وسكت، ثم قال بنبرة بها مسكنة :

-باعمّي أنت قاعد تبيع وتشتري في ؛ لأن أبي مات وأنا يتيم ، على كلّ حال شكرًا لوقوفك بجانبي ، أنا سأذهب أنا وأمّي وزوج أختي ، وسأقول لهم إني يتيم بلا أهل ، واقبلوني على ذلك .

بعد أن قال هذا الكلام قام ، وغادر المكان .

اقشعر بدن الحاج فتحي بعد سماعه تلك الكلمات ، وبدى عليه التأثُّر ونظر إلي الجميع ، فوجدهم متأثِّرين بقول محمود ، فقال لأحد الجالسين :

-اجر بسرعة والحق به ، وأخبره بأنِّي سأحضر معاه،ثم التفت للحاضرين وقال:

-سأحضر معه ليس من أجله ، لكن من أجل عظم التربة ، أنا وأنت والزمان طويل يا شيخ جلال .

(٤)

ذهب محمود لدعوة صديقه حسين لحضور كتب الكتاب ، فذُهِل حينما عرف الخبر ، وتعجَّب من سرعة إقدامه على هذه الخطوه ، وذُهِل أكثر حينما علم منه مواصفات العروس التي اختارها ، وقال بغضب :

-أجننت؟ أتريد أن تتزوج من ابنة ارهابي !.

-وما الجنون في ذلك؟

-أقول لك ، كن من أهل اليمين تترك كلّ شيء من أهل اليمين ، وتختار أشدَّ ما فيه وتتمسَّك به .

-لقد وجدتُ ضالّتي .

-ضالتك، أي ضالة التي وجدتها، التطرف والإرهاب، يابني أنت مازلت تحت المراقبة ، ولم يمر علي خروجك من المعتقل غيرُ شهرين ، هل تريد أن يُقْبَض عليك مرة أخرى ؟

-لقد ضاقت الأرض بالساجدين ، ولن يستطيعوا أن يقبضوا على كلّ الناس .

-هل تريد أن يضيع مستقبلك ؟

-لقد ضاع من زمان ، ولم يعد عندي شيءٌ أبكي عليه .

-حياتك ، أغلى شيء عندك ، حافظ عليها .

-حياتي ، سأحافظ عليها مع من اخترتها .

-أنا سأُجن، أبعدكلّ هذا الصبر تتزوج سلفية!،وعلى طريقة القرون الوسطى!.

-تركت لك طريقة أبناء الألفية الثالثة . ...قالها بسخرية .

-تسخر منّي لأني أريد نصحك، يامحمود ، ألم يكن حلمك أن تتزوج بنت "استايل" لتمتعك ، وتعيش معها في سعادة .

-كنت مخطئًا في نظرتي للزواج،ثمّ من قال لك إن السلفيات لا يُمَتِّعْن أزواجهن ، إن إسعاد أزواجهنَّ من أهم الأشياء التي يحرصنَ عليها ، لكيلا ينظر أزواجهنَّ للحرام .

- موافق على كلامك ، لكن أريد أن أسألك سؤالًا ؟

-اسأل .

-هل السلفيَّة سترتدي بدلة رقص،وترقص لك كما كنت تتمنَّى ، إنَّ كلَّ شيء عندهم حرام ، الغناء حرام ، والموسيقى حرام ، وكلُّ شيء عندهم حرام، راجع نفسك لكيلا تندم ، ستعيش تعيسًا ، أنا حزين من أجلك .

ضحك محمود ، و لم يتكلم ، فغضب حسين وقال :

-ما الذي يضحكك؟

-لقد قلت نفس كلامك لعفيفي ، حينما دعاني لحضور فرحه

-ما دمت تعرف ذلك ، فلماذا تريد أن تكرِّر ما فعله عفيفي ، ألا تتعظ منه ؟

-ألا تَتَّعظ أنت مني ومنه؟

-ليس لك شأنٌ بي ، أنا عارف طريقي جدًا .

-صحيح ، أنت تعرف طريقك صح ، ستتزوج أجنبية زنت مع غيرك كثيرًا ، لتنجب لك ذريتك الطاهرة ذات الدماء الذكية النبيلة .

-اسخر منِّي كما تشاء ، لن أغيِّر رأيي فيهم، مشكلتك أنَّك لا تنظر اليهم إلا من هذه الزاوية ، تترك كلَّ شيء حلوًا فيهم ، وتركِّز على هذه النقطة .

-لأنها أهمُّ شيء ، لأنها ، تبطة بالشرف ، المرأة التي تزني قبل الزواج تزني بعد الزواج .

-في حالة واحدة فقط ، إذا خنتَها .

-هذا منطق خطأ ، ليس معنى أن أخطئ أن تخطيء ، المفروض أن يكون لديها مبدأ تؤمن به ، ثم إن المرأة الزانية ماذا

ستُعلِّم لأبنائها ؟ قيمة الشرف الذي فرَّطت فيه بسهولة ، أم ماذا؟ .

-وهل العربية هي الشريفة !؟ ألا تسمع عن جرائم الزنا والخيانة التي كثرت في البلد .

-ولماذا نظرت إلى الزِّبالة في المجتمع وبنيت حكمك؟ ، لماذا لاتنظر إلى الشريفات والعفيفات الكثيرات ؟

-كلٌّ واحد منا له رأيه ، متى ستكتب الكتاب ؟

-الجمعة القادمة بعد صلاة العصر ، والدُّخلة بعد شهرين ، وسيكون الفرح إسلاميًا.الرِّجال في مكان وأنا معهم ، والحريم في مكان وزوجتي معهم ، وسُنَجَهِّز وليمة للمدعوين ، وستحي الفرح فرقة إسلامية .

-وماذا تريد منِّي؟

-أن تحضر طبعًا ، لتشاركني فرحتي .

-وطبعا تريد منِّي أن أرتدي جلبابًا أبيض وعمامة ، وأمسك في يدي دُّف وأزُفُّك على الطُّبول! .

ضحك محمود ، وقال :

-شكلك سيكون رائع بهذا الملبس ، وخاصة أمام أصدقائك الأجانب ، مارأيك في دعوتهم لفرحي؟

-ادعوهم إلى فرحك أنت !.

-نعم .

-يا سلام ! لكي يرجموهم ويرجموني معهم .

-لماذا ؟

-ألا تعرف لماذا ؟ لأنهم كفار يا إرهابي ، يا لئيم .

ضحكا وشربا العصير ، ثمّ قال حسين :

-وكيف دبَّرت تكاليف الزواج بهذه السرعة؟

-لقد أقسم الله بأن يساعد كل من يريد أن يستعفف، والحمد لله ساعدني.

-أعرف ذلك،لكن كيف دبَّرت هذه التكاليف؟هل ساعدك تنظيم القاعدة !؟

ضحك محمود ، وقال :

- أنت تعرف أن شقّتي كانت تحتاج لبعض التشطيبات ، فشطَّبتها وكان معي عشرة آلاف جنيه،كنت قد ادخرتها ، والشركة أعطتني ألفين جنيه مكافأة وأمّي وأخوالي ساعدوني ليعوِّضوني عن التعذيب الذي تعرضت له، والذي ساعدني أيضًا عدم مغالاة أهل خطيبتي في الطلبات ، والحمد لله سأتزوج أي

نعم لم أشترِ كلَّ شيء مثلما يفعل الآخرون ، لكني لن أدخل وأنا عليَّ دين .

-ألف مبروك ، اللهم لا اعتراض ، أعزُّ أصدقائي أحدهما إرهابي ، والثاني مشروع إرهابي ، يارب ارحمني ، وعجِّل هروبي من هذا البلد .

مطلوب جاسوس

رفع سمَّاعة الهاتف ، وقال :

-السلام عليكم ، من معي؟

-تهانينا القلبية يا عريس .

-الله يبارك فيك . من أنت؟

-هل نسيت صوتي بهذه السرعة ؟

- أنا لا أعرفك .

-لكنِّي أعرفك جيدًا .

- من أنت؟ ، وماذا تريد ؟

-أنا العقيد حمزة من أمن الدولة ، وأريد أن أراك ؛ لأبارك لك على الزواج.

شعر بضيق وخوف ، وتغير صوته ، وقال :

-أين؟

-هل تعرف مستشفى الحسين ؟

-نعم .

-ستجد بجوارها مبنى لمصنع مهجور . ستقف أمام بوابته غدًا الساعة العاشرة صباحًا بالضَّبط ، وستجد غفيرًا ، قل له إنك أبو داوود ، وليس لك شأن بعد ذلك .

-هل أحضر معي ملابس ؟

ضحك الضَّابط ، وقال ساخرًا :

-أصبحتَ خبيرًا في أمن الدولة ، اطمئن ستقضي معنا يومًا فقط ، ثم سنتركك تُكْمِل عُرْسَك ، لا تتأخر لأننا مشتاقون لرؤياك ، ونحبُّ أن نراك ، واحذر إن لم تأتِ إلينا ، سنذهب إليك وسنأخذك ، ولن تعود مرة أخرى .

-حاضر .

لم يكمل ، وسمع صوت غَلْق السمَّاعة في وجهه .

-ربنا يستر .

ذهب في الموعد،بعد أن أبلغ زوج أخته بما حدث ، ليكون على علم ، ويتصرف إذا لم يعد .

وقف أمام البوَّابة التي يمر جنبها كثير من البشر ، ولا يخطر على بال أحدهم أنَّ هذه البوَّابة الَّتي يكسوها الصدأ تؤدي لأبواب جهنَّم ، وأن هذا المبنى المهجور يسكنه زبانية جهنم ، قال بصوت مرتفع :

-أنا أبو داوود .

فُتحَتْ البوابةُ من الداخل ، وخرج رجل يرتدي ملابس الخفراء ، وأدخله إلى فناء المصنع ، وسار معه إلى مدخل أحد عنابر المصنع ، وأمره أن يقف ولا يتحرك ، ثم تركه وعاد إلى البوَّابة وأغلقها ، وفي نفس اللحظة خرج رجلان من العنبر قام أحدهم بتفتيشه ، وأخذ منه هاتفه ، أما الآخر فوضع عُصَابة على عينيه وأمره أن يتحرك إلى الأمام ، وأخذ يمشي معهم يمينًا ويسارًا ويصعد وينزل لمدة ربع ساعة ، ثم توقَّف وأزالوا من على عينيه العصابة ، فوجد نفسه في حجرة فاخرة وفيها ضابطان بملابسَ مدنية ، والغرفة مكيَّفة . قال له الضَّابط القاعد أمام المكتب :

-أنرت المكان ، اقعد أمام الباشا .

قعد ، وهو خائف .

-لا تخف هكذا ، إننا نريد أن نهنئك بخطبتك على ابنة الشيخ المؤمن إمام أهل السُّنة في بهنسا الشيخ إسماعيل المصري ، لقد أحسنت الاختيار فعلًا ، لقد اخترت ابنة إرهابي ، لكي تعرف منها كلَّ شيء عن تنظيمات الإرهاب وتخبرنا بها ، صح أم خطأ .

-أيُّ إرهابي الذي تتكلَّم عنه .

صفعه الضابط القاعد أمامه علي وجهه ، وقال بعد أن سبَّه بأمِّه :

-هل ستسوق الهبل على الشيطنة أتنكر أنَّك تعلم أنها ابنة أحد المتطرفين ؟.

-لا أعرف ذلك،كلُّ ما أعرفه عنه أنه يدعو للسُّنة والجماعة فقط .

-إذًا ، لماذا اخترتها بالذات؟

- رشحها لي الشيخ جلال الحكيم .

-ولماذا ذهبت إليه ؟

-لأني أريد زوجة مؤمنة، ومطيعة ، وقد خطبت أكثر من مرة وفشلت ، فذهبت له ، فرشحها لي لأني أريد أن أتزوج .

-سأصدِّقك حتى تكشف الأيام كذبك ، إننا نريد منك خدمة.

-اؤمر .

-نريد أن تعرف كلَّ شيء عن الشيخ إسماعيل المصري ، وجماعته ومريديه ونشاطاته وخططه طبعًا ، نحن نعرف عنه الكثير ، لكننا نريد معلومات من صميم بيته ، وأنت ستصبح نسيبه ، ولن يخفي عنك شيئًا ؟

-حاضر .

-تقولها لتخدعنا ، أم أنك ستنفّذ ما قلناه لك .

-وهل أقدر أن أخدعكم!،إذا عرفت أيَّ شيء ،سأتّصل بكم.

-ونحن لن ننسى لك ذلك،وسنكافئك إذا كانت معلوماتك قيمة ، ومهمة.

-حاضر .

-انت ستنتظر معنا إلى المساء ، ثم تعود لبيتك ولا تخف ، نحن لسنا بخلاء سَنُضَيِّفُك .

ضغط الضّابط القاعد أمام مكتبه على زر ، فجاء جندي وحيَّاه ، ثم أخذ أبو داوود وأدخله في غرفة ، ثم بعد ذلك قدَّموا له طعام وكوب عصير ، ثمّ تركوه بمفرده إلى المساء وأطلقو سراحه ، وعاد إلي بيته وهو مهموم وحزين ، وأخذ يفكِّر كيف يتصرَّف بعد أن طُلِبَ منه أن يكون جاسوسًا ؟

أسباب تخلّفنا

ذهب إلى الشيخ جلال الحكيم ، وحكى له عمّا حدث له ، فقال له الشيخ:

-اصبر ، فإن الصَّبر هو مفتاح الفرج ، وحذارِ أن تضعُف أمامهم ، وحذارِ أن تعطي لهم أي معلومات، حتى ولو كانت تافهة ، إذا فعلت ذلك لن يتركوك حتى الموت ، وسيجعلوك تتجسَّس حتى على أهل بيتك .

-إذن ماذا أفعل ؟

-سايِرْهم وأعطِ لهم معلومات عامة ، يعرفها الجميع ، وأَكْثِرْ من كلمة لا أعرف،وقل لهم إنه حريص جدًا،ولا يتكلّم أمامك في السِّياسة ، ويتكلم فقط عن العقائد والعبادات .

-وهل سيصدقوني! ؟

-لن يُصَدِّقوك ، ولكنهم سيضطرون لتصديقك ، حتى يثبت عكس ذلك ، فكن حريصًا على نفسك .

-أريد أن أسألك عن الشيخ إسماعيل المصري .

-سلْ كما تريد .

-هل له أيُّ نشاط سياسي في الخفاء؟

-لا ، إنه يدعو فقط إلى التمسُّك بالقرءان والسُّنة ، والعودة إلي الدين الصَّحيح والسلف الصَّالح .

-إذن لماذا يراقبوه،ويطلبون مني أن أتجسَّس عليه ، ويعتبرونه خطيرًا ؟

-سأُجيبك على سؤالك ، دقيقة وسأرجع لك .

تركه وعاد بعد خمس دقائق ، ومعه كتاب وأخذ يقلِّب في فهرسه حتى وقعت عينه على رقم معين في الفهرس،ففتح الصفحة التي يبحث عنها و أعطاه لمحمود.

-اقرأ هذه الوثيقة ؛ لتفهم مايدور حولك ، ولماذا يتصرَّفون بهذه الطريقة؟

-ما هذا الكتاب ؟

-إنَّه **كتاب النقط فوق الحروف** لمؤرخ إسلامي كبير اسمه "أحمد عادل كمال".هذا المؤرخ كان من ضمن جماعة الإخوان المسلمين،وعُذِّبَ أيام عبد الناصر عذابًا شديدًا،وكتب مجموعة كتب عن الفتوحات الإسلامية بالإضافة لهذا الكتاب،ووضع فيه هذه الوثيقة التي نشرها الشيخ الغزالي رحمه الله،اقرأها لتفهم ما يحدث الآن من أشياء تَتَعَجَّبُ لها ، ولا تجد لها تفسيرًا .

قرأ محمود الوثيقة،ولفت انتباهه بعض البنود التي تنطبق على الشيخ اسماعيل المصري مثل :

١ ـــ محو فكرة ارتباط السِّياسة بالدِّين الإسلامي .

٢ـــ تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدِّين في المدارس ، وربطها بالمعتقدات الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية ، وليست سياسية مع إبراز مفاسد الخلافة ، وخاصة من العثمانيين وتقدُّم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة ، وإقصائها عن السياسة

٣ـــ بعد دراسة عميقة لموضوع المتديِّنين من غير الإخوان ، وهم الذين يمثلون الاحتياطي لهم . وُجِد أن هناك حتمية طبيعية وعملية ، لالتقاء الصنفين في المدى الطويل ، ووُجِدَ أن الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم بمعاملة الإخوان ، قبل أن يفاجئونا كالعادة باتحادهم معهم علينا ، ومع افتراض احتمال كبير لوجود أبرياء كثيرين منهم ، إلا أن التضحية بهم خير من التضحية بالثورة في يوم علي أيديهم ، ولصعوبة واستحالة التمييز بين الإخوان المتديِّنين بوجه عام ، فلا بُدَّ من وضع الجميع ضمن فئة واحدة ومراعاة ما يلي معهم :

أ- تضييق فرص العمل والظهور أمام المتديِّنين عمومًا في المجالات العلمية والعملية.

ب- محاسبتهم بشدَّة وباستمرار في أيِّ لقاء فردي ، أو

زيارات أو اجتماعات تحدث بينهم.
ج- عزل المتديِّنيين عمومًا عن أيِّ تنظيم ، أو اتَّحاد شعبيّ أو حكوميّ ، أو اجتماعيّ أو طلاَّبيّ ، أو عُمَّاليّ أو إعلاميّ.
د- التوقف عن السياسة السابقة في السماح لأيِّ متدين بالسفر للخارج للدراسة أو العمل ، حيث فشلت هذه السياسة في تطوير معتقداتهم وسلوكهم ، وعدد بسيط جدًا هو الذي تجاوب مع الحياة الأوربية في البلاد التي سافروا إليها ، أما غالبيتهم فإن من هبط منهم في مكان ما ، بدأ ينظم فيه الاتَّصالات والصلوات الجماعية ، أو المحاضرات ، لنشر أفكارهم.
ه-التوقُّف عن سياسة استعمال المتديِّنين في حرب الشيوعيين ، واستعمال الشيوعيين في حربهم بغرض القضاء على الفئتين ، حيث ثبت تفوق المتديِّنين في هذا المجال ، ولذلك يجب أن تُعطى الفرص للشيوعيين ، لحربهم وحرب أفكارهم ومعتقداتهم ، ومع حرمان المتدينين من الأماكن الإعلامية .

و- إثارة الرُّعب في نفس كل من تسول له نفسه القيام بمعارضة فكرية للحكم القائم.
ل - وجود الشُّعور الدائم ، بأن المخابرات تشعر بكلِّ صغيرة وكبيرة ، وأنّ المعارضين لن يتستَّروا ، وسيكون مصيرهم أسوأ

مصير .

انتهى ويُعرض على السَّيد الرئيس جمال عبد الناصر.

إمضاء ـــ السَّيد رئيس الوزراء

إمضاء ـــ السَّيد قائد المخابرات .

إمضاء ـــ السَّيد مدير المباحث العامة .

إمضاء ـــ السَّيد شمس بدران .

قال الشيج جلال ، بعد أن انتهى محمود من القراءة :

-هل عرفت السبب فيما نحن عليه من ضياع والخلال ، وتشويه لصورة الدِّين وعلمائه ، وتاريخنا ، وإسلامنا .

-لكن هذه الوثيقة كانت أيَّام عبد النَّاصر .

-لكنهم مستمرُّون في العمل بها حتى الآن . دقّق في بنودها، ستجد ما أقوله ، ثمّ إن أعضاء التَّنظيم الطليعي أيام عبد الناصر هم الذين يحكمون الآن،في كلّ المواقع تقريبًا ، كما أن الإخوان مازالوا موجودين ، والشيوعيون والعلمانيون مازالوا موجودين أيضًا،والنظام يتَّبع نفس الأسلوب في ضرب الإخوان بالشيوعيين والعلمانيين ، ومنع أي متديِّن من تولّي أي منصب قيادي ؛ لذلك تجد دائمًا الفضائح والرشاوي والخيانة ، هي التي علي السَّطح ، وتجد دائمًا الفاسدين هم الذين يتولّون المناصب،ولا يوجد أشخاص تشعر أنّ عندهم ضمير، ويخافون على البلد،وتجد اللّصوص لا يحاسبون، هل عرفت سبب تخلّفنا

وضياع خلقنا،وللأسف كثير من البلاد العربية تطبِّق ما جاء في هذه الوثيقة،وخاصة من كان يعتبر نظام عبد الناصر هو القدوة التي يجب أن تُتَّبع .

-نعم ، لقد عرفت الآن سبب الهجمة الشرسة في كلّ وسائل الإعلام على الإسلام والمشايخ ، ولماذا كلُّ هذا الفساد المنتشر في أرجاء الوطن العربي .

-نعم ؛ لذلك لن ينصلح حالنا إلا إذا أُزيلوا من علي السَّطح ، وحلَّ محلهم أناسٌ متدينون يخافون الله .

-صحيح ؛ لذلك هم يخافون من الشيخ إسماعيل المصري ، لأنه من الممكن أن يتعاطف مع من ينادي بمباديء الإسلام .

-نعم ، لذلك يحاربون أيَّ متدين بالسِّجن ، أو النفي ، أو التهميش ، أو إلصاق التُّهم به .

-وكيف سأتصرف ؟

-لا تخف ، عليك أن تَثْبُت ، ولا تعمل معهم أبدًا ، وهم لن يفعلوا معك أكثر ممَّا فعلوه، ولا تخف وتحمَّل سخافتهم حتى يحلَّها الله من عنده،ولا تشغل بالك بهذه الأمور ، ركِّز في زواجك وافرح وابدء حياتك بدون خوف ولا قلق ، واحرص على أمنية ، هي مثل ابنتي بالضبط ، وما يغضبها يغضبني ، كن حريص على اسعادها،مثلما ستكون هي حريصة على اسعادك بإذن الله .

-هي في عيني وسأحاول أن أسعدها بإذن الله

الزِّفاف

جاء يوم الزِّفاف الذي كان ينتظره منذ سنين ، شعر بالقلق لكنه طمأن نفسه بالأدعية وقراءة القران ، استمع لنصائح خاله وتوكَّل على الله .

أصر عز صديقه على أن يزفَّه في سيارته، وزيَّنها بالورود وانتظره حتى لبس ملابسه وركب معه، وذهبوا إلى مركز التجميل وخلفهم باقي السيارات.

انتظر في الخارج حتى خرجت العروس وركبت بجواره ، وكانت تلبس فستان زفاف أبيض ، وحجاب طويل .

تحرك الموكب الى قاعة الاحتفالات الخاصة بجامعة عين شمس في العباسية .

وصلوا الى النادي،وكان في استقبالهم فرقة أناشيد ، إسلامية وزفوهم لباب القاعة وسط نظرات الاستنكار من أهل محمود .

صعدت العروس مع النساء إلى القاعة المخصَّصة لهنَّ في الدور الثاني ، بينما محمود دخل مع المدعوين إلى القاعة المخصصَّة للرجال في الدور الأول.

كانت القاعة الخاصَّة بالرجال أشبه بقاعة المؤتمرات . قعد المدعوون حول مناضد كبيرة منتشرة في القاعة ،كلُّ منضدة

قعد حولها عشرة من المدعوين .بينما محمود كان قاعد على منصة بين عمِّه الحاج فتحي وأبو العروس ، وكأنهم في مؤتمر!.

بدأ الحفل بأناشيد إسلامية منبعثة من جهاز التسجيل ، ثم خطبة عن الزواج في الإسلام قام بإلقائها أحد المشايخ ، ثم بعد ذلك قام الجرسونات بتقديم الطعام والمشروبات والحلو على المناضد.

بعد أن تناول الجميع الطعام والشراب ، قام أحد المشايخ وأخذ يدعو للعريس والعروس بالهداية والتوفيق وبالذرية الصالحة ، ثمَّ طلب من الحميع القيام ليهنئوا العريس نذيرًا بالانصراف.

ما حدث في قاعة الرِّجال حدث مثله في قاعة النِّساء ، مع الفرق أنه كان يوجد فرقة أناشيد إسلامية مكوَّنة من منشدة ومنشدات صغيرات تلبسن فساتين بيضاء مثل الملائكة ، وكنَّ ينشدنَّ أغاني وأناشيد اسلامية لم تعجب طبعًا أم محمود ، ولا جميع من حضر من معارفه .

لم يلق حفل الزفاف استحسان أهل العريس،لكنهم لم يتكلَّموا،واكتفوا بالنظر لبعض تعبيرا عن عدم رضاهم وسخريتهم ممَّا حدث .

قام جميع المدعوين بتهنئة محمود وتقبيله والدعاء له ، ما عدا حسين الذي ظل آخر واحد،ثم قام وسلّم عليه وهمس في أذنه، وقال :

-أين الراقصات التي ستزفك!؟ألم تقل لي أن في الحفل راقصات!.

ضحك محمود ، وقال :

-أنا كلمت زوجتي ؛ لتبحث لك عن عروس .

-لا أريد أن أتزوَّج ، أنا سعيد هكذا ! ، ألف مبروك ، كم أنا سعيد لأني أراك سعيدًا .

-أطال الله عمرك مع الصحة.

انتظر أمنية حتى نزلت،فمسك يديها ووضعها تحت ذراعه، وركبا وتحرَّكت السيارة وتحرَّك الموكب.

التفت عز إلى محمود ، وقال له :

-أنا سعيدٌ لدرجة لا توصف ، سعيدٌ لأني رأيت السعادة في عينيك لأول مرة.

شكره محمود ، وقال لأمنية :

-عز صديقي الأمين،وأحبُّه لأنِّي أعلم مقدار حبه لي ، ولأنَّه الصديق الوفي .

ضحك عز ، وقال :

-أنا الذي أطلقت عليه لقب "أبو داوود المصري" .

ضحك محمود ، وقال :

-أدام الله المحبة بيننا ، ورزقك بالزوجة الصالحة .

-يارب ، وتكون جميلة وطيبة .

ضحك محمود ونظر لأمنية ، وقال هامسًا :

-كم أنا سعيد وغير مصدِّق ، الحمد لله الآن أصبحت من أهل اليمين .

-ماذا تقصد ؟

-إنه موضوع سيطول شرحه ، الحمد لله أنا سعيد جدًا ، وأتمنى أن تكوني سعيدة مثلي .

نظرت إليه ، وقالت في خجل :

-الحمد لله ، وأنا أيضًا .

الفلوجة تحترق ، وعفيفي يصمد

مر عام تقريبًا على احتلال العراق،ولم تهدأ المقاومة بل زادت هجماتها،وخاصة في المدن السُّنِّية ، ومنها مدينة الفلوجة التي كانت ومازالت عصيَّة على المحتلين،فبعد أن أجبرت قوات الاحتلال علي التمركز خارج المدينة بعد أن قصفت مقرَّهم - الذي اتخذوه،وكان قسم الشرطة الخاص بالمدينة -بمدافع الهاون قامت بنصب كمين لإحدى عربات المرتزقة التي كانت تسير في الطريق العام للفلوجة ، متحدِّية أهله والتي لا تتفاهم مع أحد إلا بلغة الرصاص،والتي تقتل بلا رحمة ، لمجرد الاشتباه، وقامت بإطلاق النار على من فيها ، فأردتهم قتلى .

سمع الأهالي صوت طلقات الرصاص ، فخرجوا وجروا نحو السيارة ، وعرفوا أنها سيارة خاصَّة بالمرتزقة،فقاموا بإشعال النار في السيارة بعد أن أخرجوا الجثث منها ، ثم قاموا بتمزيق جثث المجرمين ، وقاموا بتعليق الجثث على الجسر بعد أن ضربوها بالنِّعال وهم سعداء وفرحون ، وتناقلت وسائل الإعلام هذه الصُّور ، وأعادت إلى الأذهان شبح الصومال الذي أجبر رئيس امريكا السابق "كلينتون" علي سحب قوَّاته من هناك بعد أن تمَّ سحل بعض جنوده هناك.

جُنَّ جنون بوش ومن معه ، وقرروا الانتقام من أهل المدينة جميعًا لحقدهم عليها ؛ لأنها المدينة العصية عليهم ، فقرروا محاصرتها بحجَّة تسليم القتلة الذين ظهرت صورهم على التلفاز.

مرت الأيام بسرعة ، وفوجيء أهلُ المدينة بحصارها من كل جانب ، ومنع أهلها من الدخول أو الخروج إليها .

قامت القوَّات الأمريكية بإلقاء منشورات من الطائرات تطالب بتسليم القتلى ، وعدم المقاومة ، ثمَّ سمع الناس الذين يسكنون في أطرافها تهديدات وإنذارات منبعثة من مكبرات الصوت وباللغة العربية ، وكان للأسف بعض المرتزقة من العرب قد عملوا مع قوات الاحتلال ضدَّ أهل دينهم مقابل المال الوفير والوعود الكثيرة.

شعر الشيخ حاتم الضاري بخطورة الموقف ، فعقد اجتماعًا في منزله ضمَّ قادة المقاومة ، وتباحثوا الأمر ، وقرَّروا المقاومة مهما حدث من عواقب ، وقرَّروا تهريب الشباب الذين ظهرت صورهم على شاشة التلفاز إلى مدينة الرمادي ، لكيلا يقعوا في الأسر ، أو يكونوا موضع مساومة ، ولكيلا يضعفوا أمام كميَّة الدمار والخراب التي ستحدث .

اعترض أحد المجاهدين ، وكان من ضمن الذين ظهروا علي الشاشة ، وقال :

-كيف نهرب ونترككم ، ونحن السبب في كلّ هذا . نحن لن نغادر المدينة ، وسنحارب في صفوف المقاومة حتى نستشهد

-ياولدي دعك من العواطف ، الضرورات تبيح المحظورات، فقد يضعف أحد الأهالي ، ويوشي بكم وبنا ؛ ليُنَجِّي نفسه ومن معه ، يا ولدي أنت ومن معك ستذهبون للرمادي ، وهناك أيضا يوجد مقاومة ، نحن في وقت عصيب ، وكل دقيقة تمر لها ثمن باهظ . يا وضّاح

- نعم .

-أنت الذي ستقود الشباب للخروج من الفلوجة عبر الطريق الذي تعرفه، ستغادر الفلوجة اليوم بعد منتصف الليل ، أسرع لكيلا يغلقوا هذا الطريق ، الخونة كثيرون ، ولابدَّ أن نسبقهم قبل أن يسبقونا .

-حاضر .

قام وخرج ، وترك الشيخ وهو يناقش خطة الدفاع عن المدينة.

حسين يتلقّى الطعنات ويستنجد بمحمود

ذهب محمود لزيارة حسين ، بناءً علي طلبه ، وكان قلقًا طوال الطريق فقد كلمه حسين ، وكان متوترًا ، وهذه ليست عادته ورفض أن يقول له ، وهو يحدثه في التليفون عن سبب توتُّره .

طرق الباب ، ففتح له شقيق حسين الصَّغير ، وأدخله ، فدخل ، وقعد علي الكرسي الذي يقعد عليه دائمًا ، وأخذ يتأمَّل مكتب حسين ، وتعجَّب من كثرة الملفات الموضوعة عليه .

طرق حسين الباب ، ودخل ورحب بمحمود ، وقعدا. قال محمود :

-ماذا حدث؟ لقد قلقت عليك طوال اليوم ، وشكلك لا يطمئن .

-أنا في مصيبة يا محمود .

-ماذا حدث ؟

-عندي تفتيش بعد أسبوعين .

-وما المشكلة؟

-لا بُدَّ أن أجَهِّز على الأقل عشر قضايا من القضايا التي قمت بالكتابة فيهم ، والتي ترافعت فيهم ، لكي يُقَيِّمُوا شغلي ،

وليكتبوا عني تقريرًا ، ويرفعوه لرؤسائي ويجازوني ، إمَّا بالترقية ، أو بتفويت الترقية مع كتابة ملحوظات في ملفي الوظيفي .

-وما المشكلة في ذلك ؟

-المشكلة أنَّني غيرُ جاهز للتفتيش .

-لماذا ؟

-لأنه لا يوجد عندي قضايا كتبت فيها بإتقان .

-لماذا ؟

-لأنِّي كنت مشغول ، ولم أكن متفرغًا للقضايا ، ولا للعمل .

-مشغولٌ بماذا ؟

-كنتُ مشغولًا بدراستي للغة و.....

قال محمود مقاطعًا :

-وبالسَّهر مع الأجانب ، وبالحفلات ، وبالسفر وباللَّهو، لا تتعلَّل باللّغة ، لقد انتهيت من دراستها منذ ما يقرب من سنة ، صح أم خطأ.

قال بانكسار :

-صح .

-أهملت عملك الذي قدم لك كلَّ شيء ، وجريت وراء وهم وسراب ، إنَّ ربك لن يبارك لك في رزقك ولا عمرك ، أنت تعرف أكثر منِّي قيمة وظيفتك في الإسلام ، لقد جعل الله مصالح وحقوق الناس في يديك ، لكنك لم تشعر بقيمة كل هذا وجريت وراء وهم .

-ليس وقته هذا الكلام ، أعرف كلَّ الذي تريد أن تقوله ، أنا أرسلت لك لكي تساعدني ، لا لتؤنبني .

-أنا آسف ، لقد اغتظتْ ، ما هو المطلوب منِّي ؟

-الملفات التي على المكتب عليَّ أن أجهز منها عشر ملفات، وأريد مساعدتك.

-وما المطلوب منِّي ؟

-لقد اختلطت مستدات القضايا ببعض ، منذ أن أحضرهم منذ شهر ، وأريد منك أن تنظِّمهم معي ، وتضع مستندات كلِّ قضية في ملفها ، تقرأ كلَّ مستند وتضعه مع شبيهه ، وأريد أن أُمليك وتكتب أنت علي الحاسب ، لكي نُنجز أكبر قدر ممكن ، أنا آسف ، أنا أعرف أنك متزوجٌ ، لكني لا أجد غيرك في وقت الشِّدة .

-لا تقل هذا الكلام ، أنت أخٌ لي ، لكن ما تطلبه سيتطلب وقتًا طويلًا ، ولن يكفي اليوم .

قال ، والخجل يكسوه :

-أريد منك أن تأتي إليَّ كلَّ يوم بعد العمل ، وتسهر معي مدَّة الأسبوعين القادمين ، أنا أعرف أنَّ هذا كثير ، لكن لا أجد غيرك لكي يساعدني .

-لا تقل هذا الكلام ، لكن أنت تعرف أن لي زوجة وغريبة عن قريتنا ، ولا تعرف أحدًا ، وترفض أن تأكل حتى أعود من العمل ، ولها عليَّ حقوق .

-أعرف ذلك ، لكن أنا في محنة قد تُطيح بمستقبلي .

قال ، وهو يفكّر في أمنية :

-حاضر ، أنا بإذن الله سأجد لها حلًا ، لا تقلق هيَّا بنا نعمل ، لكيلا نضيع الوقت ، واذهب وأحضر أكواب الشاي باللبن .

ضحك حسين ، وقبَّل رأسه واستأذن منه ؛ ليأمرهم بتجهيز طلبه ، وهمَّ بالخروج ، فاستوقفه محمود،وقال بلؤم وهو يبتسم:

-لا تنسَ أن تغسل وجهك ويديك بالمطهِّر ؟

-لماذا ؟

- لكي تطهرهم من الجراثيم ، فقد قبَّلت رأسي وسلَّمت عليَّ بيديك ، وأنا قادمٌ من هناك من عند الفلاحين الجربى .

ضحك ، وقال :

-ألم تنسى بعد ؟ أنا المخطيء ، لأنّني أفشيت سرّي لك .

-أمزح معك .

-قلت لك ألف مرة،أنت غير كلّ النّاس ، تذكر ذلك دائمًا يا ارهابي يا لئيم،ضحكا،وخرج ثم عاد وبدءا في تجهيز القضايا، ومن حين لآخر يتصل محمود على أمنيه،ليطمئن عليها وحسين ينظر إليه بإعجاب ، ويتمنى في سرّه أن يكون مثله في تحمله للمسئولية ، وتكون له زوجة مثل أمنية .

استمرَّا علي هذا الوضع حتى الثانية صباحًا ،واستأذن محمود، ووعده بالمجيء غدا ،كما اتفقا .

استمر محمود على هذا الحال لمدة عشرة ايام متواصلة حتى استطاع أن ينجز أكبر قدر مع حسين ، وانتهى حسين من تجهيز ملفاته وعرضهم على التفتيش ، وانتظر نتيجة التفتيش وهو خائف .

أبو داوود يقرِّر أن يكون إيجابيًا

منذ أن استقرَّ في القرية ، لاحظ أشياء عديدة ، وغريبة لم يلاحظها من قبل ، فقد لاحظ أنَّ البنات في القرية أصبحن تلبسن ملابس مثيرة ، وضيِّقة ، ففي إحدى المرَّات حينما كان قاعدا في فناء الدوار بعد صلاة العشاء مع أفراد العائلة ، لمح فتاة تمشي في الشارع ، وترتدي ملابس ضيقة جدًا وسافرة الشعر ، وتسير على مهلها، ولا يهمها أحد ، وبجوارها أبوها وأمُّها ويسيرون جميعًا في الشارع بلا خجل أو كسوف ، فسأل أحد أقاربه :

-من هذه التي مرَّت أمامنا؟

-لماذا ؟هل أَعْجَبَتْكَ ؟ هل ستتزوج مرَّة أخرى ؟

-أنا أريد أن أعرف من هي؟ وابنة من؟ وكيف تسير في الشارع بهذا المنظر ؟

-إنها ابنة علي المغربي بائع الأجهزة الكهربائية .

- وكيف تسير بهذا المنظر في البلد ؟

-لقد أصبح هذا شيئًا طبيعيًا في القرية ، الله يخرب بيت السكان الأغراب،والتلفاز، هما السبب في فساد أخلاق الناس.

-أيُّ سكان؟

-سكان المدن الذين تركوا المدن ، وجاؤوا للعيش هنا .

-لماذا؟

-لرخص المعيشة ، ولقلة الإيجار عن مصر ، وقرب قريتنا من مصر .

-ماداموا أغرابًا ، فلماذا لا يحترمون مشاعر أهل البلد؟

-لقد حذّرناهم منذ سنوات،حينما جاؤوا للسكن ، وسمعوا الكلام ، لكنهم الآن لم يعد يهمُّهم أحد ، ولم نعد نستطع أن نضغط عليهم .

-لماذا؟

-لأنهم كثيرون ، وكلٌّ يوم يأتي غيرهم وأهل البلد يدافعون عنهم ؛ لأنهم يدفعون لهم الإيجار ، فيسكتون نظير هذه الأموال.

-وأين العمدة ، وعمِّ فتحي ؟

-لن يفعلوا لهم شيئًا .

-لماذا ؟

- لم يعد لأحد سلطان على أحد مثل زمان ، الناس زمان كانت تخاف وتختشي ، أما الآن فلا يخاف أيٌّ أحد من أحد .

-لماذا ؟

-زمان،كان يوجد فقر وجهل،والكلُّ كان يعمل في الأرض عند أعمامك وعند العمدة،أما الآن فالكل تعلّم واشتغل وسافر،وأصبح معه نقود ، ولم يعد في حاجة لأحد ولا يهمُّه أحد،وإن هدَّدته يسبُّك ويجري على المركز،ويقدم فيك بلاغًا،القرش قوَّى قلوب الناس والتلفاز غيَّرهم،وجعلهم وقحين، هذا هو السبب .

-لكنِّي أرى بنات القرية تلبسن نفس الملابس .

-التلفاز هو السبب لقد أصبح في كلِّ بيت وصلة دش ، أو طبق دش والبنات أصبحن يقلدن ما تراه دون تفكير.

-وأين أهاليهم ؟

-هم أيضًا يقلِّدون ما يرونه،وينطقون بالحجج التي يسمعونها في التلفاز. وإن قلت لهم إن هذا عيب يقولون هذا هو الملبس في كلِّ مكان ، وإن هذه هي الموضة ، وإن قلت لهم إنَّ هذا لا يصح عندنا ، يردُّون بوقاحة . دع البنت تعيش وتفرح بشبابها ، ولا تكبتها ، غدًا ستتزوَّج وستحمل الهم. اتركها وغدًا ستعقل.

- لكنِّي أرى الملابس ضيِّقة ومثيرة ، ألا يخافون على بناتهم من أن يتعرض لهم أحد!؟ ألا يقرؤون في الجرائد عن حوادث الاغتصاب التي تتكرَّر كلَّ يوم .

-إن قلت لهم ذلك،سيردُّون بكل بجاحة . صوتها وحذاؤها سيحموها من كلّ سوء ، ثمّ إنّ البنت المؤدبة ، إن ألقيتها في النار لن يحدث لها أيُّ مكروه .

ضحك بسخرية ، وقال :

-لماذا ؟ هل هي أشدُّ من الحديد؟ إنّ الحديد لو ألقيتَه في النار سيسيح !.

-كما قلت لك ، التلفاز هو السبب هو الذي غيَّر فكر الناس .

-كلُّ شيء نحمله على التلفاز ، ونقول هو السبب! ، أين الدِّين؟ ، وأين النخوة؟ ، وأين الرجولة؟

-لقد ضاعوا من زمان ، منذ أن أصبح كلُّ واحد فينا لا يهُمُّه في الدنيا غير القرش ، وغير نفسه ومصلحته ، ربنا يستر على بناتنا .

ومن الأشياء التي لاحظها في قريته،وتعجَّب لها هو: الزِّحام الشديد أمام منافذ بيع الخبز ، فقد رأى في إحدى المرَّات ، -حينما كان ذاهبًا لعمله-زحامًا وتطاحنًا شديد أمام أحد المخابز، وسمع سبابًا قذرة ، وصراخ ، وضرب من بعض النِّسوة لبعض ، فظنَّ أنَّ هناك شجارًا أو مشكلة ، فاقترب ، وسأل أحد الواقفين :

-ماذا حدث ؟ ولماذا كلُّ هذا الزِّحام ؟

أجاب بلا مبالاة :

-موالٌ كلِّ يوم ، وخناقة كلِّ يوم ، إنهم يتزاحمون من أجل شراء الخبز .

تركه ، وذهب ليركب، ليلحق بعمله ، وحينما عاد سأل ابن عمه عمَّا رآه ، فأجاب :

-كلُّ يوم منذ الفجر ، يحدث نفس الشيء ، وتحدث نفس الخناقة .

-ولماذا كلُّ هذا التطاحن؟

-كما قلت لك من أجل شراء الخبز .

-ولماذا كلُّ هذا الزِّحام؟

-لأن المعروض من الخبز قليل ، والناس كثيرون ، والكل يريد أن يلحق قبل أن يَنْفُذَ الخبز .

-مادام الخبز لا يكفي ، فلماذا لا يخبزون كمية أكبر؟

-أصحاب المخابز من مصلحتهم ذلك .

-لماذا ؟

-لأن الدَّقيق مدعوم من الحكومة ، والحكومة تصرف لكلِّ مخبز عشرة جوالات ، فيقوم أصحاب المخابز بخبز أربعة

جوالات ، ثمَّ يبيعون الباقي في السوق السوداء ، فيكسبون مبالغ طائلة ، لذلك تجد النِّساء تذهبن من الفجر ؛ لتلحق قبل أن ينفذ المعروض .

-ولماذا لا يشتكون لِعَمِّ فتحي ، أو للعمدة ؟

-عمِّ فتحي،والعمدة يرفضان تقديم أيَّ شكوى ضد أصحاب المخابز؛لأنهم يقفون معهم في الانتخابات، ويساندوهم بالأموال والدَّعاية ، فيحرصان على عدم خسارتهم ، وإذا جاء أيُّ شخص يريد أن يشتكي يطلب منه عمِّ فتحي أن يكتب الشكوى،ويكتب في نهاية الشكوى اسمه وعنوانه ورقم بطاقته؛ ليقدِّمها ، وطبعًا يذهب الشاكي ، ولايعود مرة أخرى ؛ لأنه يخاف من المواجهة مع صاحب المخبز ، إذا عرف أنه هو الذي قدَّم فيه الشكوى .

-أستغفر الله العظيم ، وما الحل؟

-الحل عند ربنا ، هو الذي يحلُّها من عنده .

- ولماذا لا تخبزن النساء في البيوت ؟

-يا أستاذ محمود ، لا يوجد أحد يخبز مثل زمان إلا قليل جدًا.

-لماذا؟

-لأسباب كثيرة ، الناس باعوا الأرض ، أو أجَّروها ، وبنوا بالمال عمارات وقاموا بتأجيرها هي الأخرى ، ولم يعودوا فلاحين مثل زمان ، وأصبحوا يحتقرون مهنة الفلاحة ، والنساء أصبحن يستسهلن الشراء بدلًا من الخَبْزْ ، ولم تعلمن بناهنَّ العجن ، أو الخبز وبناهن كما تراهم يعشن في الدور ، وينظرن لهذه الأشياء باحتقار ، والباقي عاجز وفقير ، ولا يوجد أمامه غير الوقوف أمام الشباك منذ الفجر ؛ لأنه لا يقدر على ثمن الخبز الغير مدعوم. فأصبح الوضع كما ترى ، والحكومة من وقت لآخر تأتي على غفلة ، فتوقع على المخالفين غرامة ، وأحيانًا تغلق أحد المخابز لمدة معينة ، فيخاف أصحاب المخابز الأخرى ، وينصلح الحال لمدة معينة ، ثمَّ يعود الحال كما هو عليه .

تركه وعاد لمنزله ، وحكي لزوجته أمنية عمَّا رآه ، وعمَّا سمعه ، فغضبت بشِدَّة ، ودخلت إلى الغرفة ، وأحضرت ورقة وقلم ، وكتبت شكوى ضد صاحب المخبز الذي حكى عنه محمود ، وأعطتها له ، وقالت :

-هذه شكوى وقّع في آخرها ، واكتب اسمك ، وعنوانك ، ورقم بطاقتك .

-لماذا ؟

-لتقدِّمها لمباحث التموين مباشرة ، ألم تقل إنه لا يوجد أحد يجرؤ على كتابة شكوى ويوقِّعها باسمه ، وقِّع أنت على الشكوى ، وقدِّمها بنفسك .

-أنا لا أريد مشاكل مع أحد ، أنا لا أريد أن يغضب مني عمِّي فتحي ، ولا صاحب المخبز ، إنه مفتري وقد يتعرَّض لي بسوء.

-تخاف من غضب عمِّك ، ومن غضب لص ، ولا يهمُّك مشاعر وتعب الناس.

- ليس لي شأنٌ بهذه الأمور، أنا أريد أن أكون في حالي .

-ألم نَتَّفق سويًا على عدم السَّلبية ، وعلى المشاركة في حلِّ كلِّ المشاكل التي تواجهنا ، ولا نهرب منها .

-بلى، لكن هذه المشكلة لا تخصُّنا .

-كيف؟

-نحن والحمد لله ، لسنا فقراء ، ولا نشتري هذا الخبز المدعوم ، أصحاب المشكلة هم الواجب عليهم أن يتصرَّفوا .

-وهل معنى أنَّنا أغنياء أن ننسي آلام الفقراء والمحتاجين؟ افترض أننا قد افتقرنا ، ولم نجد غير هذا الخبز المدعوم لنأكله ، ماذا كنَّا سنفعل؟

- ولماذا أفترض شيئًا غير موجود، ولن يحدث ؟

-وهل هذا بعيدٌ عن الله؟ استغفر ربك ، لكيلا يغضب عليك ، ويُفْقِرُكَ ، ويُذِلُّك .

-أستغفر الله العظيم.أقصد أنّي لا أريد مشاكل مع أحد ، ومادام الله قد وسَّع علينا ، فليس لنا شأن بالآخرين. أولي الأمر هم المسئولون أمام الله .

-لكن من رأى منكم منكرًا ، فَلْيُغَيِّره .

لم يدعْها تُكمل الحديث ، وقال :

-وإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان ، وهذه هي مقدرتي .

تركته،ودخلت الغرفة وأخذت تبحث في المكتبة حتى وجدت كتابًا يتناول سيرة الخلفاء الراشدين،فأخرجته من المكتبة،وأخذت تُقلِّب في الفهرس حتى وجدت ما تبحث عنه، وخرجت وقالت :

-هل تؤمن بالله ورسوله ؟

- بالطبع ، وهل هذا سؤال تسألينه ؟

-هل قرأت سيرة الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) وتؤمن بما جاء بها ؟

-نعم.

-هل تتذكر قصة البئر التي اشتراها سيدنا "عثمان بن عفان" من اليهودي الذي كان يساوم المسلمين علي ثمن الماء ، وكان يتحكّم فيهم ؟

-نعم ، لكن ما دخل هذه القصَّة بموضوعنا ؟

- هذه القصَّة لها دخلٌ بصميم موضوعنا ، سيدنا "عثمان" كان غنيًا جدًا ، وكان باستطاعته أن يشتري احتياجه من الماء بأي ثمن ، وفي أي وقت ، ولا يشغل باله بمعاناة المسلمين ، لكنَّه كان مؤمنًا بالله ورسوله ، ولم يقل أولو الأمر عليهم أن يتصرفوا،ولم يقل أصحاب المشكلة هم الواجب عليهم حلُّها،وأنا غني وليس لي شأن ، واشترى البئر ووهبها للمسلمين .

-لكنهم قتلوه في آخر الأمر ، ورفضوا أن يسقوه شربة ماء، وذكّرهم بذلك ، لكنهم رفضوا أن يسقوه، وقتلوه .

-المنافقون هم الذين قتلوه ، وليس المؤمنون ، ثمّ إن ما عند الله لا يضيع ، المؤمن لا يهمُّه شكر الناس ولا ثناؤهم ، أهم شيء عنده رضا الله عنه .

-من أين أتيتِ بكلّ هذه الحجج؟أنا لا أستطيع أن أغلبك، أنا الذي كنت أظن نفسي أعلم الناس ، ولا يقدر عليَّ أحد ، تأتي أنت وتغلبيني .

ضحكت ، وقالت :

-ربنا يخليك لي،ويجعلك نصيرًا للفقراء ، خذ الشكوى وَوَقِّع عليها .

أخذها منها ، وقال بعد أن كتب اسمه ، وكتب عنوانه ، ورقم بطاقته ورقم هاتفه :

-أمري لله ، ربنا يستر، ضعيها في مظروف، واتركيها في جيبي ، لكي أقدمها لمباحث التموين في المركز ، حينما يكون لديَّ وقت .

ابتسمت ، وقالت :

-هل ستقدِّمها ، أم ستضحك علي؟

-لو كنت أريد أن أضحك عليك،لسايرتك وأخذتها منك، ثم ألقيتها بعد ذلك في سلّة المهملات .

-أعرف ذلك ، لكني كنتُ أريد أن أتأكد ، ليطمئن قلبي .

-اطمئني .

قطب جبينه ، وقال بلهجة جادة ، وكأنه تذكر شيئًا هامًّا :

-أمنية ؟

-نعم .

-أريد أن أسألك سؤالًا مهمًا ، وأجيبيني عليه بصراحة ، ولا تكذبي عليَّ؟

-تفضل .

-لماذا أنت جميلة بهذا الشكل ؟

لم تكن متوقعة السؤال ، فأجابت بغضب :

-وهل هذا وقته هذا الكلام؟أنت دائما تقلِب الجد،وتحوِّله إلى هزل.

ضحك واقترب منها ، وقال :

-أشعر أنك جميلة جدًا اليوم ، كيف لم أرَ هذا الجمال من قبل ؟

ابتسمت ، وقد احمر وجهُها من الخجل ، وقالت :

-أبو داوود ، لا تكسفني .

ضحك ، وقال بصوت عال :

-أحبُّك ياشيخ جلال ، وأحبُّ كلّ من يأتي من طرفك .

نظرت إليه ، وضحكت ، ثمَّ قالت برقة ودلال :

-لا تنسَ الشكوى ، يا أبا داوود ، يا حبيبي .

-وهل هذا وقته ؟من الفجر سأذهب للمباحث ، أهمُّ شيء عندي هو أن تكوني راضية عنِّي.

-حفظك الله من كل سوء ، أنا راضية عنك ما دمتَ تطيع الله ورسوله .

-بمساعدتك سأطيع الله ورسوله ، الحمد لله على نعمه الكثيرة ، شكرا يا شيخ جلال وشكرا يا عفيفي ، يا أعز الأحباب

الوداع يا عفيفي

رفض أهالي الفلوجة الاستسلام ، وقاوموا بضراوة ، وانتشر رجال المقاومة في كل مداخل المدينة ، وفي كل أحيائها ، ورفض الجميع الاستسلام ، ودارت معاركٌ عنيفة بين الطرفين لكن شتان ما بين قوة الطرفين .

نفذ صبر الأمريكان،فقاموا بقصف المدينة بقسوة ووحشية، فقصفوا المساجد والمستشفى الخاص والبيوت ، وألقوا عليها القنابل- العنقودية والنسفورية- المحرَّمة دوليا ، والتي حوَّلت الجثث إلى قطعٍ من الفحم المحترق .

عمَّ الدَّمار والخراب أرجاء المدينة ، وارتفع عدد الشهداء بكثرة،ومع ذلك رفض الجميع الاستسلام،وظلُّوا على موقفهم، وكان من بينهم عفيفي الذي رفض مغادرة الفلوجة ، وصمَّمَ على القتال حتى آخر نفس .

سمع صراخ فتاة يأتي من أحد المنازل التي قصفتها إحدي الطائرات الأمريكية ، فخرج من مخبئه ،- ورفض أن يستمع لنصائح زملائه وينتظر ، حتى يهدأ القصف -، وقال قبل أن يجري نحو البيت :

-أسمع صوت زوجتي تستغيث بي .

دخل البت ، وأخد يبحث عنها تحت الحُطَام حتى وجدها وكانت تبكي ، فاقترب منها ، وقال :

-لا تخافي ، أنا أخوك في الإسلام ، وجئت لإنقاذك .

-مات كلُّ أهلي ، ولم يعد لي أحد .

-كلنا أهلك ، لا تخافي ، هيَّا بنا .

نزل معها ، ووقفوا أمام البيت ، وأخذ ينظر يمينًا ويسارًا ، وإلى أعلى ، فلم يجد شيئًا ، ولم يسمع غير أصوات الطائرات "الأباتشي" تأتي من بعيد،فخلع سترته وجعلها ترتديها بسرعة، وأمرها أن تجري بسرعة في اتجاه المسجد ، وقام بعمل ساتر من جسده ، وجرى خلفها وفرد ذراعيه ، ليحميها من أيِّ هجوم حتى أدخلها المسجد مع المختبئين بداخله .

بعد أن أدخلها ، واطمأنَّ عليها ، عاد وجرى نحو المكان الذي كان يختبيء فيه ، فظهرت فجأة إحدى طائرات "الأباتشي" ، وأطلقت عليه النِّيران وهو يعبر الميدان ، فسقط على الأرض وسط صراخ زملائه الذين خرجوا من مخابئهم ، وأطلقوا النِّيران والقذائف نحوها .

ابتعدت الطائرة عن ساحة الحي وهدأ القصف، فجرى شابان من شباب المقاومة نحو عفيفي الغارق في بركة من الدِّماء،وحملوه وأدخلوه أحد البيوت الني يثقون في أهلها

وبسطوا جسده على سرير ، والتفُّوا جميعًا حوله ، وأخذوا يواسوه ويطمئنوه ، بينما الدموع تنهمر من أعينهم ، فنظر إليهم ، وقال بصعوبة وهو يبتسم :

-لماذا أرى الدُّموع في أعينكم ، أنا سألقى ربِّي بإذن الله شهيدًا ، هنئوني بدلًا من بكائكم عليَّ ، أريد الشيخ حاتم .

-قال طارق ، وهو يبكي :

-سيصل حالًا ، أرجوك لا تتكلم .

قال بصوت ضعيف :

-يا طارق اقترب منِّي .

اقترب منه ، فقال :

-إن مِتُّ قبل أن يصل الشيخُ حاتم ، بلِّغه بما سأقوله لك .

-حاضر .

-مالي الذي عنده . خذه وتزوَّج به الفتاة اليتيمة التي أنقذناها ، لقد مات كلُّ أهلِها ، ولم يعد لها أحد في الدُّنيا ، أرجوك تزوَّجها ، وكن سندها ، وعوَّضها عن أهلها الذين ماتوا .

-أعدك بذلك .

-ولي طلب أخير .

-قل يانور عيني .

.-أتمنّى أن أُدْفَن بجوار زوجتي في مصر ، أعرف أنه طلب صعب ، لكنها أمنية أتمنّى أن تتحقق ، وإن لم تستطيعوا دفني هناك ، ادفنوني بجوار الشهداء في مقبرة الشهداء هنا .

-حاضر ، لا تتكلم إن شاء الله ستعيش ، الطبيب على وصول.

ابتسم ، وقال :

-الطبيب هو الله .

دخل الشيخ حاتم مُهَرْوِلًا ، وقال وقد انهمرت الدموع من عينيه حينما رأى الدِّماء تترف من كلِّ جزء في جسده :

-ماذا حدث ؟

قال أحد المجاهدين :

- سمع إحدى الفتيات تصرخ تحت أنقاضٍ أحد البيوت التي قصفها الكلاب ، وكان القصف يأتي من كلِّ جانب ، فخاف عليها من الموت ، فخرج من مخبئه ، فأشرت له بالعودة لمخبئه، لكنه رفض وذهب لينقذها وأخرجها من تحت الأنقاض وفداها بجسده،وجعلها تحتمي به حتى أدخلها المسجد ، فلمحته إحدى الطائرات،وهو يعبر الساحة عائدًا لمخبئه،فأطلقت عليه النِّيران ، فأصيب وسقط علي الأرض ، واستمرت الطائرة في إطلاق

النِّيران عليه ، فقمنا جميعًا بإطلاق القذائف نحوها ، لتبتعد حتى ابتعدت ، وقمنا بحمله وجئنا به إلى هنا .

انكبَّ الشيخ حاتم على عفيفي ، وأخذ يقبِّل رأسه ، وهو يقول:

-رجلٌ ابنُ رجل ، ابن الشيخ جلال عن حق .

فقال عفيفي :

-بلِّغ خالي فتحي في مصر بخبر موتي . رقم هاتفه مكتوبٌ على ورقة موجودة في حافظة نقودي ، وبلِّغه أن وصيتي مع محمود صديقي ، أريد أن أُدْفَنَ في مصر لو تقدر على ذلك ، جزاك الله خيرًا ، وإن لم تقدر ادفني في مقابر الشهداء ، وباقي نقودي أعطها لطارق ، وزوِّجه من الفتاة التي أنقذها .

-حاضر ، لكن لا تتكلم كثيرًا . الطبيب سيأتي حالًا .

-شيخ حاتم .

-نعم .

-أنا خائف ، أنا لم أفعل خيرًا كثيرًا .

-ولم تفعل أيَّ شر ، ثق في الله يا بني ، إن متَّ ستكون بإذن الله من الشهداء ، لا تتكلَّم .

-ادعو لي دائمًا بالمغفرة والرحمة ، وتذكرني بالخير .

-إن شاء الله ستعيش .

نظر إليه ، ثمّ نظر إلى سقف الحجرة ، وتلا الشهادة ومات، فبكى الشيخ حاتم ، وقال :

-إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

بكى كلُّ من في الحجرة،فانتبه الشيخ حاتم ، وتمالك نفسه، ووقف وصرخ في وجوههم ، وقال :

-لا وقت للعواطف،لابد أن ننفّذ وصيته بسرعة ، الكلاب سيقتحمون المدينة ، لابدَّ من إخراجه اليوم من الفلوجة بأيِّ ثمن.

-وكيف سنخرج بجثته والمدينة محاصرة والمستشفى خارج المدينة وتحت سيطرتهم ، ولن نستطيع استخراج شهادة وفاة له.

قال الشيخ :

- لابدَّ من استخراج شهادة وفاة له أولًا ، ثمَّ بعد ذلك ستُحل كل الأمور بإذن الله.توجد مستشفى خاص في الحي العسكري،وصاحبها صديقي،سأذهب إليه ، وهو سيساعدني .

-لكنهم يقصفون كلَّ شيء حتى المساجد ، كيف سنأخذ الجثة إلى هناك ، سنتعرض للقصف .

-لن نأخذها ، سأذهب أنا وطارق ، وسنأخذ معنا جواز سفره وبطاقته ، وهو سيتصرَّف ، هيا بنا بسرعه لابد أن نعود قبل موعد حظر التجول ، وأنتم كفِّنوه ، وضعوه في صندوق ، وانتظروني حتى أعود ، لنصلِّي عليه ، هل ستُحْسِنون التصرف أم تنتظروني ؟

-اطمئن ، كلٌّ شيء ستجده جاهزًا بإذن الله .

-هيَّا بنا قبل فوات الأوان .

-احترس يا فضيلة الشيخ ، وخذ حذرك ،

-لا تشغل بالك ، إن شاء الله سنذهب ، وسنعود ومعنا شهادة الوفاة ، هيَّا بنا يا طارق.

أمنية تستنجد ، ومحمود يتوّعد

قالت أمنية لمحمود في فزع :

-الحقني .

-ماذا حدث؟

-جماعة من النسوة يردن اقتحام البيت ، ويقذفن البوابة بالحجارة ، ويسبُّوني .

-لماذا؟

-لا أعرف .

- اهدئي ولا تخافي ، أنا سأتصرف .

وضع السمَّاعة ، واتَّصل على أعمامه في القرية ، وأخبرهم بما سمعه ، فذهبوا مسرعين للبيت ، بينما هو استأذن ، وذهب لقريته بأقصى سرعة .

وصل بعد أن انفضت الخناقة ، وعلم من أعمامه ومن أبناء أعمامه أنّ أهل المعلم شوقي ، قد عرفوا أنه هو الذي أبلغ عن قريبهم مباحث التموين ، والتي جاءت علي غفلة ، وتأكّدت من الشكوى ، وأغلقت المخبز وانتشر الخبر في القرية ، وحل الرُّعب في أصحاب المخابز الأخرى .

قعد معهم في فناء الدّوار ، وظل ساكتًا و لم يتكلم ، و لم يرد على نهرهم له ولزوجته ، وسمع من الحاج فتحي تأنيبًا شديدًا ، وسمع منه كلّ السُّباب الذي قيل في حقِهِ وفي حق زوجته ، و لم يرد أيضًا.

قام وأشار للحاج فتحي بأصبعه ، وقال محذّرًا :

-بلّغ المعلم شوقي بأنني سأكتب شكوى فيه لرئيس الجمهورية ، ولن يهمني أحد ، وسأفضحه في كلّ مكان إن سرق الدَّقيق مرة أخرى ، وزوجتي التي تسبُّها أمامي أرجل من عمدة القرية الذي يتواطىء مع السارق ، أقسم بالله إن تعرَّض أحدٌ لزوجتي ، لأقتلنَّه .

تركهم وانصرف ، فسرت همهمة بين الجميع ، فقال الحاج فتحي معقّبًا :

-هذه هي نتيجة المشي وراء الشيخ جلال ، طبعًا القتل عندك أصبح سهل مادمت إرهابي تساعد الإرهابيين ، والله لو تعرضوا لك لن أدافع عنك ، ولن أقف معك ، ولن أُعَرِّض نفسي للخطر من أجلك ، ولن أُقَبِّلَ يد أحد مثلما فعلتُ من قبل ، ولن أقول عظم التربة مرة أخرى .

دخل من باب شقّته غاضبًا ، فوجد أمنية قاعدة على أحد الكراسي وأمامها حقيبة كبيرة بها ملابسها ، وكانت ترتدي

ملابس الخروج ، وممسكة منديلًا ، وتمسح دموعها ، فقال متعجبًا منها :

-ماذا حدث؟ وإلى أين أنت ذاهبة؟

-أنا أريدك أن توصلني لبيت أهلي .

-لماذا ؟

-لأنِّي لا أستحق أن أعيش معك .

-لماذا ؟

-لأنِّي تسبَّبت في إهانتك أمام الناس ، والزوجة التي تهين زوجها لا تستحق أن تعيش معه .

-ولكنكِ لم تهينيني .

-أنا السبب في كلِّ ما حدث، أنا الذي دفعتك لتقديم الشكوى ، وأنت لم تكن موافق ، لكنَّك وافقتَ من أجلي .

-أنا وافقت ؛ لأني اقتنعت بكلامك ، ولستُ نادمًا على أيِّ شيء حدث ، ولست متضايقًا من سبِّهم لي ، أنا حزينٌ فقط ، لأنهم تعرضوا لكِ ، أنت أهمُّ شيء عندي ، لقد قلت لكِ ألف مرّة ، أنا تعبت وذقت الذُّل ، حتى وجدتك وأنا على استعداد أن أدفع عمري كلَّه ثمنًا لفدائك .

قالت بعد أن ابتسمت ؛ لتداري خجلها :

- لكني أراك متضايق وحزين .

- أنا غير متضايق منك ، أنا متضايق من أعمامي ؛ لأنهم سلبيون ويقفون في صفِّ الحرامي ، ويدافعون عنه ، ويبرِّرون له السرقة، ويقولون " إن كلَّ الناس تفعل مثله ، وإنه أقلّهم سرقة، ولو أغلقوا المخبز وسحبوا منه الحصَّة ، وأعطوها لغيره سيسرق أيضًا ، واللصُّ الذي نعرفه أحسن من الذي لا نعرفه ، واللصُّ القديم شبع واكتفى ، وسيسرق قليلًا ، لكن الجديد سيسرق أكثر ؛ لأنه يريد أن يُكَوِّن نفسه". تخيلي لم يقل أحدهم نختار رجلًا أمينًا ، ونجعله صاحب مخبز بدلًا من الحرامي ، ويكأنَّ النَّاس كلُّهم لصوص ، ولا يوجد بينهم شريف .

-للأسف كثيرٌ من الناس سلبيون ، ولا يحبُّون المواجهة ، ولا يهمُّهم غير مصلحتهم الشخصية ، حتى ولو كانت على حساب مصالح الآخرين ، كلُّ واحد يقول "ليس لي شأن" ، لذلك السَّرقة استَشْرَتْ بيننا .

-دعك من كلِّ هذا ، ادخلي ، وغيري ملابسك ، وجهِّزي الغداء ، وآخر مرة أسمعك تقولين " أريد الذهاب إلى بيت أبي" هذا بيتك ، ولا يوجد لك بيت آخر سواه ، ولن تبيتي في أيِّ مكان آخر مادمتُ حيًا ، حتى لو أغضبتك أنا الذي سأترك البيت ، أنتِ صاحبة البيت ، ولستُ أنا ، افعلي أيَّ شيء إلا شيئًا واحد .

-ما هو؟

-أن تتركيني ، وترحلي ، أنا تعبت حتي عثرت عليك ، وإيَّاكِ أن تغضبي من كلامهم ، وإياكِ أن تحزني .

اقتربت منه ، وقبَّلته ، وقالت بفرح :

-حاضر ، يا أغلى من حياتي ، أنا سأدخل لأغير ملابسي ، وأُحضر الغداء .

تركته ومشت ، فقام وجرَّ حقيبة الملابس لغرفة النوم ، ثمَّ اقترب منها ، وجذبها من ذراعيها ، وقال وكأنَّه تذكر شيئًا أغضبه :

-أمنية ! .

-نعم ...هل حدث شيء؟

-نعم . لماذا أنتِ بكلِّ هذه الحلاوة اليوم؟ هل الغضب يجعلُكِ جميلة بهذا الشكَل؟

نظرت إليه بغيظ، وقالت غاضبة :

-أنت دائمًا تُقلقني،وتجعلني أخاف منك،ثمَّ تضحك وتقلب الجد بالهزل.

ضحك،فغيَّرت نبرة صوتها،وقالت بلهجة بها فخرٌ واعتزاز :

-أنا دائمًا جميلة ، وفي كلِّ الأوقات ، وهذا أقل ما عندي ، هل عندك اعتراض؟

قال ضاحكًا :

-وهل أقدر أن أعترض ، أقسم بالله أنِّي أحبُّك أكثر من نفسي.

قالت بلؤم:

-وأنا أيضًا أحبُّك ، لكن ليس أكثر من نفسي.

-موافق .

غيَّر نبرة صوته ، وقال بحزم:

-كفانا كلام وحب ، أنا جائع ، غيري ملابسك بسرعة ، وحضري الغداء ، سأدخل للحمام ، وأريد أن أجد الطعام جاهز بمجرد أن أخرج .

تركها ، ودخل الحمام ، وهو يداري ضحكه ، بينما هي لم تنطق ، وكتمت غيظها ، ثمَّ ضحكت ، ودعت له بطول العمر والصِّحة ، وسِعَةْ الرِّزق .

الخروج من الوطن المهزوم
إلى الوطن المقهور

(١)

عاد الشيخ حاتم ، ومن معه ومعهم شهادة الوفاة ، وصلُّوا على عفيفي ، ثمَّ قعد الشيخ ، وقعد حوله المجاهدون ، وقال :

-إنَّ القصف والدَّمار في كلِّ مكان. لم يتركوا مكانًا إلَّا وقصفوه حتى سيارات الإسعاف قصفوها،والمستشفي قصفوها، ولو لمحوا أيَّ سيارة تسير بالليل سيقصفوها ، إنَّ عندي خُطَّة ، هي صعبة لكنَّها غير مستحيلة .

-قل ، وبإذن الله سننفذها .

-الناس الآن مشغولة بهمِّها ، ولن يلتفت إلينا أحد ، سنضع الصُّندوق في سيارة ، ونذهب به إلى حيِّ الشهداء ، وهناك سنخرج من الفلوجة عن طريق صحراء النعيمية ، سنسلك هناك طريقًا مهجور كان يستخدمه المهرِّبون زمن صدَّام ، هذا الطريق لا يعرفه الكثيرون من أهل الفلوجة ، واستحالة أن يعرفه الأمريكيون ، سنسير بهدوء وحذر حتى نخرج من الفلوجة ، ومنها إلى بغداد ، ثمَّ إلى عمان ، وهناك الشيخ خالد الهاشمي سيتصرف ، أنا سأكلِّمه بعد قليل ، ولن نُبَلِّغ أهله إلا بعد أن تصل جثته لعمان .

قال طارق الرشيدي :

-لكن هذه الطريق لا يعرفه أحد ونحتاج لدليل بسرعة ، قبل موعد حظر التجوُّل .

-أنا سأكون دليلكم .

نظروا إليه في دهشة وقالوا :

- أنت !.

-نعم ، أنا أعرف هذه الطريق وسأدلُّكم بإذن الله هيَّا بنا لا وقت للتفكير ، نريد أن نخرج من المدينة قبل فوات الأوان .

(٢)

جرى الحاج فتحي نحو الهاتف ، حينما علم أن المتَّصل شخصٌ من الأردن ، وأخذ السمَّاعة من ابنه ، وقال :

-ألو ، السلام عليكم ، من معي؟

-أنا الشيخ خالد الهاشمي من الأردن .

-أهلًا وسهلًا ، خير .

-خيرًا إن شاء الله ، طبعًا ، أنت مؤمن بقضاء الله .

-هل حدث لعفيفي شيء ؟

-البقاء لله ، لقد استُشْهِد عفيفي .

- يا للمصيبة ، هل تتكلَّم بجد ، أم تضحك عليَّ .

-نعم ، لقد استُشْهِد في الفلوجة،وستصل جثَّته اليوم الساعة التاسعة بتوقيت القاهرة .

-هل أنت واثقٌ من هذا الخبر ، أم غيرُ واثق ، وهل هو عفيفي ابني ، أم شخصٌ آخر .

-للأسف هو ، واسمه عفيفي علي عفيفي ، تلميذ الشَّيخ جلال الحكيم .

-وامصيبتاه ، وكيف حدث هذا ؟

-أرجوك ، الوقت ضيِّق جثمانه سيصل اليوم في طائرة التاسعة مساءً ، وهو يريد أن يُدفن بجوار زوجته . البقاء لله .

وضع الحاج فتحي السمَّاعة في ذهول،وقال والدموعُ تنهمر من عينيه :

-عفيفي ابني مات ، وأختي ستموت إذا عرفت .

بكى أولاده ، وصرخت زوجتُه ، فوضع كفَّه على فمها ، وقال :

-لا أريد كلمة ، ولا حركة ، دعوني أتصرَّف بحكمة حتى أستطيع أن أدفنه بهدوء ، وبلا مشاكل ، نقوم بالدَّفن أولًا ، ثم بعد ذلك نبكي ونصرخ ونلطم كما نشاء ، أهمُّ شيء نستلم الجثَّة ، وبعد ذلك نفعل أي شيء .

رفع سمَّاعة الهاتف ، وطلب العمدة ، وقال :

-ياعمدة تمالك نفسك،احضر عندي بعد عشر دقائق ؛ لأنَّ عفيفي قد مات ، وجثته ستصل اليوم الساعة التاسعة.

وضع السمَّاعة،وذهب لأخته،وطرق الباب،ففتح له ابنها الأكبر ، ودخل، وقال له قبل أن يصعد السلّم :

-أين أمُّك ؟

-تشاهد التلفاز . هل حدث شيء ؟ شكلك لا يطمئني .

- مصيبة،وحلت علينا جميعًا،أرجوك كن رجلًا ، وساعدني.

-ماذا حدث ؟

-عفيفي مات.

- ياخبر أسود ، كيف حدث ذلك ؟

-قُتِل في العراق ، وجثّته ستصل اليوم ، أرجوك كن رجلًا ، وساعدني في إبلاغ أمِّك ، حتى لا تموت من الصَّدمة .

قال ، والدُّموع تنهمر من عينيه :

-حاضر .

-امسح دموعك .

-حاضر .

دخل الحاج فتحي ، وألقى عليها السَّلام ، وقعد جنبها ، وأخذ الرموت ، وأغلق التلفاز ، وقال وهو يتصنع الابتسامة :

-قلت أشرب القهوة عندك ، وأحكي لك عن الرؤية التي رأيتها في منامي ، لعلك تجدي لها تفسيرًا .

-أهلا بك في أيٍّ وقت،إنه بيتك وتأتي بلا استئذان ،سأقوم لأُعِدَّ لك القهوة.

-نتكلم أوّلا ، ثمَّ نشرب القهوة بعد ذلك .

-حاضر .

-حلُمت _اللهم اجعله خيرًا_ بأن عفيفي يرتدي ملابس بيضاء كالملائكة ، ويقف أمام قصر كبير وجميل ، ويشير لي ، ويقول انظر يا خالي هذا القصر لي ولأمِّي ، وهذه الحدائق ملكي ، بلِّغ أمِّي بأنِّي في نعيم وخير، ثمَّ استيقظتُ مباشرة .

سكتت ، ثمَّ نظرت في عينيه ، وقالت في خوف :

-هل حدث لعفيفي شيء .

انهمرت الدُّموع من عينيه،وقال بعد أن ضمَّها إلى صدره :

-عفيفي مات شهيدًا ، وبطلًا يا أمَّ الشَّهيد .

ابتعدت عنه مذعورة ، وقالت :

-ابني مات !.

بكى الحاجُّ فتحي ، وقال :

-مات شهيدًا ، أنتِ مؤمنة بالله .

جرت نحو الشِّباك ، وصرخت صرخة مُدَوِّية ، انتبه لها النَّاس في الشارع وفي البُيوت ، فجروا نحو البيت ، وتجمَّعوا أمام البيت ، فاقترب منها الحاج فتحي وضمَّها لصدره ، وقال:

-أرجوكِ تمالكي نفسكِ ، أمامنا موال كبير ، أرجوكِ اهدئي ولا تَجعليني أندم علىَ إبلاغك ، أعدكِ بعد أن أستلم جثّته ، سأتركك تفعلين ما تريدينه .

-اريد أن أراه قبل أن يُدفن .

-حاضر ، لكن تمالكي نفسك أوَّلًا .

-حاضر .

-أقْسمي بالله بألَّا تصرخي ، أو تلطمي .

-أقسم بالله بأنَّني لن أصرخ .

تركها مع ابنها وزوجته ، ونزل وفتح الباب ، فوجد النَّاس واقفين أمام البيت ، فبلَّغهم بالخبر ، فصعدن النِّساء إلى أعلى ، ومشى بعضٍ النَّاس معه إلى دوَّار العائلة ، وتفرَّق الباقي ، وهم يضربون كفًا بكف.

ألقى الحاج فتحي التعليمات على رجال عائلته ، وأمرهم بتجهيز مراسم الدفن والعزاء ، حتي يعود ، وأمرهم بإبلاغ كلّ كبار العائلات ، وكبار الشخصيات السِّياسيَّة ، وأخذ معه العمدة وكبار العائلتين ، عائلة العمدة ، وعائلته ، وذهبوا للمطار لاستلام جثّة عفيفي .

وصية عفيفي ، وماضي أبي داوود

صُدِم محمود بخبر الوفاة من ابن عمته ، وكان في الأقصر في مأمورية عمل، حيث كان يراجع حسابات فرع الشركة هناك، وبمجرَّد أن عرف اتصل على أمنيَّة ، وأمرها أن تترك منزل أهلها ، وتذهب لبيته ، وتخرج وصية عفيفي الموضوعة في الصندوق الأسود الموجود تحت السرير ودلَّها على مكان المفتاح الاحتياطيّ ، وأمرها أن تعطي الوصية للحاج فتحي ؛ لأنه لن يعود قبل يومين.

قالت أمنية في سرِّها

- أخيرًا ، سأعرف مابداخل هذا الصندوق الغامض .

أخذت تخمِّن طوال الطريق ، حتى وصلت إلى البيت ، فصعدت بمفردها إلى شقتها ، وأمرت أختها أن تظلّ منتظرة في حجرة الضيوف في الدور الأوَّل ، ورفضت أن تصحبها معها إلى شقَّتها ، ولم تهتم لغضبها ، فقد فعلت ما أمرها به زوجها ، حيث شدَّد عليها بأن تفتح الصُّندوق بمفردها ، ولا يرى أيُّ أحد محتويات الصندوق حتى يعود .

دخلت حجرة الأطفال ، وأنارتها وسحبت الصُّندوق من تحت السرير ، وفتحت الأقفال الأربعة الموجودين في كلّ

جانب ، وكلما فتحت قفلًا ازداد فضولها أكثر. انتهت من فتح الأقفال ، ثمَّ رفعت الغطاء ، فوجدت الصُّندوق مغطى بكومة من القش البلاستيك الفضي اللون ، والذي يستخدم في تزيين الهدايا،أزاحتهم ، فوجدت قطنًا كثيرًا ، فأزاحته وهي متعجِّبة.

وصلت لمحتويات الصُّندوق ، وبدأت تخرجها واحدة تِلْوَ الأخرى،فوجدت ما لم تكن تتوقَّعه أبدًا ، مهما وصل تفكيرها وتخمينها .

وجدت على قمة الصُّندوق دبًّا أحمر مصنوعًا من الإسفنج المغطى بالقطيفة ، والذي يقدَّم هدية للمحبوبة في عيد الحب ، نظرت إليه وتعجَّبت ، ووضعته على الأرض، ثم مدَّت يدها ، فوجدت طبلة ورِق ، فرفعتهم لأعلى ، وتأمَّلتهم بتعجُّب ، ثمَّ وضعتهم على الأرض ، ثمَّ مدت يدها فوجدت ما جعلها تُصْدَم وتفجع ، فقد وجدت ثلاثة بدل رقص: الأولى حمراء ، والثانية خضراء ، والأخيرة سوداء ، ومرصَّعين بالترتر والخرز ، فقامت بفردهم أمامها ، وشهقت ، وقالت وهي متعجِّبة:

-بدل رقص وطبلة ورق ، ماذا كان يعمل زوجي قبل أن يتزوَّجني ؟ هل كان يعمل طبَّالًا في كباريه وأنا مغفلة ؟ ولماذا يخفي هذه البدل؟ هل كان يصاحب الراقصات ، ويأتي بهم إلى هنا ويخدعني ، ويقول إنه مؤدب ؟

وضعتهم على المكتب ، ثمّ واصلت البحث ، فوجدت اسطوانتي حاسب آلي موضوعتين في حافظتهم ، ففتحتهم فوجدت مكتوبًا على ظهرهم ، موسيقي رقص ١ ، موسيقي رقص ٢ ، وضعتهم علي المكتب ، وقالت في سرّها :

-حاضر يا محمود ، حينما تعود للبيت سيكون لي موقف معك ، ولن تخدعني مرة أخرى ، الويل لك منّي ، ومن أبي .

واصلت إخراج الأشياء،فوجدت بناطيل جينز جربى اللّون، ومرقّعين برقعٍ كثيرة ، وقمصان رجالي مُصَمَّمة على الطّراز الأمريكي،ومجموعة تي شيرتات مرسومٌ عليها أشياءٌ غريبة.جماجم وصور مطربين أجانب،وكلمات أجنبية عاطفية، ووجدت أيضًا عُلبتي كريم للشعر "جيل" وساعة ضخمة من السَّاعات التي يرتديها الشباب التافه ، وحظّاظة ، وسلسلة من الفضّة،وحذاء رياضيًا ضخمًا،وحذاء من الجلد غريب الشكل.

وضعت كلّ هذه الأشياء على جانب،وقعدت على الأرض، وأخذت تحدِّث نفسها بغضب وذهول وقالت:

- هل هذا هو حُطام نفسك الذي كنتَ تخفيه عني ، أم ماضيك الوضيع الذي تخجل منه ؟ عرفت لماذا كنت تُحْكِم إغلاق الصَّندوق بكلّ هذه المفاتيح لكيلا ينكشف سرُّك، سأجن ، هل كنت غير محترم ،هل كنت تصاحب الراقصات ،

هل كنت تخدعني ، وأشعرتني بأنَّك كنت مظلومًا،أنا سأجن؟ هل بنيت شقتك ، وجهَّزها من عرقك كما كنت تتباهى ، أم من عرق الراقصات ؟ هل مالُك حرام ؟ هل أنا -والتي تربَّيتُ علي الشَّرف والمال الحلال- خدعت وتزوجت من طبال وضيع يسكر ويسهر في اللَّيل ، ويذهب لعمله في الصباح كأي إنسان محترم !؟ ، أم أنا سيئة وخبيثة ، فعاقبني الله بك ؟! أنا سأجن ، هل من المعقول أن كل الناس كانوا مخدوعين فيك حتى أبي والشيخ جلال! ؟ هل من المعقول أن تكون محترفًا في الغش والتمثيل!؟ هل أنا آكل من مال حرام! ؟ والله إن ثبت أنَّك مذنب ، سأطلب الطَّلاق حتى ولو مِتّ تحت قدمي .

واصلت البحث إلى أن وجدت المظروف في قاع الصُّندوق، أخذته ووضعت جميع الأشياء في الصُّندوق ، كما كانت ، ثمَّ أغلقت الصُّندوق بالأقفال ، ووضعته كما كان.

نزلت مسرعة ، وخرجت هي وأختها ، وذهبت إلى أمِّ عفيفي التي جاءت بمجرَّد أن عرفت بالخبر،وأعطتها المظروف؛ لتعطيه للحاج فتحي حينما يعود من المطار .

قعدت جنب النسوة ، وأخذت تتوعد محمود في سرّها،ثم استغفرت الله، وأخرجت من جيبها مصحف وأخذت تقرأ فيه.

أمن الدولة يستقبل الجثمان

أخيرًا وصل الجثمان إلى القرية بعد رحلة محفوفة بالمخاطر والتَّعب من العراق إلى الأردن ، وأخيرًا إلى مصر .

وصلت سيارة نقل الموتى إلى القرية خلف السيارة التي كانت تُقِلُّ الحاج فتحي ومن معه ، فاستقبلنه النساء بالصّراخ ، والنَّحيب والبكاء .

أنزلوا الصُّندوق ، وأدخلوه بسرعة إلى أحد الغرف في بيت الحاج فتحي ، وأغلقوا الباب بالمفتاح ، ومنعوا النساء من الاقتراب من مدخل المترل .

صرخت أمُّ عفيفي في وجه أخيها ، وطلبت منه أن تراه قبل أن يُدفن ، فوافق بعد تردُّد ، وبعد أن استعطفته ، وأقسمت أمامه بأنها لن تفعل أيَّ شيء غير رؤيته ولن تصرخ .

حضنها وأدخلها الحجرة ودخل معهم العمدة وشقيق عفيفي الأكبر. فتح الصُّندوق ، وأزاح الغطاء من على وجهه ، فصرخت وبكت بحرقة ، فبكوا جميعًا على بكائها ، وانحنت عليه وقبَّلته ، وقالت :

-الله يجازي من كان السبب ، يا حرقة قلبي عليك ، عشت وحيدًا ، ومت غريبًا

أبعدوها وأخرجوها ، وأغلقوا الصُّندوق ، و. جوا جميعًا ، شعرت أمُّ محمود بالحرج ، وهي تعطي و. ـّة عفيفي ا.حاج فتحي الذي أخذها منها ، ودخل إحدى الغرف ، ودخل معه العمدة وشقيق عفيفي الأكبر.

فتحوا المظروف ، وأخرجوا الوصيَّة ، وقرأها الحاج فتحي بصوت عالٍ ، وكان محتواها قصير.

أوصي عفيفي بأن يُدْفن بجوار زوجته في المدافن الشرعية ، وأن يصلّي عليه الشيخ جلال ويشرف بنفسه على دفنه ، وأوصى أيضًا ببيع ممتلاكته ، والتبرع بثمنها لمستشفى السرطان.

بكى الحاج فتحي ، وكل من كان في الغرفة بحُرقة ، ثمَّ قال شقيقه :

-يا حبيبي يا عفيفي توصي بعمل الخير حيّ وأنت ميت ، كلُّ همّك ألم الناس ، وأنت لم يشعر بألمك أحد .

انتبهوا على صوت طرق على الباب ، فمسحوا دموعهم ، وقال الحاج فتحي :

-ادخل .

دخل ابن الحاج فتحي ، وقال :

-يوجد ضيفان يريدان أن يقابلاك ، ضروري .

-من هم ؟

-لا أعرفهم .

-أَدْخِلْهُم .

خرج شقيق عفيفي ، ودخل الضيفان وكانت ملامحهم تدلُّ على أنهما يعملان في وظيفة هامَّة . ألقوا السلام ، ورحَّب بهم الحاج فتحي والعمدة ، وقعدوا جميعًا .

-البقاء لله ، كنا نتمنَّى أن نأتي لزيارتكم في مناسبة أخرى غير الموت .

-شكر الله سعيكما ، وشكرًا على تعبكما.

قالها الحاج فتحي ، وهو متوجِّسٌ خيفة .

-أنا العقيد نور السعيد من مباحث أمن الدولة،وهذا زميلي المقدِّم نبيل نور الدين .

-أهلًا وسهلًا ، خير يا سيادة العقيد .

-بدون لف أو دوران ، أنت تعلم أننا نضع مصلحة الوطن فوق مصلحتنا الشخصية ، وأننا جميعًا نضحِّي من أجل الوطن.

- طبعًا ، خير ياسعادة البك .

- لنا طلب عندكم ، وأرجو أن توافقوا عليه .

– اؤمر .

– نريد منكم أن تدفنوا عفيفي اللّيلة ، ولا تدفنوه غدا بعد صلاة الظهر ، أنت تعلم أنّ إكرام الميت دفنه ، ونرجو أن يقتصر العزاء على الجبانة ، وهذا لا يخالف الشرع طبعًا .

–ولماذا يا سعادة البك ؟

–إجراءاتٌ أمنية .

–وما الضَّرر في ذلك ؟

–بصراحة عفيفي في نظر الحكومة إرهابي ، وإذا دفنته غدًا ، وأقمت له جنازة كبيرة ، هذا معناه أنك تؤيِّده ، وستظهره أمام الناس وكأنَّه بطل،وقد يتشجَّع البعض ويفعل مثله ويتحول إلى إرهابي ، وهذا خطر على الأمن العام .

–وتطلب مني أن أظهره كأنَّه كلب وحقير ، وأدفنه في الخفاء ؛ لكي أرضي أمريكا .

–أنا أعرف أنَّه طلب صعب ، لكننا جميعًا نضحِّي من أجل مصر .

نظر الحاج فتحي إلى العمدة ، ثمَّ قال :

–لا ياسعادة البك ، عفيفي ليس إرهابيًا ، عفيفي شهيد ، الإرهابي هو بوش وكلٌ من ساعده ، عفيفي كان في العراق من

أجل الدفاع عن عِرض المسلمات ، وعن دين الله ، لا يوجد عندنا إرهابي ، ابحث عنه في مكان آخر .

- يا حاج فتحي ، لقد جئنا بصفة وُدِّية من أجلك ، ومن أجل العمدة ، نحن نقدِّر خدماتكم للبلد ، لا تدع العاطفة تدمر مستقبلك السياسي أنت والعمدة.

-أيُّ مستقبل سياسي الذي تتكلّم عنه ، لقد قدَّمنا كل شيء من أجل البلد والحزب ، ولم نأخذ أيَّ مقابل غير كره النَّاس لنا ؛ لوقوفنا معكم ضدهم ، لقد بعت أرضي من أجل السياسة ، فماذا أخذت غير الخراب!؟،جعلتوني أمين حزب في قريتي ، لا أريد هذا المنصب ، الذي لم أستفيد منه بشيء ، أنتم الذين أخذتم كلَّ شيء ونحنا خسرنا كلَّ شيء.

-اطلب أيَّ شيء ، ونحن سنلبِّيه .

-لا أريد أيَّ شيء غير دفن ابني ، وإقامة عزاء يليق به ، أريد أن أردَّ له اعتباره أمام النَّاس .

-تدخَّل يا عمدة ، أنت لك كلمة مسموعة .

-يا سعادة البك،إن دفنه غدًا لن يسبب ضررًا كما تتصوَّر، والعزاء سيمرُّ مثل غيره ، هذه مجرد عادات .

-هذا آخرُ كلام عندكم .

قالا في صوت واحد :

-نعم .

نفد صبر الضَّابط ، وقال مهدِّدًا :

-أنا من الممكن أن أمنع الجنازة بالقوَّة ، ومن الممكن أن أفرض حظر تجول ، وأُجبركم على دفنه اللَّيلة ، لكنِّي لا أريد أن أخسركم .

قال الحاج فتحي متحديًا :

-لن تقدر ، إذا جئت بالأمن المركزي ، سأرسل لأهلي من جميع القرى ومن الصعيد ومعهم أسلحتهم ، وستصبح مجزرة بين الطرفين وسأدفنه غدًا ، وسأقيم له أكبر جِنازة ، والعزاء سيكون ثلاثة أيام ، شكر الله سعيكم .

قال الضابط قبل أن يخرج :

-سأتركك تعمل ما تريد احتراما لحرمة الميت ، لكننا سنفعل أيضًا ما نراه صالحًا لنا ، ولا تندم بعد ذلك ، ولو جئت وقبَّلت أرجلنا لن نسامحك ، أنت ولا العمدة . نحن الحكومة نبتسم وبعد ذلك ننتقم ، سلام يا أمين الحزب .

فاسدون ويقبضون ثمن فسادهم شُهرة ومال،أما نحن فماذا نقبض ثمن اتباعهم غير ضياع الحسنات،وكثرة السيئات؟. استغلوا الوقت في الصلاة،أو في قراءة القرآن أو في صلة الأرحام ، إنها فرصة ، الكل موجود في وقت واحد ، فعليكم بصلة الأرحام وتصفية القلوب من الغلّ والحقد والضغينة ؛ ليبارك الله لكم في حياتكم .

تأثّر بخطبة الشيخ،وأقسم في سرِّه بأنه لن يترك فرضًا في المسجد،وسيصلّي التراويح ، ولن يشاهد التلفاز وسيصل رحمه، وسيختم القرءان أكثر من مرة.

رجع إلى البيت،وقعد أمام التلفاز يستمع لحديث الشيخ الشعراوي على إحدى القنوات الفضائية الخاصَّة رافضًا أن يشاهد البرنامج الديني الذي بثته الحكومة مكانه ؛ لتمحو أثر هذا الشيخ من قلوب مستمعيه ، بحجة أنهم يطورون البرامج ويسايرون العصر،ويسْعوا لمسايرة متطلبات العصر،لكنه كان حريصًا على مشاهدته بعد الصلاة منذ أن كان صغيرا،وسعد جدًا حينما وجده على إحدى القنوات الفضائية ، فأصبح يتابعه باستمرار..سمع طرقًا على الباب،فقام وفتح لأن أخيه لم يعد من الخارج، فوجد طفلًا يطلب منه خمسة جنيهات،من أجل المساهمة فى شراء زينة رمضان وشراء فانوس يُعلق في منتصف الشارع ، تركه ودخل إلى غرفته وأخرج من جيبه عشرة جنيهات ، وأعطاهم له وهو سعيد .

-نعم،أنا جائعٌ جدًا،ومشتاقٌ جدًا لطبخك، هل أساعدك ؟

-لا ، عشر دقائق ، وستجد الطّعام على المائدة .

قعد على المائدة وتناول الغداء ، وأثناء تناوله الغداء أخذ يمازحها ويداعبها ، لكنها كانت واجمة وصامة ، فتضايق وقام غاضبًا بعد أن أكل.

دخل غرفة نومه ، وهمَّ بتغيير ملابسه ، فقالت أمنيَّة :

-أين ستذهب؟

-سأذهب إلى العزاء ؛ لأقف مع أهل عفيفي .

-أريد أن أتحدث معك في أمر هام .

-بعد أن أعود .

-الأمر لا يحتمل التأجيل .

شعر بالقلق ، فقال :

-خيرًا يا أمنيَّة .

-أريد أن أسألك عن شيء، وأريد منك الصَّراحة .

-وهل كذبتُ عليكِ من قبل ؟

-ماذا كنت تعمل بعد الظهر ، قبل أن تتزوَّجني ؟

-كنت لا أعمل ،كنت أعود إلى البيت بعد العمل .

-والمال الذي تزوَّجتني به ، مصدره حلال أم حرام ؟

-طبعًا حلال ، والله شاهد على تعبي وإخلاصي في العمل، لماذا كلُّ هذه الأسئلة ؟

-أريد أن أعرف إنِ كنتُ مخدوعة فيك ، أم لا .

-أمنيَّة ، أنا لا أحبُّ المراوغة ، ادخلي في الموضوع مباشرة.

-أريد منك تفسيرًا للأشياء التي وجدتها في الصندوق الأسود ، وإياك أن تخدعني.

- اه ، كلُّ هذا الفتور والضِّيق بسبب ذلك الصُّندوق ، بعد أن أعود سأحكي لكِ بالتَّفصيل .

- الآن قبل أن تنزل ، أنا كنتُ منتظرة رجوعك على أحر من الجمر ؛ لأعرف منك سبب وجود هذه الأشياء القذرة في بيتي ، أرجوك .

-حاضر يا أمنيَّة .

قعد على السرير ، وقعدت ، فقال بعد أن صلَّى على النَّبي :

-أنا لم أكذب عليكِ ، حينما قلتُ لكِ من قبل أن بداخل هذا الصُّندوق حُطَام نفسي السابقة .

-لا أفهم .

-أنا لم أحكِ لكِ كلَّ شيء عن خطوباتي السابقة ، توجد أشياءٌ أخفيتها عنك لشعوري بالحرج أمامك ، وقلت لنفسي

بعد أن أعتاد عليكِ ، وأشعر من داخلي أنني قد تغيَّرت للأحسن ، سأحكي لكِ عن هذه الأشياء التي كنتُ أخجلُ منها ، لكن موت عفيفي عجَّل بالأمر . كلُّ مافي الأمر أنَّني كما قلت لكِ من قبل ، كنت حائرًا بين أهل اليمين وأهل الشِّمال . أوقات أتحمَّس لأهل اليمين وألعن أهل الشمال ، وأوقاتٌ أتمنَّى أن أستمتع كما يستمتع أهل الشمال ، وكان من ضمن الأشياء التي كنت أتمنى أن أستمتع بها رقص زوجتي لي في شهر العسل ، فقمت بشراء بدل رقص وطبلة ، وقمت بتسجيل موسيقي رقص شرقي على اسطوانات ؛ لكي أستمتع بها وهي ترقص لي .

-ترقص لك ! .

-نعم ، لا تتعجَّبي ممَّا أقول ، هذا معظم تفكير أبناء جيلي من الشباب والبنات ، ومعظم من يقدم على الزواج يشتري هذه الأشياء قبل الزواج ، ليستمتع في شهر العسل .

-معقولة كلُّ همِّ الشباب الرقص والغناء والمتعة الجسدية فقط ، أنا حزينة لما أسمعه .

-للأسف ، هذا ما يدور في رأسٍ غالبية الشباب من الجنسين ، وأنا كنت منهم وكان كل همِّي أن أتزوج من فتاة تمتعني وتسعدني وتكون في نفس الوقت من بيت مؤدَّب ، وتكون مؤدَّبة ، فخطبت واحدة من معارف أمِّي ، ووافقت

عليها بعد أن أعجبني ، شكلها وجسدها وسألتُ عنها فشكروا الناس في أهلها وفيها ، فاكتفيت بذلك ولم أهتمُّ بأيٍّ شيء آخر ، لا بدينها ، ولا بمحافظتها على شعائره ، ولا بتفكيرها ونظرتها للحياة ، كان كلُّ همّي أن تكون جميلة ، ولم تعرف أحدًا غيري ، وتمّت الخطبة وشعرت بلذّة الحياة ، ثم بدأت المأساة .

-ماذا حدث ؟

– بدأت المشاكل بعد الخطبة بشهرين ، أنا وجدت فيها بعض ما كنت أحلُم به وتغاضيت عن الباقي ، فكنت سعيدًا وهي لم تجد في ما كانت تحلُم به ، فكانت تعيسة .

– وما هي الأشياء التي لم تجدها فيك ؟

-التفاهة والخضوع لها و الروشنة ، فقد كانت تتمنّى أن تتزوج من شاب "روش" يرتدي الجينز والقمصان المفتوحة مثل التي رأيتيها في الصُّندوق ، ويتكلم بخلاعة ويعرف بنات ، ويكون رجلًا متفتِّحًا له تجارب ويكون رياضيًا ، ولا يَغَار على خطيبته أو زوجته مثل الرجعيين ، كما كانت تقول ، كما أنها اكتشفت أنني خام وخجول ، وهذا لم يعجبها؟

– لم يعجبها أنك مؤدب ، ورجل محترم ؟

-نعم ، وقالت عليَّ إنني رجل تقليدي وكلاسيكي ، ومن العصر الحجري ، وأنني مثل أبيها .

-ولماذا وافقت عليك من الأول؟ألم تقعد معك قبل الخِطْبَة؟ وعرفت أنك تختلف عن الشباب التافه ، فلماذا وافقت!؟

-لأنها خُدِعت فيّ،فقد ظنت أنني سأتغيَّر من أجلها وسأصبح "روش" وذلك تحت تأثير حبِّي لها ، خاصة حينما وجدتني منبهرًا بها ، فوافقت على أمل أن تجعلني "روش"، وحينما وجدت أنني عنيد ، ولم أوافق على مسخ نفسي، بدأت تثير المشاكل لكي تجعلني أفسخ الخطبة ، ويكون السبب من عندي لتظهر أمام الناس بريئة ، وقد حدث ما تمنَّت ، وفسخت الخطبة بعد أن عذّبتني سته أشهر كاملة ، كنت أحاول فيهم أن أرضيها بكلّ الطرق ، لكنها لم تكن راضية ولا سعيدة ، وشعرتُ وقتها بجرح شديد في كرامتي وفي قلبي حتى فقدت الثّقة في نفسي ، وقررت أن أتغيّر بعد ذلك ؛ لكيلا أقع في نفس الحفرة ، وقررت أن أكون "روش" لأتزوج من بنت "استايل" عن حق .

-وتغيِّرت .!

-للأسف نعم ، فقد كان ردُّ فعل الصدمة عليَّ رهيب ، فذهبت لأخصائي علاج طبيعي ، وقمت بإنقاص وزني ، واشتريت هذه الملابس وغيَّرتُ من هيأتي وأصبحت "روش" وكنت أضع الجيل على شعري ، وكنت ألبس حظاظة وسلسلة من الفضة ، وأسير في الشارع غير مهتم بنظرة النَّاس لي .

ضحكت أمنيَّة ، فقال محمود غاضبًا :

-علام تضحكين !؟

-كنت أتخيَّلك بتلك الملابس ، وأنت جالس أمامي وتطلب يدي من أبي ، أنا غير مصدقة ما أسمعه منك .

-هذا ما حدث .

-ولماذا لم تستمر على ذلك ؟

-شعرت باحتقار لنفسي ، وشعرت باحتقار النَّاس لي ، فبعد أن كانوا ينظرون إليَّ باحترام ، أصبحوا ينظرون إليَّ باحتقار ، وشعرت بأنَّ خطيبتي قد انتصرت علي ؛ لأنها جعلتني أفعل ما كانت تريده حتى بعد أن تركتني ؛ لذلك عدت لسالف عهدي ، ورجعت لحالتي الطبيعية .

-ولماذا لم تتخلص منهم ؟

-بدل الرقص والطبلة والاسطوانات احتفظت بهم على أمل أن أستخدمهم ، حينما أتزوَّج وخاصة أنني كنت مصرًّا على الزواج من بنت "استايل" ، أما باقي الأشياء فكانت غالية الثمن ، فصعبت علي نقودي ، فاحتفظت بهم بدلًا من تمزيقهم، ورفضت أن أعطيها لأحد لكيلا أساهم في إفساده ونسيتهم ، وحينما دخلت المعتقل وتعذَّبت فيه تغيرت نظرتي للأمور ، وبدأت أفكِّر في أسلوب حياتي من جديد ، ونسيتهم جميعًا .

-ولماذا لم تتخلص منهم عند زواجنا ، هل كان عندك أمل في أن أرتدي بدلة رقص وأرقص لك؟

ضحك محمود ، وقال :

-طبعًا لا لكنَّ الأحداث مرَّت بسرعة ، وانشغلت في تجهيز شقتنا ، ولم أنتبه لهم إلا حينما كنت أجمع كلَّ ما يخصني ؛ لأنقله لشقتي،فوجدتهم فوضعتهم في صندوق ، ووضعت معهم وصية عفيفي،وأخذته معي ووضعته تحت السرير بعد أن أحكمتُ إغلاقه ، وأطلقت عليه الصُّندوق الأسود لأنَّ به كل الأسرار الخاصَّة بي ، وكنت أرفض أن أقول لكِ عن محتواه كلَّما سألتيني عنه حتى أجد اللَّحظة المناسبة ، والتي أشعر فيها بأنني قد تغيَّرت فعلا ، لكن إرادة الله هي النافذة ، هذا كل ما حدث . اقتنعتي أم لا ؟

-اقتنعت وأنا آسفة ؛ لأني أسأت الظنَّ بك،وآسفة لأني قابلتُك بفتور .

-ولا يهمِّك،حينما أعود بإذن الله سنفكر سويًا في التخلص من حُطام نفسي ، هل تريدين شيئًا من تحت ؟

- شكرًا يا حبيبي ، أرجوك لا تتأخر.

قام بتغيير ملابسه ، وخرج ليقف مع أهل عفيفي ليستقبل باقي المعزِّين ، وقال في سرِّه وهو نازل علي السُّلم :

-لو أنّ أمنية كانت تجيد الرَّقص لكنتُ أسعد إنسان.أستغفر الله العظيم .أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .الحمد لله على نعمة الزوجة الصَّالحة .

أمن الدولة يقرِّر الانتقام

كتب ضابط أمن الدولة المسؤل عن القرية تقريرًا ، وقدَّمه للقيادات العليا ، وكان أبرز النقاط التي فيه مايلي :

● أوصي بتغيير العمدة في الفترة القادمة ؛ لوقوفه في صف صهره أمين الحزب ضدنا ، ويوصي بتعيين سعيد الشايب المنافس القوي له ، ورجلنا في الخفاء .

● أوصي بتغيير أمين الحزب في القرية؛لرفضه تنفيذ توجيهاتنا،وإصراره على عمل جِنازة ضخمة للإرهابي عفيفي، مما جعل الناس تتعاطف معه ، وتتمنَّى أن تجاهد مثله ، وأوصي بمساندة علي عاشور المغربي في انتخابات الحزب القادمة .

● أوصي بتغيير جميع أعضاء لجنة العشرين،واستبدالهم بأفراد من العائلات المنافسة والمتعاونين معنا .

● يُغلق ملف عفيفي علي عفيفي الشهير بالشيخ عفيفي ؛ لوفاته .

● الاستمرار في وضع محمود الشَّهير بأبي داود تحت المراقبة.

● الاستمرار في وضع الشيخ جلال الحكيم تحت المراقبة ، ونُحَذِّر من القبض عليه ؛ لأن الناس محتقنة .

● أوصي باستمرار الشيخ عبد المنعم الطوخي في منصبه إمامًا للمسجد الكبير ؛ لحسن تعاونه معنا

العقيد: نور السَّعيد.

حسين ينهار بعد ضياع الأحلام

صلّى العشاء في المسجد ، وذهب إلى حسين كما اتفقا ، فوجده مضطربًا وحزينًا ، فسأله :

-ماذا حدث؟

-ضاعت الترقية، وتم نقلي إلى الصَّعيد مع كتابة ملحوظة في ملفي؟

-ياَلْلمصيبة ، إن المصائب تأتي متتابعة عفيفي مات وأنت لديك مشاكل في العمل . ماذا حدث لنا ؟

-أنا كنت متوقِّعًا ذلك،وكنت منتظر عقاب الله ؛ لأنِّي عصيته وبعت كلَّ شيء من أجل أنانيتي ، حتى مصالح الناس ومعاناهم لم أهتم بهم ، وأهملتهم من أجل أحلامي ، حتى ديني لم أحترمه . أنا أجرمت في حقِّ نفسي ، وفي حق عملي ، وفي حق ديني ..

-ألم تجد أحد من معارفك يساعدك ، ويتدخَّل من أجلك .

قال في سخرية ممزوجة بالحزن :

-يتدخل من أجلي أنا ، أنت تعرف أننا في مصر من يقع يدوسه الجميع ، ثمَّ إنني لم أراعِ أحدًا في حزنه أو في فرحه ، حتي رؤسائي لم أهابهم ، ولم أخف منهم ولم أحترم أوامرهم.لقد ضاع كلُّ شيء .

-ألم أقل لك إننا نبيع كلّ شيء من أجلهم ، ولا نحصل على أي مقابل لذلك غير الخراب .

- لم يعد ينفع هذا الكلام،لقد تحطّم كلّ شيء بنيته.أحلامي كلها ضاعت.

-وماذا ستفعل ؟

-سأنفّذ النقل وأنا صاغر،وسأنتظر المنحة التي وعدوني بها،فلم يعد لي أمل غيرها؛لتنقذني من الضَّياع وشماتة الشامتين .

- وهل أنت واثق من وعدهم لك ؟

-نعم . مسئول البعثات والمنح وعدني بذلك ، وطمأنني .

-وكيف ستسافر وأنت معاقب ؟ لن يوافقوا على إعطائك إجازة .

-سأسافر مهما كانت العواقب حتي لو اضْطُررت أن أقدم استقالتي ، أنا لن أقدر أن أعيش في الصَّعيد في المنفى ، لقد تعوَّدت علي النظافة والجمال وعلى مصادقة الأجانب ، لن أصبر على العيش هناك ، أنا أشعر بالهزيمة والعار ، يا ليتني سمعت كلامك ونصائحك . لأول مرة أشعر بمرارة الهزيمة ، أنا لا أقدر علي النظر في وجوه زملائي لكيلا أرى الشماتة في

وجوههم ، ياليتني سمعت كلامك وحافظت علي عملي ، لقد ضعت في الدنيا وسأعاقب في الآخرة .

-هدئ من نفسك وتمالك ، إن شاء الله خيرًا . ارجع إلى الله واستغفره ، واطلب منه أن يقف بجانبك .

-لن يقف بجانبي ، لقد عصيته كثيرًا ، ونسيته في فرحي فسينساني في شدَّتي.

-كلنا نعصاه ، ثمَّ نتوب ونستغفره ويغفر لنا . إنه الله غفار الذنوب .

-لقد عصيته كثيرًا أكثر مما تتخيل ، وأعرف أن كل الذي حدث لي عقاب لي على ما ارتكبته من ذنوب لا تتخيَّلها .

قام واقترب منه ، وقال في غضب :

-ماذا تقول ؟ ، ماذا فعلت ؟

قال في انكسار ، وفي خجل :

-لقد خالفت نصيحتك ، وزنيت وشربت خمرًا .

-ماذا ؟! زنيت وشربت خمرًا !.

-لقد ضعُفت ، ولم أستطع المقاومة .

-كاذب ، لا تتحجج . أنت تعرف جيدًا مدى حرمتهم .

-أنا شابٌ ، والمغريات أمامي كانت كثيرة .

-أنت الذي وضعت نفسك في دائرة المغريات،لا تنكر ذلك ، لقد حذّرتك أكثر من مرة .

- لم أستطع مقاومة الفتنة،وضعُفت وأنت تعرف فتنة النساء، وأنا أعزب والمغريات كانت كثيرة .

-لو كنتَ حريصًا على دينك لتزوجت من زمن ، وإيَّاك أن تتحجج بقلة الإمكانيات . وظيفتك وفَّرت لك كلَّ الإمكانيات ، لكنك عديم الرضا مثل الكثيرين .

- أرجوك . أنا لم أعد أحتمل تأنيبًا من أحد ، أرجوك قف بجانبي حتى تنتهي هذه المحنة .

-ثم تعود من جديد للفساد ، وعدم الرضا .

-أعِدُك بأنني سأتوب ، وسألتفت لعملي .

-أفلح إن صدق . إن ما حدث لك أقلُّ عقاب من الله .

-أرجوك لا تتخلَ عنِّي في محنتي.أنت صديقي الوحيد الذي أثق به .

قعد وصمت قليلًا ، ثمَّ قال :

-إذا كنت حقًا ندمت على ما فعلت وتريد أن تفتح صفحة جديدة في حياتك ، وتريد أن تتوب ، نَفِّذ ما سأقوله لك .

-قل ، وسأنفِّذ دون تردُّد. أعدك بذلك .

-امسح كلَّ أرقام أصدقائك الأجانب من على هاتفك ، وغير رقم هاتفك ، ومزِّق هذا العلم ، وألق به في سلة المهملات .

-ماذا تقول ؟

-كما سمعت .

-العلم سأمزِّقه ، لكن أرقام أصدقائي لن أستطيع مسحها .

-لماذا ؟

-لن أستطيع ، إنها أرقام هامَّة ، ومستقبلي مرتبطٌ بأصحاب هذه الأرقام .

-مادمت مُصِرًّا على ذلك ، فأنت من طريق وأنا من طريق.

-ارفق بي. أرجوك قدِّر موقفي. أعدك بأنني سأنهي علاقتي بهم تدريجيًا ، ولن أبقي إلا على من أراه مفيدًا لي ، والبنات سأتخلص منهنَّ للأبد لكن تدريجيًا ، أعدك بذلك .

-تقسم على ذلك .

-أقسم على ذلك .

أقسم أمامه بالله على التخلُّص من جميع معارفه الأجانب ، وعلى التوبة ، والمواظبة علي الشعائر الدِّينية ، والاهتمام بعمله.

بعد أن أقسم أمامه ، قام محمود بتمزيق العلم البريطاني ، وألقاه في سلة المهملات ، ثم استأذن وخرج وشعر وهو نازل على السلّم براحة شديدة وثقة بنفسه ، وقال في سرّه :

-الحمد لله الذي رفعني بديني في مكانة عالية. شكرًا لك يا عفيفي على كلّ مافعلته من أجلي ، أنت وزوجتي .

بعد أن أغلق الباب خلف محمود ، دخل إلى حجرته ، ومدَّ يده في سلة المهملات ، وأخرج قِطع العلم الممزَّقة ، ووضعها على المكتب ، وقال :

-سامحني لقد أهنتك ، لابد أن أنحني للرِّيح حتى تهدأ ، إنه صديقي الوحيد الذي لا أخجل منه ، والذي يقف بجواري في المِحَن ولا يشمت في ، أي نعم : هو سليط اللسان وقاسٍ في كلامه ، لكنه يخاف على مصلحتي ، أعدك حينما أحصل على المنحة سأعلّقك على صدري كالوشاح ، يا رب ساعدني وقف بجانبي ، ولا تشمت في الحاقدين ، يا رب كن بجانبي .

مازال الأمل موجودًا

فتح بوابة البيت وأغلقها بسرعة،ثمّ قفز على درجات السلّم، وفتح الباب ودخل وصاح في فرح :

-أمنية؟

جرت نحوه ، وقالت بفزع :

-ماذا حدث؟

-خبرٌ سار ، أريد أن أبشركِ به .

-ما هو ؟

-لن أقوله لكِ إلا بعد أن تترجّيني .

-قل بسرعة ، لقد شوَّقتني .

-لن أقول شيئًا إلا بعد أن تترجّيني .

قالت ، وهي تمثّل دور المسكينة :

-حاضر.أرجوك يا حبيبي ، بشِّرني بهذا الخبر السار، أرجوك يا أغلى من روحي ، قل بسرعة قبل أن أنفجر من الغيظ ، أنا لا أستطيع أن أتحمَّل هزلك الجميل .

-اسخري كما تشائين ، لن أقول لك شيئًا .

-أرجوك يا حبيبي ، قل بسرعة .

-أمري لله ، عمي فتحي قال لي إن الحكومة قرَّرت فصل الخبز عن التوزيع .

- لم أفهم شيئا ؟

-لقد قرَّرت الحكومة أن يقتصر دور المخبز على خبز العيش حسب الحصَّة التي سيحصل عليها ، وسيُسلِّم الخبز كل يوم لشخص آخر ، وسيتم بيعه بالأكشاك ، وسيتم تقسيم القرية إلى مناطق ، كل منْطقة ستشتري الخبز من كشك خاص بها ، وسيتم عمل حصر للسكان من الغد ، وسيتم عمل كشوفات بأسماء الناس ، وسيتم توفير الخبز لكلِّ فرد في القرية بحد أقصى عشرة أرغفة للفرد ، أي أننا سنحصل على عشرين رغيفًا في اليوم،وكل القرية ستأخذ خبزًا بالعدد ، ولن يسرق أحدٌ أحد،وسيتم الخبز بالليل ، وسيتم تعبئة الخبز في أكياس، وسيتم بيعها في الصباح حتى الساعة الثانية عشر ظهرًا،سيفيض الخبز، ولن نرى الزِّحام مرة أخرى أمام منافذ البيع . أنا سعيد جدًا بالرغم أنِّي لم أكن أشتري هذا الخبز ، لكني أشعر الآن بأنِّي قد قمت بعمل شيء جميل للناس . أنا سعيد ، لأول مرة أشعر بأنَّ لي دور في الحياة . أنا سعيد جدًا ، لا تتخيلي كم أنا سعيد .

-وأنا أيضًا أشعر بأنِّي سعيدة؛لأني أرى السَّعادة في عينيك، وأرى نظرة أمل وتفاؤل تطل من عينيك .

اقترب منها وأمسكها من ذراعيها ، ونظر في عينيها، وقال والدموع في عينيه :

-أنا بشكر الله كلّ يوم على النِّعمة التي خصَّني بها.أنا بشكره علي زواجي منكِ.أنا لأول مرة أشعر بمعنى كلمة "الأمل"،وبأنّي قادر على فعل شيء مفيد للناس وغير عاجز.لقد جعلتيني أشعر بهذا الشعور ، أنا سعيد جدا بك وبحياتي الجديدة.

-وأنا أيضا ، بشكر الله على نعمة الزواج منك .

-الحمد لله .

تركها وسار ناحية الحمَّام ، فقالت له مستنكرة :

-ماذا حدث ؟ أين ستذهب؟

-سأذهب للحمَّام ؛ لأتوضأ لأصلّي لله ركعتين شكر ، أنا لم أكن أحمده على النِّعم التي وهبها لي لأنّي لم أكن أشعر بها ، لكني الآن أشعر بها وأشعر برغبة في البكاء له ، لكي يسامحني على عدم رضاي ، وعدم حمدي له.للمرَّة الثانية أنا بشكرك .

أمنية تدفع محمودإلى طريق النَّجاح

دخلت عليه وهو جالس أمام التلفاز يشاهد قناة الجزيرة ، وكانت ممسكة بجريدة الأهرام ، وقالت :

-محمود .

-نعم .

-هل قرأت جريدة الأهرام ؟

-نعم .

-هل قرأت الإعلان الخاص بالمحاسبين ؟

-أين هو ؟

أعطته الجريدة فقرأ الإعلان ، ثمّ أعطاها الجريدة ، وقال بلا اهتمام :

-قرأته ، لكني لن أقَدِّم فيه .

-لماذا ؟ إنَّه إعلانٌ لشركة كبيرة وأجنبية ، وأكيد مرتباها مرتفعة .

-لأني أعرف أنَّني لن أقبل فيها .

-لماذا؟

-لأنِّي ليس معي واسطة ، أكيد هم قد اختاروا الموظَّفين ، لكنهم أعلنوا في الجريدة ؛ لأنَّ الحكومة تفرض عليهم ذلك .

-من قال لك ذلك ؟

-أنا أعرف ذلك .

-إن الشركات الأجنبية لا تفعل ذلك اعتباطًا ، أو خوفًا من الحكومة . أكيد هي محتاجة لموظَّفين .

-حتى لو أنهم يريدون موظَّفين ، لن أتقدَّم لهم .

-لماذا ؟

-لأنهم سيطلبون شروطًا ومواصفات معينة ، وهي غير متوفرة لدي .

قالت في ضيق :

-هذه الجملة أسمعها منك كلَّ مرة ، حينما أخبرك عن أيِّ وظيفة وتتعلل بنفس الأسباب . إلى متى لن تنطبق عليك الشروط ، وإلى متى ستظلُّ في شركتك التي تعطيك مرتبًا لا يتناسب مع خبرتك .

قال في غضب :

-ألا يكفيكِ المرتَّب ، إننا الحمد لله مستورون .

-نعم ، لكن لماذا لا يكون معنا نقود كثيرة؟ ، لماذا لا تركب سيارة؟ ، لماذا لا تشتري شقة في مكان أفضل ؟

-أنا غير مصدق ما أسمع ، أنت التي تقولين هذا الكلام ، وأين الرِّضا بالقليل ، والحمد لله على نعمة الستر! ، وأين فضيلة الزهد؟ أين هذا الكلام الذي تتَّحدَّثين به كلَّ يوم ؟ أم هذه شعارات فقط !.

قعدت جنبه ، وقالت بهدوء :

-يا حبيبي إنِّي أحمد الله دائمًا وأشكر نعمته ، لكنني أتعجَّب فقط ؛ لأنك واقف في مكانك . أريدك أن تكون أحسن واحد في هذه الدنيا،لو إمكانياتك محدودة ، لما قلت لك هذا الكلام، لكنك مثقف ثقافة رفيعة ، وعلى خلق وأمين ، ومتفان في عملك ، فلماذا تكون في آخر الصف . الشريف هو المفروض أن يقود النَّاس ، وتكون معه السُّلطة والعلم والمال ؛ لكي ينشر العدل والرحمة بين النَّاس،ولا يترك أمور الدنيا في يد الفاسدين، فيفسدون في الأرض ويَبْطُشُون بالضُّعفاء مثلما حدث في العالم، حينما تعلَّل المسلمون بقلَّة الحيلة وبالظروف،وتواكلوا وأصبحوا في المؤخرة ، ماذا حدث؟ ألم تطغَ عليهم الشعوب التي كانت تخشاهم؟ ألم تحتل إسرائيل الأقصى؟ ، ألم تُدَمِّر أمريكا وانجلترا البلاد الإسلامية ، وغزتها في عقر دارها . لماذا لم يفعلوا ذلك مع الصِّين ، ولا مع كوريا الشمالية ؟

- لأنَّهم أقوياء .

-ولماذا هم أقوياء ؟

- لأنَّهم تعلموا،واعتمدوا على أنفسهم،وأصبحوا أقوياء .

-ليس هذا هو السبب الوحيد يا مثقف ، السبب الأهم من كل ذلك هو العقيدة التي يؤمنون بها .

-وهل هؤلاء عندهم عقيدة ؟! إنَّهم كفرة .

-لكنَّهم يؤمنون بكفرهم ، ويستميتون من أجل إثبات أنه حق ، ويدافعون عنه بكلِّ الوسائل ، أما نحن فنكفر بديننا مع أنَّنا نثق أشد الثقة بأنه الحق ، ونتَّبع الكفر ، ونعتبره هو طوق النجاة ، ونتَّعلق به ونحارب ديننا من أجله ، إذا ترك المؤمن مكانه ولو للحظة واحدة ، سينقضُّ عليه الكافر ويأخذه ، ثم بعد ذلك سيستعبد ذلك المؤمن . حينما ترك المسلمون الأندلس تسقط في أيدي النَّصارى ، وتعلّلوا بقلَّة الحيلة ماذا حدث ؟

-طردوا المسلمين منها ، وحوَّلوها إلى دولة مسيحيَّة مرة أخرى

-هذا هو الظَّاهر للنَّاس ، لكن الذي حدث أن المسيحيين في الأندلس بعد أن طردوا المسلمين من مكانهم وأخذوا مكانهم ، قرروا الانتقام وتعويض ما فاتهم في القرون السابقة ، فجهزوا الجيوش والأساطيل ، واكتشفوا أمريكا وهاجروا إليها ، وأنشؤا

مستعمرات مسيحية هناك ، ومع مرور الوقت أصبحت هذه المستعمرات هي دولة الروم الجديدة التي تحكم العالم ، وغزت المسلمين وأعادت هيبة المسيحية التي ضاعت ، فلولا تخاذل المسلمين في الأندلس ما بقيت المسيحية إلى الآن . الخطأ الذي ارتكبوه منذ خمسة قرون ، ندفع نحن ثمنه الآن حينما تركوا مكانهم لغير المسلمين .

-كلُّ شيء تربطيه بالسياسة،أين تعلّمتِ كلّ هذه الأشياء ؟

-تعلمتُها من دروس أبي ، ومن دروس الشيخ جلال ، ومن كتب التاريخ الإسلامي ومن نقاشي معك ، لكنك تنسى يا مفكر يا عظيم ، أما أنا فلا ، هل تنكر ذلك ؟

-لا

-إذن عليك أن تكون أنجح محاسب في مصر ، لا بدَّ أن يكون معك مال كثير ، ولا تدعه للفاسدين . لو واحد فاسد خلقيًا وناجح في عمله ، ماذا سيفعل بالمال الكثير ؟

- سيزني ، أو سيشرب خمرًا ،أو سيشم مخدرات،أو سيستعلي على النَّاس .

- وقد يساوم امرأة ضعيفة وفقيرة على شرفها ، ولن يساعد أي محتاج ، بل بالعكس قد يستغلُّه أبشع استغلال ، لكنَّ المؤمن الناجح لن يكون مثله أبدًا .

-لكنَّه قد يكون بخيلًا وأنانيًا ، ولن يساعد أحدًا ، وهذا ما أراه كثير .

-لكن أضعف الإيمان سيدفع زكاة ماله ، ولن يزني ، أو يشرب خمرًا أو مخدرات وإن أعجبته امرأة سيتزوجها ، ولن يساومها أو يستغلها ؛ لأنه يخاف من غضب الله. وأنت والحمد لله مؤدَّب وذكي ، ومثقف وطيب ، فلماذا لا تكون محاسب غني وناجح ، ويكون معك نقود كثيرة فتنفقها على غيرك من المحتاجين و العاجزين ، أو تشتري سيارة ترحمك من الزِّحام ، وقد تأخذ بسببها كلَّ يوم حسنات إذا قمت بتوصيل أيِّ شخص تجده واقف في الطريق مجانًا ، ويا حبَّذا لو كان كبيرًا في السِّن أو مريضًا .

-معكِ حق .

-ما دمت ترى أنَّ معي حق ، فلماذا لا تطاوعني ؛ وتؤهِّل نفسك باستمرار ، مثلما أفعل أنا وغيري .

-لكنَّ ذلك مكلف . أنا أحتاج دورات لغة ، ودورات في برامج محاسبية غالية الثمن ، وأنت تعرفين الحال ، وتعرفين نفقات المعيشة.

-لا تحمل همًّا ، أنا سأتصرَّف .

-كيف ؟

-أنا سأُقرضك من مالي الخاص ، ثمَّ بعد ذلك رُدَّهم لي حينما تجد وظيفة بمرتب أعلى .

انتفض من مكانه ، وقال غاضبًا :

-لا أريدك أن تقولي هذا الكلام مرة أخرى . أنا أموت ، ولا أمدُّ يدي لكِ .

-لماذا ؟

-أنا لا أريد ، ولن آخذ منك حتى لو متُّ من الجوع .

قامت واقتربت منه ، ووضعت ذراعيها على كتفه ، ونظرت في عينيه ، وقالت برقَّة :

-الست زوجتك التي تحبُّك ، وتقفُ معك في الشِّدَّة .

-لا تحاولي التأثير عليَّ ، أنا لن أوافق .

-لماذا؟

-بدون أسباب . أنا لن آخذ منكِ أيَّ نقود .

-هل تظن أنني من الممكن أن أعايرك في يوم من الأيَّام؟ فليقطع الله لساني إذا نطقت بكلمة تجرحك . أنا أحبك أكثر من نفسي ، وأريدك أن تكون أنجح رجل في الدنيا .

-قلت لكِ لن آخذ منكِ أيَّ مال .

-عندي حلٌّ آخر .

-ماهو؟

- خذ شبكتي . بعها وبثمنها خذ هذه الدورات .

-لا... مستحيل أن أفعل ذلك .

-لماذا ؟

-ماذا سيقول أهلك إذا عرفوا ؟ لن أقدر أن أرفع رأسي أمامهم.

-إذا كان هذا ما يخيفك ، فأعِدُك أنهم لن يعرفوا أبدًا .

-كيف؟

-سأشتري ذهبًا قشرة ، نحاس مطلي بالذهب ، وسيكون شبه ذهبي بالضَّبط ، ولن يلاحظ أحدٌ الفرق .

-لا ، لن أفعل ذلك أبدًا .

قالت في ضيق :

-آخر حل عندي هو أن تأخذ مني قرض حسن بلا فوائد بضمان شبكتي ، أليست الشبكة من حرٍّ مالك ؟

-بلى .

-إذن اعتبرني بنك إسلامي ، واقترض مني بضمان الشبكة ، وسدِّد هذا المال بعد ذلك على أقساط . هذا الحل لن يجرح

كرامتك يا زوجي الشرقيّ العنيد.أرجوك وافق ، وإلا ظننت فيك السوء وسأشك في قدرتك على التَّفوق .

قال بعد تردُّد :

-موافق ، لكن بشرط .

-ما هو ؟

-أقسمي بالله أنكِ لن تعايريني بذلك ، إذا حدث بيننا خلاف ، ولا تخبري أحَدًا بذلك حتى أمِّي .

-لا تقل هذا الكلام ، سأغضب منك ، ومع ذلك أقسم بالله أنّني لن أعايرك بذلك ، حتى لو أسأت إليّ .

-موافق

-إذا غدًا ، سأذهب لبنك فيصل ، وسأسحب النُّقود .

-و لم العجلة ؟

-لكيلا ترجع في كلامك ، وتتكاسل .

-حاضر .

-أنا سأذهب للمطبخ ؛لأجهز الغداء، أكيد أنت جائع .

-بصراحة نعم .

تركته وخرجت ، فناداها فعادت ، فقال :

-تذكرت شيئًا مهما . هل من الممكن أن أسألك سؤال ، وتجيبني عليه بصراحة؟

- تفضل .

-ألا تخافين إذا أصبحت غنيًا وناجحًا كما تتمنَّين ، أن أتزوج عليكِ بأخت مسلمة ؟ ؛ لأشارك في القضاء على العنوسة المنتشرة في بلادنا ، وأُعِفُّ أختًا مسلمة لم تتزوج بعد ، وإن شاء الله سأعدل بينكما.

نظرت إليه بغضب ، ثمَّ اقتربت منه ، وحدَّقت في عينيه ، وقالت :

-إذا أردت أن تتزوَّج فلتتزوَّج ، ولن أمنعك ، هل تريد حقًّا أن تتزوَّج علي؟!

تراجع للخلف ، وقال مُلَطِّفًا :

-كنت أداعبك ، أقسم بالله ، أنا لم يخطر ببالي أبدًا ذلك ، أنت تعرفين أنَّني أحبُّ أن أمازحكِ فقط .

-وأنا أيضًا متأكدة من ذلك ، وأعرف أنك تمزح ؛ لذلك لم أغضب من كلامك .

-لكن لون وجهك تغيَّر .

-من المفاجأة فقط .

-أنا جائع .

-سأذهب لأجهِّز الغداء ، وإلى أن أجهز الغداء ، انشغل بقراءة الجرائد .

خرجت وتركته في الغرفة يقلّب صفحات الجريدة وهو يضحك.

أبوداوود يدعو الله من أجل أمنية

مرت ثمانية أشهر على الزَّواج ، شعر خلالها محمود بالرِّضا والسعادة ، والطمأنينه مع أمنية ، وشعر أيضًا بالتَّعب والقلق والخوف .

ما أتعبه هو ذهابه للعمل في الصباح ، وذهابه للجامعة الأمريكية بعد العمل : لدراسة اللّغة الإنجليزية ، وأخذ دورات في الإدارة والمحاسبة كما اتَّفق مع أمنية ، وقد حاول أن يتعلّل بالأسباب والأعذار،لكن أمنية وقفت له بالمرصاد حتى استسلم ودفع ثمن الدورات من مالها ، وقدَّم أوراقه وانتظم في الدِّراسه ، وأصبح معظم الأسبوع يخرج في الصباح الباكر ، ويعود بعد العاشرة مساء ، وشعر بأنه أصبح تلميذًا في المدرسه، ومما خفف عنه ضيقه وتبرمه ، زوجته أمنية التي كانت تعامله علي أنه ابنها وليس زوجها ، فكانت تسهر بجواره وهو يذاكر ، وتقدم له الطعام والمشروبات ، وتراجع معه الدروس ، وتداعبه وتكافئه بحلوى تصنعها له إذا وجدته قد حفظ بامتياز ، وواظب على المذاكره بدون ملل.

بالرغم من شعوره بالسعادة والثّقه بالنفس نتيجة تقدُّمه في مستواه العلمي ، وراحة باله مع أمنية ، إلا أنّه شعر أيضًا بالقلق والخوف والحزن وذلك لعدم حدوث حمل طوال هذه المدة مما

سبب له ذلك الشعور ، ومما زاده هو كثرة سؤال أهله وأهلها عن الحمل ، فقرر الذّهاب هو وأمنية للطبيب .

ذهب إلى طبيب أمراض تناسلية ، وذهبت هي الأخرى إلى طبيبة نساء وتوليد ، وطمأنهما الأطباء وقالوا : إنهما طبيعيان ولا توجد أيّة مشاكل تمنعهما من الانجاب ، وقد يكون السَّبب هو الاضطراب النفسي ؛ لتفكيرهم في الإنجاب باستمرار .

اطمأنّت أمنية ونامت هنيئة البال ، بينما هو ازداد قلقًا وخوفًا ولم ينم ، ومدَّد على السرير ، وأخذ يتذكر كلام أمه حينما كان يصرخ في وجهها ، ويقول :

-لا أريد أطفال ، يارب لا ترزقني بأولاد .

-لا تقل هذا الكلام يا ولدي ، لكيلا يعاقبك الله ويحرمك من الإنجاب .

-أنا لا أريد أولادًا .

-لماذا يا ولدي ؟

-لكيلا يعذّبوا في الدنيا مثلي ، ولكيلا يعيشوا في الذُلّ ،والفقر والقهر الذي أعيشه.

-يا ولدي ، لا تقل هذا الكلام ، أنت أحسن من غيرك بكثير ، يا ولدي لا تَنْقُم على حياتك ، لكيلا يعاقبك الله .

شعر بالضِّيق من كثرة التفكير ، فغادر فراشه ومشى على أطراف أصابعه ، لكيلا يوقظها ودخل الحمام ، وتوضأ ، ودخل غرفة الأطفال وفرش السِّجادة ، وصلي ركعتين لله .

بعد أن انتهى من الصَّلاة ، قعد على السِّجادة ، ورفع يديه إلى أعلى ، وأخذ يدعو الله وهو يبكي :

-يا رب أنا أعرف أنِّي قد أغضبتك كثيرًا ، لكن لا يوجد غيرك من يسامحني ، فإن لم تسامحني فمن غيرك سيسامحني . يارب لا تعاقبني بدعوتي وقولي ، حينما كنت ضعيف الإيمان ، يارب لا تكسرني أمام زوجتي وأمام الناس . يارب ارزقني بطفل أو طفلة ، لقد إشتقت للإنجاب أعرف أنِّي كنت أدعو بعدم الإنجاب ، لكني كنت غير مؤمن . يارب أنت تسامح الكافر وأنا مؤمن بك ، حتى وإن كنت عاصيًا لك . إن كنت لا أستحق أن تُنْعم عليَّ بنعمة الإنجاب ، فأمنية تستحق. يارب أنت تعلم أكثر مني أنها تحب الأطفال جدًا . يارب لا تعاقبها بذنبي ، يارب أنا أخشى أن يضغطوا عليها ، وتضعف وتتركني ، وأعود مرة أخرى لليأس والضَّياع . يارب أنا لا أهدِّد ، لكنها السَّبب الرئيسي في شعوري بنعمة الإيمان ، إنها لم تتكلَّم لكنِّي أشعر بها . يارب لا تعاقبها بذنبي أنا أريد أن أسعدها. يارب سامحني . يارب أنا طامعٌ في كرمك وعطفك.

بعد عامين من الزواج

مرَّ عامان على زواج محمود من أمنية ، حدثت فيهم أشياء كثيرة :

● **حسين :**

تزوج هو الآخر لكن من إنجليزية ، وقدَّم إستقالته ، وسافر معها الي انجلترا ؛ ليكمل تعليمه هناك بعد أن حصل على منحة في القانون ، وبعد أن رفض عمله أن يعطيه إجازة فقدم استقالته رغم اعتراض محمود الشديد ، لكنه أصرَّ على موقفه ، وطلب من محمود كتمان هذا السر حتى يعود ومعه الدكتوراه ، وهناك عمل بعد الظهر ؛ ليستطيع أن ينفق على بيته ، وشعر بالندم لتسرعه ولشعوره بالمهانة ، فقد شعر بأنه درجة خامسة ، وأنه قد تساوى مع بائعي الصحف وغاسلي الأطباق ، وتذكر كبرياءه ووضعه الاجتماعي ونظرة واحترام الناس له في مصر ، وتذكر تحذيرات محمود له ، وتمنى العودة لكنه استمر في الطريق الذى اختاره ؛ لأنه لم يعد لديه بديل.

● **أمابالنسبة للحاج فتحي :**

فقد شعُر بخوف شديد حينما رأى لافتات تأييد لأحد شباب القرية اسمه علي عاشور مرفوعة في أماكنَ كثيرة في

القرية ، ووجد ملصقات في جميع أنحاء القرية مكتوبًا عليها شعارات مثل "اخدم بلدك" ، "والحرس القديم لابد أن يعطي فرصة للحرس الجديد" ، "والبركة في الشباب" ، وتذكر كلام ضابط المباحث وتهديده ، فأمر بعقد اجتماعات في دوار العائلة كل يوم جمعة ، وأرسل لجميع أفراد العائلة ، وأمرهم أن يحضروا اجتماعات العائلة كل يوم جمعة بعد صلاة العشاء ، وقال إنها مسألة حياة أو موت ، وذهب محمود بعد ضغط من زوجته التي ضغطت عليه ، وقالت " إنها فرصة للتعرف على جميع أفراد العائلة ، وفرصة لتوطيد العلاقة بصلة الرحم "، وذهب محمود على مضض ، ثمّ أصبح يذهب وهو سعيد ، وشعر بالقوة والثقة في النفس بعد أن وجد عائلته كبيرة ومترابطة.

● **أمَّا العمدة :**

فاهتزت الأرض تحت قدميه ، بعد أن قام منافسه برفع قضية عليه ، وطالب فيها بعزله عن منصب العمدة ؛ لأنه كان متهربًا من التجنيد ، فجن جنونه وعلم أن الحكومة قد قررت بيعه لخصومه ، فأخذ يبحث عن مخرج مع المحامين،ومع أعضاء مجلس الشعب وأخذ يجهِّز أخاه ليتولّي المنصب حال عزله.

• **أمَّا بطل روايتنا محمود .**

فقد أنجب عفيفي الصَّغير وأقسم أن يهبه لخدمة الدين ، وقدم استقالته من عمله ، ورفض البقاء حتى بعد أن عرضوا عليه زيادة المرتب ، لكنه رفض ، وقال " إنها كانت أمنيته من زمان" ، والتحق بإحدى الشركات الكبري التي كان يسمع عنها ، ويشاهد إعلاناتها في التلفاز ، بعد أن اجتاز الاختبارات الكثيرة ، وتغيرت نظرته للحياة ، فبعد أن كان يردِّدُ دائمًا " أنَّ البلد كلها وسائط ، وأنه لا يجد له مكانًا بين العمالقة" ، أصبح يردِّد " علينا أن نتحدَّى الظروف والواسطة ، ونحفر في الصخر حتى نصل لما نتمنَّاه ، ولا بقاء إلا للمتميِّز ، وعلينا أن نطوِّر أنفسنا دائمًا ؛ لنلحق بركب العصر" .

سعدت زوجته بالتغيير الذي حدث له وبنظرة الأمل والتفاؤل التي أصبحت تراهم في عينيه ، وحمدت الله كثيرا وشكرته على نعمة الزوج الصالح والطيب والناجح .

وأصبحت حياته كالآتي:

يستيقظ قبل الفجر بساعة ، ويزيح الغطاء من عليه بهدوء ، لكيلا يوقظ عفيفي ولده ، ثمَّ يمشي علي أطراف أصابعه ، ويدخل المطبخ ويشرب كوب ماء من الصنبور ، ثمَّ يوقد الشعلة ، ويضع عليها البراد بعد أن يملأه بالماء ، ثمَّ يدخل الحمام ، ويقضي حاجته ، ثم يتوضأ ويذهب للمطبخ ، ويصبُّ

الماء المغلي في الكوب الموضوع فيه بالترتيب: الشاي ثمَّ مكعبات السكر ثمَّ النعناع الأخضر ثمَّ يضع الكوب على إحدى الطاولات الصَّغيرة في الصالة ، بعد أن يضع على فُوَّهته طبقًا صغيرًا ، لكيلا يبرد ، ثم يفرد السِّجادة ويصلي أربع ركعات قيام الليل ، وبعد أن يصلِّي يشرب الشاي ، ثمَّ يوقظ أمنية بهدوء ، لكي تستعدَّ لصلاة الفجر ، ثم يدخل الحمَّام ، ويتوضَّأ من جديد ، وينزل ليصلي الفجر في المسجد.

بعد أن يعود من صلاة الفجر يتناول الإفطار الذي أعدَّته أمنية ، ثمَّ يشرب الشاي ، ويستعد للذَّهاب للعمل .

يرتدي الملابس التي اختارتها له أمنية ، ويقبِّل ولده ، ثمَّ يضع الكتاب الذي اختارته له أمنية في حقيبته،ويعدها بقراءته بسرعة ليتناقشا سويًا في محتواه ، ثمَّ يتعطَّر، ويلبس حذاءه اللامع والنظيف،ويقبِّل أمنية،ثمَّ يفتح الباب،ويقف ليستمع لنصائحها، وكأنه طفل صغير ذاهب إلى المدرسة .

-حذارِ أن تنظر إلى أي فتاه وتقول النظرة الأولى لي .

-حاضر .

-حذارِ أن تدخل علينا شيئًا حرامًا .

-حاضر .

-اقرأ أذكار الصباح ، وأنت جالس في السَّيارة ، واقرأ أذكار المساء ، وأنت عائدٌ أيضًا في السَّيارة .

-حاضر .

-سبِّح ، واستغفر الله طوال الطريق .

-حاضر .

-إذا وجدت أيَّ فتاة واقفة في السيَّارة . قم لها ، وابتعد عنها .

-حاضر .

-لا تنسَ الشيكولاته التي أحبُّها .

-حاضر .

--احرص على نفسِك ، ولا تجعل أيَّ شيء يغضبك .

-حاضر...هل يوجد شيءٌ آخر .

-لا ، مع ألف سلامة أعادك الله سالما غانمًا لي ولابنك .

بعد أن يستمع لهذه النصائح التي يحبُّها يخرج إلى الشَّارع ، ويلقي السَّلام على كلِّ من يراه ، ثم يركب ويذهب للعمل.

بعد أن يعود ، يتناول الغداء مع أمنية ، ويتكلم معها في كلِّ شيء ويلعب مع ولده ، ثمَّ يصلي المغرب والعشاء في المسجد ، ويذهب لزيارة أمِّه ، أو أعمامه ، أو أشقّائه ، أو أخته ، وهو سعيد ، وشعر أنَّ في الوقت بركة ، وأنه يفعل أشياءً كثيرة فيه ، عكس زمان ، حينما كان يتعلّل بضيق الوقت وكثرة المشاغل

أما يومي الجمعة والسبت ، فيخرج مع أمنية وولده ليزوروا المناطق الأثرية ، أو السِّياحية ، ولم يعد يخرج أويقعد وحيدًا في الحدائق العامة مثل زمان.

أصبح يشعر بالرِّضا والسَّعادة ، ولم يعد يشعر بالقلق ، و لا بالأرق ، واختفت الرؤية التي كان يخاف منها ، ولم تعد تأتيه إلا نادرًا ، وإن أتته يرى فيها أنه قد نجح ، ومنتظر الوظيفة .

النّهـــــاية

قعد أمام التلفاز يتابع نشرة الأخبار بعد أن جاء من صلاة الجمعة ، وبعد أن انتهت النشرة عرضت القناةُ فيلمًا وثائقيًّا عن المجاهدين العرب في العراق ، وما تعرَّضوا له من ظلم واضطهاد من بلادهم ، ومن قوات الاحتلال في العراق ، ومن بعض العراقيين الخونة الذين كانوا يبلِّغون عنهم ، فتذكر عفيفي فجأة ونادى على أمنية بصوت عال ، فجاءت مسرعة ، فقال لها :

-استعدِّي ، سنخرِج أنا وأنت وعفيفي .

-إلى أين ؟

-سنزور عفيفي .

-الآن! ...أنا أجهز طعام الغداء .

-اتركي كلَّ شيء ، واستعدي أرجوكِ .

-حاضر .

خرجوا الثلاثة ، وذهبوا لزيارة قبر عفيفي ، ومشوا في اتجاه المقابر عكس النَّاس ، فقد كانوا عائدين منها ، فألقى السَّلام عليهم طوال الطريق حتى وصل.

بعد أن ألقى السَّلام على الموتى ، وبعد أن دعا لهم هو وأمنية ، قال محمود مخاطبا عفيفي :

-أنا محمود با عفيفي ، صديقك الذي كان من أهل الأعراف ، وأصبح من أهل اليمين بفضل الله ، وبفضلك أنت وزجتك المؤمنة ، وبفضل زوجتي ، لقد تغيَّرت يا عفيفي كما تمنيت ، وأصبحتُ مؤمنًا بالله عن حق ، وهذا ولدي عفيفي ، وقد وهبته لخدمة الدين ، يا عفيفي اشفع لي عند الله يوم الحساب أنا ، وزوجتي وأمِّي وأبي ، أنا تركت شركتي وعملت في شركة أكبر بفضل الله تعالى ، وبتشجيع زوجتي ، ومساندها لي . حقًا الزوجة الصالحة خير متاع الدُّنيا في الأرض ، شكرًا لك ولزوجتك المؤمنة ، ولزوجتي المؤمنة ، أنا سأمشي مع السَّلامة.

نظر محمود في عيني أمنية ، وهم عائدون وسألها:

- أمنية ، هل تعرفين ، ما هي أجمل ثلاثة أشياء في هذه الدُّنيا من وجهة نظري ؟

-لا

- الإيمان بالله ، مع النجاح ، مع الحب .

-لماذا؟

-لأنهم إذا اجتمعوا مع بعض ، ووُجدوا في شخص واحد ، كان هذا الشخص أسعد إنسان ، وأطيب إنسان ، وأكثر تسامحًا مع الآخرين ، وأكثر تفاؤلًا ، وجميع الصفات الجميلة

ستجدينها فيه ، وأسوء شيء في هذه الدنيا هو ، الإحساس بالفشل .

-الإحساس بالفشل!.

-نعم ، لأنه يجعل الشخص الذي يشعر بهذا الشُّعور إنسانًا يائسًا و حاقدًا و ناقمًا و غيرُ متسامح ويتمنَّى الشر لكلِّ البشر، ربنا يحمينا من شر الفشل ، وخاصة في الحب .

-معك حق ، ربنا يبعد عنا شرَّ النَّاس ، وشرَّ أنفسنا .

توقفت أمنية عن المشي فجأة ، وتغيَّرت ملامحها ، وبدى الذُّعر في عينيها ، وقالت وهي تعطيه عفيفي ؛ ليحمله عنها :

-محمود .

-ماذا حدث ؟

-لقد نسيت شيئًا مهمًّا ، و لم أتذكره إلا الآن .

-هل نسيتِ شعلة الموقد مشتعلة ؟

-لا .

-هل نسيتِ مفاتيح البيت؟

-لا.

-إذن ، ماذا نسيتِ ؟

- نسيت أن أقول لك في الصباح إنِّي أحبُّك أكثر من نفسى .

غضب محمود ، وقال :

- حرامٌ عليكِ ، لقد أفزعتيني .

ضحكت أمنية ، وقالت :

-كلُّ مرة تضحك علي ، وتخدعني ، مرة من نفسى أضحك عليك ، ولكي تعرف أنِّي لست طيبة ، وَسَاذِجَة ،كما تقول دائمًا .

-بل طيِّبة ، وساذجة .

-لا ، لست طيبة ولا ساذجة .

-أحبُّك أكثر من أيٍّ شيء في الدُّنيا .

-وأنا أيضًا ، لكن ليس أكثر من نفسى .

-بل أكثر من نفسك .

-لا .

-هل تحلفين علي ذلك ؟

-لا ، لن أحلف .

-إذن فإنك تحبِّينى أكثر من نفسك .

- لا .

....

.....

...

..

-شكرًا أمنيَّة ..شكرًا زوجتي المؤمنة .

- شكرًا محمود.... شكرًا زوجي المؤمن .

٢٠٠٩/١٢/٣١

مراجع الرواية

١- معركة الفلوجة هزيمة أمريكا فى العراق - أحمد منصور -دار الكتاب العربي.

٢- قصة سقوط بغداد - أحمد منصور - المكتب المصري الحديث.

٣-كتاب النقط فوق الحروف - أحمد عادل كمال - الزهراء للإعلام العربي.

٤-أحاديث الشيخ الشنتاوي محمد رشاد عن مشكلة العنوسة.

٥-ثورة يوليو الأمريكية - محمد جلال كشك - الزهراء للإعلام العربي.

٦-جريدة الأسبوع المصرية - رئيس التحرير أ.مصطفى بكري

٧-الأشخاص الذين استوحينا منهم الرواية.

لمراسلة الكاتب: elamirmustafa@yahoo.com

